


UNIVERSITY
LIBRARY

خالد محمد خالد
- من العلماء -

مواطنون .. لا رعايا

« اذا ما سئلت : هل الشعب جدير
بان يكون حرا .. ؟
« اجيب سائلا : وهل هناك فرد جدير
بان يكون مستبدا .. ؟ »
« جون رسل »

الطبعة الأولى
مارس ١٩٥١

دار النيل للطباعة
شارع القاضي - عابدين ، القاهرة
تليفون ٥٨٨٥٥

الإهداء

إلى الذين —

ضاقت صدورهم بالظلم ..

وطال شوقهم إلى الحرية ..

ويتساءلون : أين الطريق .. ؟

فى هذا الكتاب

مقدمة

هذا كتاب يجيء مع الربيع ، ليبشر بالحرية أمة أضناها صقيع الاستعباد . .

ويدعو المواطنين جميعا أن يؤمنوا بالحرية ، ويكرسوا حياتهم حتى يفيئوا كما ولدتهم امهاتهم احرارا . . لا تلفحهم مقايظ البطش ، ولا يحتدم عليهم اوار القمع والأرهاب . .

وهو قد كتب لتقراه جميعا . . فاذا تواثبت بين صفحاته وسطوره ، فقد اختصرت رحلةالربيع ياصديقى . . ثم هو ليس جديدا عليك . . ولا بعيداً عنك . . فكل كلمة فيه خفقة فى صدرك ، او دمعة فى عينك ، او امل يتململ بين حناياك . .

كما أنه ليس بحثا علميا فى السياسة أو الاقتصاد أو الفلسفة أو التاريخ . .

بل تصويرا نحسبه صادقا لأحاسيس الشعب حيال امنيته الكبرى ـ الحرية . .

❋ ❋ ❋

ولقد كان كتابنا الأول ـ من هنا . . نبدأ ـ دعوة خالصة لتحرير الشعب من الجوع والوهم . .

وهذا الكتاب دعوة مماثلة لتحريره من العبودية والظلم . . واذا الجماهير جاعت ، وخافت ، فقد تقطع ما بينها وبين الحياة من عروة وسبب . . وحق عليها فى مجال مقارنتها بالعالم الحر قول الشاعر العربى :

زعمتم أن اخوتكم قريش　　لهم الف ، وليس لكم الاف
اولئك أمنوا جوعا وخوفا　　وقد جاءت بنو أسد وخافوا

＊＊＊

ونحن نعلم ان فى بلادنا فئاما من الناس يتساءلون فى حنق : ـ لماذا نكتب .. ؟ ولماذا ننقد .. ؟ ولماذا لا نغمد أقلامنا ، ونرخى علينا ستورنا .. ونامر ابصارنا ان تغمض ، وتغضى على الذل أشفارها .. ؟

ولكن ـ اذا رأينا نارا ماردة تجتاح أهلنا وعشيرتنا ـ تلفح وجوههم ، وتشوى أبشارهم ، وتجلجل عليهم جلجلة الجحيم ..

ثم اقتربنا بمضخات الانقاذ ـ نكافح النار المجنونة ، ونطفىء غيظ هذا السعير ..

اتكون قد اجترحنا خطيئة ، واقترفنا وزرا .. ؟

كلا ـ وهذا هو جوابنا للذين يتساءلون .. واعتذارنا عن الواجب الذى نهب لبذله وأدائه .. وانه لمن نكد دنيانا أن يصير الوفاء بالواجبات العامة امرا يستحق التبرير والاعتذار .. !

＊＊＊

انا حين ندير ابصارنا فى هذه الرقعة المظلومة من الارض .. الرقعة التى تضمنا ، وتضم ما حولنا من الامم الجاثية .. نرى شعوبا قد احاطت بها خطيئتها ـ من استعمار دخيل تتضرم هواجره .. واستبداد وبيل تتوقد لوافحه ..

على كل شبر من أرضها ـ آثار أقدام الغزاة ..

وعلى كل ظهر من ظهور بنيها ـ معالم سياط العتاة ..

فلماذا .. والام .. ؟

لماذا يحرمها الاستغلال من لقمتها .. ؟

ولماذا يحرمها الاستبداد من حريتها .. ؟

ولماذا يحرمها الاستعمار من سيادتها . . ؟

ولماذا يأتمر براحتها ، وحياتها قوم ليسوا من أصلابها ولا من ترائبها . . ؟

والام يذل أهلها ، ويعز فيها الغرباء . . ؟!

* * *

ان أهدافنا اليوم تتركز جميعها فى الحرية . .

فلنجرد روح الحكم من الهمايونية والتفرد والبغى . .

ولنجرد روح الشعب من الاسترابة والتربص والخوف . .

ولقد مضى هذا الكتاب يرتاد لنا الطريق . . ثم عاد وعلى محياه وعثاء السفر ، واشراقة الظفر — ليحدثنا عما رأى — ويستحثنا للمسير . .

فلنمض معه فى خطوات اكيدة مطمئنة . . مسلحين بروح الحرية نفسها . .

روح الحرية الذى يضع التفاهم مكان العنف — والفكرة موضع القذيفة .. والوضوح بديل المؤامرة .. والغيرية الفاضلة مكان الأنانية الباغية . .

* * *

ونحن على يقين باننا لن نجد حاكما تفىء منه لبلادنا وشائج القربى والرحم .. يثبط مسعانا ، ويعترض ركبنا ، ويتحدى مشيئة وطنه ومواطنيه . .

واذا خاب يقيننا ، ووجد هذا الحاكم ، فليتقبل منا هذا النصح الأمين . .

ان الحرية لا تغلب أبدا . . وهى تقتات بالمقاومة ، وتزدهر بالتحدى ، وتترقرق الحياة فيها كلما هطلت عليها السنة السياط .

وكما قال فيلسوف كريم : « الذين يكافحون الحرية بالبطش — كالذين يكافحون الحريق بقاذفات اللهب » وانا لاكثر برآ بالحاكمين من انفسهم . . حين ننهاهم عن الأنانية والعدوان . .

ما صالحهم فى أن يفقدوا محبة الشعب ، ويظفروا بعداوته ؟

ما صـــالحهم فى ان يبيعوا مكانهم المرموق فى التاريخ . . بلذة عاجلة ، وحظوة آفلة . . ؟!

❋ ❋ ❋

ان الاستعمار يكيد لنا — حكومات وشعوبا — ويريد ان يضرب بعضنا ببعض ، ويؤلب بعضنا على بعض . . فلنحذره . . ولنؤاخ بين كفاحنا المشترك من اجل التحرر والخلاص .

❋ ❋ ❋

ويا أيها الذين ينتظرون موكب الحياة ليستردفهم وراء ظهــره كما يستردف اللقطــاء . .

ســيروا وحدكم وقابلوه فى الطريق . .

سيروا . . قبل ان يطول بكم الانتظار . . .

خالد محمـــد

شَعْب في السلاسل ..

« قبل أن تحملوا مطارق التحرير ، تبينوا مواضع الطرق .. وقبل ان تمضوا الى الغاية مثقلين ، طهروا ارجلكم من الاغلال ، وخففوا كواهلكم من الاثقال »

خالد

عصر الشعوب ..

على ظهر هذا الكوكب الفا مليون من البشر ، قرروا من غير لقاء ثم بينهم ان يحققوا حرية الشعوب، ويرفعوا الوية الجماهير ..

وهو قرار ازلى قديم .. !

ويوم عزم آباؤهم الأولون على انفاذه ارسلوا رائدهم .. رميلا من البواسل الامجاد ، مضى كالشهاب يرتاد لهم الطريق .. ! وبينما هو ماض الى غايته ،دهمه البغاة من كل فج يحملون المدى ، والرماح ، والسيوف .. وطفقوا يصلونه من نقمتهم سعيرا .. واذ هو يفكر – فى غمرة المباغتة – ايمضى قدما ام يعود – صاحت به الاجيال المستقرة فى ضمير الغيب :

تقدم .. فليس الى مرد من سبيل ..!

وانطلق من جديد يحمل الامانة الكبرى فى شجاعة وايمان ، ويشق طريقا محفوفا بالمكاره والاخطار .. وكلما مر على ملأ من صنائع الشر سخروا منه وتألبوا عليه .. !

لقيته الجيوش فى موج كالجبال .. شارعة حرابها ، فخاض معها معارك الهول وقضى نحبه فريق .. وتدفق الباقون يشخنون فى الارض المجهولة لا يلقون لهواتف اليأس سمعا ولا بالا .. !

لقيه المرجفون والمثبطون ،وحاولوا ايهامه ان السفر طويل، والزاد قليل ، والمغامرة خاسرة ،والهدف جد بعيد .. فنفاهم عن طريقه ومضى ..

تصدت له قصور الاباطرة ،والقياصر .. تسد الطريق وتزحم الافق .. تطأ بقواعدها ارض الناس ، وتتحدى بأبراجها سماء الله .. فدمدم عليها ، وتركها كثيبا مهيلا .. رحلة الضنى

والهول .. كلما تقطعت دون غايتها أنفاس جيل اسلمها الى جيل .. وكلما أنجز تبعاته رعيل، نهض فى اثره رعيل ..

وكانت رواية فذة .. اختلفت مناظرها وتغير ابطالها . لكن موضوعها لم يتغير .. !

ما أروع هذا الذى حدث من أجل الحرية .. !

انظر ! مشاهد تغرى بالتشاؤم والقنوط .. واخرى ترفع قبل العيون منى عذابا .. وآمالا رطابا .. !

مشاهد تتقاذف كهدير العاصفة .. واخرى تنساب وديعة ساكنة كأشعة القمر .. !

فى بداية الطريق ظلام ، ويأس، ثم محاولة وتردد ، ثم اقتحام وتحد .. وعلى طوله أشلاء ودم ومعاصم . واعاصير وعواصف . ومن وراء ذلك عالم تشرق عليه من ذلك الافق البعيد شمس الحياة والحرية والحضارة ..

وعالم آخر لا يزال يلفه مثل الضباب فهو مقرور ضرير .. !

وفى ضمير التاريخ وحده يكمن سر هذا التفاوت البعيد بين الذين غمرتهم الحرية ، فلا يحزنهم اليوم فزع .. ولا يؤرقهم خوف .. والذين لا يزالون مقرنين فى الاصفاد ..!

***

وما أشد حاجتنا الى استطلاع هذا السر الدفين لنفقه ،ونرى .!

لقد وقف حسان بن ثابت شاعر الرسول عليه السلام ذات يوم ينشد من شعره ما يثير ذكريات الجاهلية الاولى ... ولكانما شق الحديث على عمر فهب فى وجهه بصيحته الزاجرة .. فقال له الرسول :

دعه يا عمر يذكرنا بأيام الله ،قال لنا فيها عظة وعبرة .. ! فليتنا نستطيع أن نتذاكر ايام الله فى هذه البشرية الكادحة ،

لنرى كيف مرقت مروق السهم من قبضة الطغيان والكبت .. وكيف انتقلت من عهد الوحدانية الحاكمة – الى عصر الشعوب وحكم الشعوب ..

فبعد ان كان امير الاقطاع يتوج بوثيقة سطر فيها : «نبايع صاحب الحق المطلق فى حياتنا».

اصبحنا نقرأ مكانها .. لكل انسان الحق فى الحياة ، وفى الحرية ، وفى العيش آمنا مطمئنا ..

وبعد ان كان حسن الجوار بين امير وامير يقوم على تبادل هذا النص المخزى : « اتعهد الا اعتدى على ارضه ومواشيه ورعاياه العبيد » ..!

صرنا نقرأ بديلها : « لا يجوز ان يعيش انسان فى الرق والاستعباد »

وبعد ان كان الناس – كما يقول أوليفيه :

« .. يسخرون لصيد الضفادع من الغدران كى لا تقلق الامير الاقطاعى من نومه »

« ويجلدون بالسياط اذا نهروا كلاب سادتهم التى تخرب حقولهم .. ويقذفون فى السجون اذا عارضوا رغبة الملك وبطانته فى الولوع بزوجاتهم او بناتهم »

بعد أن كان ذلك كذلك .. اذا لواء السيادة ينعقد اليوم لهؤلاء. فلا يسخرون لصيد الضفادع ، ولا يجلدون بالسياط ، ولا يستباح لهم عرض او تنتهك لهم حرمات . والآن . لنتذاكر ايام الله فينا .. فى امتنا التى اتعبت التاريخ واتعبها .. لنبصر مكانها فى عالم اليوم ، فاذا كانت لا تزال جاثية مصفدة – نقبنا عن الاوتاد التى تشدها اليها .. وعملنا لتبديد هذا الضباب الجاثم الذى يحجب عنها ضوء السيادة وحرارتها حتى ينزاح عن افق طالما بزغت فيه

حضارات الهبت اشعتها الدافئة ـ الانسانية المقرورة المرعشة بعد أن عادث فيها الصقيع ..

نحن نحس أننا في بلادنا مستوطنون ، لا مواطنون .. ورعايا ، لا أكفاء ..

رعايا كل حاكم مستبد ، وكل اقطاعى كبير ..

رعايا طائفة من التقاليد العفنة التى توجه السياسة والاقتصاد والاجتماع ..

رعايا استعمار مضى ـ ولا يزال ينالنا بأذاه ، واستعمار قائم يلفنا فى الضباب والظلمات .

ويوشك الذى حاق بالهند ان يحيق بنا .. فالبرهميون الذين غزوها وفتحوها ـ أصبحوا هم الهنود .. اما الهنود الاصيلون ، فقد جرفهم الموج والقاهم على الشاطىء البعيد نثارات ..! وصار اسمهم المختار ـ المنبوذين .

فلنحاول قبل ان يبلغ الموج بنا مداه ..

ولننظر السلاسل التى صفدتنا بها الحوادث ، ونفضها .. حتى نقدر على التجديف ومغالبة الطوفان .

واذا نحن علمنا أن روح الامة يسيطر على مصايرها ومستقبلها ، وان هذا الروح مشحون بالرواسب الضارة التى تقعده وتثقله وتخذله .. فقد استبان لنا طريق التحرر والخلاص .

تطهير الروح من رواسب الماضى ...

وتطهير الضمير من مخاوفه .

وتطهير العقل من اوهامه .

وتطهير الارادة من سلاسله الغلاظ ..

وقبل أن نحمل مطارق التحرير ـ يجب أن نتبين مواضع الطرق

.. وقبل ان ننطلق الى الغـاية مثقلين ـ علينا ان نطهر ارجلنا من الاغلال ..

ان الفساد الذى ارهقنا بمشاقه، واعناته ـ هو الاستعمار التركى. لاثمائة عام سويا ..

ثم امتداده الذى تلقف منـه العهد ، وسـار على الدرب ، ولا يزال يسير . وهو الاسـتعمار البريطانى

ثم النظم التى تقمصتها روح الاستعمار وشهواته ليعملا عن طريقها. وأهمها البرلمان البرجوازى .. ثم النفسية الواهنة المريضة التى اثمرها الاستعمار ، وقسمها على ذاتها ـ وتتمثل فى الغـرائز المكبلة الناقمة ..

وسنتحسس الآن بايدينا هذه القيود ، قيدا ، قيدا . ولن نطيل المكث معها ـ فحسـبنا ان نتبين طبيعتها ، ونقف على عوامل بقائها ـ ثم نعنى العناية المسـتطاعة بفطمها ، والخلاص منها .

طوفان رجيم ..!

ذات يوم ، وانا اطالع فى كتاب « أزمة الضمير الاوربى » التقت عيناى بآية رائعة نحيت الـكتاب بعد تلاوتها جانبا وشرعت أتدبر المعانى الجليلة التى تشف عنهـا هذه العبارة الجامعة ، وبلغ من اشراقها ان اضاءت لى مابين يدى وما خلفى .. ورسمت أمامى نهجا كاملا للحرية والخلاص . . امـا العبارة فهذه :

يقول فنيلون ـ « ان الغـزاة الكبار الذين نخلع عليهم صـفات التمجيد .. اشبه بتلك الانهار التى تفيض فتبدو رائعة ، لكنها تخرب الارض الخصبة التى كان عليها فقط ان ترويها .. »

ترى كم من الغزاة الذين تطفلوا على بلادنا يجللهم هذا الوصف، ويحتويهم داخل اطاره الاسـود الرهيب .. ؟

سنراهم الآن راي العين . . أولئـك الذين حسـبهم آباؤنا

الطيبون انهارا تجرى بالخصب والنماء ، فشقوا لها الارض ، ومهدوا أمامها الطريق ـ وفى أصيل يومها ومجراها راحوا ينشدون الحب والثمار ، فاذا الارض خراب يباب .. ليس فيها ما يهتز سوى نفحات القر ، وسبرات الشتاء!

لقد استحال نبعها الوديع ، وانسيابها الرقيق غربا هائجا ، وطوفانا رجيما ـ تبر الربوع تتبيرا .. !

نعم ـ هذا هو الذى حدث ـ فالغزاة الذين اقتحموا ديارنا زعموا انهم هداة لا غزاة . . ومصلحون لا فاتحون .. وانهار غاية سعيها أن تروى الارض لتهتز وتربو وتنبت من كل زوج بهيج .. أنهار ستروى الشعب بالمعارف جميعا .. المعارف السياسية لينهض ويسود ، والادارية لينظم نفسه ويسوس أمره ، والعلمية ليشب عن طوق الجهالة . ويمضى مع الركب العليم الرشيد ..

ثم الفيناهم جميعا فى سباق جبار نحو الكذب والنكوص بقدر ما كانوا فى سباق هائل نحو الوعود المبذولة ، والمزاعم الجريئة ..

الفيناهم طوفانا وسيلا ساق أمام أمواجه العاتية الصاخبة ما كان الشعب قد ناطه به من منى وامل . . وجرف فى عنفوان وجنون بقايا جلده وتماسكه . . والتهم فضل ماخلفته الايام بيديه الضامرتين من قوت .. ثم مضى يتجشأ فى استهتار ـ ويواصل تساوقه وانحداره فى عربدة منقطعة النظير ..! ليست هذه الكلمات شعرا ، ولا مبالغة . . ولنستمع الآن للتاريخ القريب لا البعيد ، فان لنا فيه عظة وعبرة .

ولكننا فى هذا النطاق لن نبسط حوادث .. ولن نتقصى وقائع ، فليس هذا الكتاب سجل تاريخ ـ وغاية ما سنصنع أن نرفع تجاه الابصار أعتى نماذج الاستعمار الذى عاث فى ارضنا ، وطوق اعناقنا .

الاستعمار التركى ... والاستعمار الانجليزى

وانما نختارهما دون سواهما لأنهما أثقل وطأة ، واشد عراما وكيدا — ولأنهما لا يزالان يلفاننا في مثل الضباب من احتلال بريطاني جاثم .. ومن مساوىء خلفها الاستعمار التركي ، واصطبغ بها حكم هذه البلاد .

١ — الاستعمار التركي ..

تركي = طاغية .. !

وحين نبدأ بالحديث عن الغزو التركي تستبد بنا طبيعتنا الازهرية التي تولع دائما بتحليل اللفظ ، وتعقب مادته واشتقاقه . وتأبى الا أن تحلل لفظ «تركي» فما هو .. ؟

ولنذكر أولا — أن علم النفس قد اكتشف علاقة وثيقة بين الانسان واسمه ولقبه ..

ويضرب علماء النفس لنا مثلا — رجلا اسمه « صعب » ، فأن دوام انصباب هذه التسمية في سمعه ، ووعيه يطبع عقله الباطن بطابعها ، ويسم أخلاقه وسلوكه بالصعوبة .. وذلك لا ريب هو سر تغيير الرسول أسماء بعض الناس الذين كانت اسماؤهم من هذا القبيل .

فقد أبدل باسم « حرب » — وكان يحمله بعض أصحابه « سلما » ... وأبدل باسم «أجهم» اسما آخر هو «سمح» .

هناك اذن وحي مستمر توحيه أسماؤنا الينا ، ويلون الى حد كبير طباعنا ..

ايكون هذا هو سر التلازم بين التركية والطغيان ؟

ولكن — هل كلمة تركي ترادف طاغية ، حتى ننشد بينهما هذا التلازم والانسجام .. ؟

نعم — فالترجمة الحرفية لكلمة تركي هي — طاغية !

يقول العلامة البستاني صاحب دائرة المعارف : —

« وقد خرجت من جبال التابى قبائل ، وتفرقت فى انحاء آسيا العليا التى هى الآن تركستان فسماها الصينيون باسم توركو، كما سمى الفرس بلاد تركستان باسم توران ، فكان لفظ ترك أو تورانية ـ اسما جنسيا للقبائل المتوحشة ..

وصارت كلمة توران عند جماعة اليونان تيران ومعناها طاغية .. أو عات ..

« ويذهب كثير من المؤرخين الى ان الاتراك كانوا يلقبون قديما بالمدمرين .. »

ونحن على ذلك من الشاهدين .

فلقد دمرونا باحتلالهم، واشاعوا فينا الجوع والخوف بماكانوا يصنعون .. وسنرى الآن من حكامهم طرازا مقام يوم واحد فى هجيرهم عذاب يتواضع ازاءه عذاب الجحيم ! وانها لثلاثمائة عام متشحة بالسواد والفزع لبثناها تحت وطأة هذا الاحتلال التركى .. فتعالوا لننظر ما خلفه فى ضمائرنا من قروح ، وفى أرجلنا من اغلال .. !

فمنذ عام « ١٥١٧ » ـ يوم غزا السلطان سليم بن بيازيد مصر، الى ما شاء الله من أعوام، والشعب المصرى فى باستيل تركى يروض فيه على الذل والغش والجاسوسية وفى محنة لاهثة جاست خلاله بالسلب والنهب والعلو والاستبداد .

ولقد افاد الانجليز حين استعمرونا بعبقرية الاتراك القدماء فى البغى والفساد .. وطبقوا مناهجهم ، واقتفوا معالمهم حذو النعل بالنعل ..!

ألسنا نعتقد أن مبدأ « فرق تسد » بضاعة انجليزية خالصة؟

والواقع انه من مخلفات الاستعمار التركى . مارسه طوال عهده البغيض حتى مزقنا شر ممزق. فلما جاء الانجليز وجدوه سلاحا ماضيا فتقلدوه !

لقد كان السلطان سليم صاحب الفضل باسوا معانى الكلمة — فى وضـــع هـــذا المبدأ الفاجر واستعماله ..

فقبل ان يغادر مصر الى تركيا مزق السلطة فيها الى ثلاث مزق — وجعل لكل منها اختصاصات تتنافر مع اختصاصات الاخرى كى يدوم الشقاق بينها جميعا .

وهو صاحب هـــذه الحكمـــة الخبيثة :

« اذا اختلف الذباب وتناحر . ضمنت لنفسك نوما طويلا » !!

ا — النهب والاقطاع ..

ولقـــد شرع السلطان ســليم لابنائه وحفدته فضيلة انتهـــاب الامم وسرقة الشعوب . . فان « جورجى زيدان » يحدثنـــا فى كتابه « تاريخ مصر الحـــديث » ان هذا الســلطان بعد فتحه القاهرة والاسكندرية ، وحين ازمع الرجعة الى بلاده نقل معـــه الف جمـــل محملة ذهبا وفضة واســـلابا اخرى ! ارايتم ..؟!

لقد هام كالكلب المسعور فى بلادلا تربطه بها سوى صلة التقحم والتسور والعدوان ، ومضى ينهش كل لقمة فى كف — وكل درهم فى جيب ..

وتولى الخـــلافة بعده ابنه السلطان سليـــمان .. فاعلن فى فرمان رسمى « انه المـــالك الحر لجميع ارض مصر .. » !!

ووزعها اقطاعات على مزارعين دعاهم « الملتزمين » .. نظير خراج باهظ ! ..

ووجد من الاربعة عشر باشا الذين ولاهم حكم مصر فى عهده كل عون لمظالمه وتثبيت لسياسته

واذن فنظـــام الاقطاع هذا آفة تركية جاءنا بها استعمارهم القديم .. ثم لم ترحـــل معه يوم رحل — بل ظلت على شكل باذخ مثير ..

ب ـ الرشوة .. !

والاستعمار التركى هو الذى دنس ضمير هذا الشعب بالرشا .. فلقد وجد نفسه على دين عصابة ضخمة تنتظم الخليفة والباشوات الذين كان ينصبهم على مصر ولاة .. وكل هؤلاء يشهدون أن لااله الا الله ، وان الرشوة والانتهاب من طيبات ما أحل الله ..!

تصوروا أن الباب العالى نفسه كان يشجع الرشوة ويتقاضاها ، ويثيب عليها .!

يقول « بركهاردت » : (١)

« يطلب الباب العالى الموارد .. ولا شىء سواها . ولكى يتسنى للباشا اشباع هذه الحاجة تراه يعمد الى ارهاق الشعب ، ويضع على عاتقه الاعباء الثقال .. أما الباشا الذى يريد خيرا بالشعب ، ويقنع بالايراد العام ويجعل الغلبة فى مجالسه للعدالة فانه يجلب على نفسه دون ريب سخط مليكه ـ لا لأنه عادل ، وانما لان عدالته تمنعه من النهب . ومن نقل جانب مما ينهب الى الديوان . واذا اراد الباشا ان يبقى على نفسه ، فليس امامه من سبيل الا ان يسلم فى صمت رعاياه البائسين الى عصا المستبد .

وكان الارتقاء عن طريق السرقة والرشوة » !!

اذن ، ونحن الآن نعيد فقط كلمات هذا المؤرخ ولا نزيد ..

كانت الرشوة طريق الوصول الى قلب السلطان ، وكان الباشا الذى يريد خيرا بالشعب ، ويقنع بالايراد العام ، ويجعل الغلبة فى مجالسه للعدل يجلب على نفسه سخط مليكه .

---

(١) الدولة والنظم الاقتصادية فى الشرق الاوسط ـ تعريب دكتور راشد البراوى

ويعنى « بركهاردت» بالمليك هنا – السلطان التركى .. ونحن نعنى ذلك ايضا ..

كان الباب العالى يطلب الرشوة من ولاته ، وولاته يقتسرونها من الجماهير الجائعة المضناة .. لذلك كانت عملة متداولة مشروعة !

ويحدثنا كتاب « الكافى» فى جزئه الثالث :

« أن على باشا الصوفى احد ولاة السلطان سليمان كان يقاسم اللصوص سرقاتهم نظير حمايتهم .. مما اغرى الدهماء والخطرين بأمن الناس ..» !!

وكان خلفاؤنا الابرار يبيعون المناصب جهرة ..

فيحدثنا عبد الرحمن بك الرافعى فى كتابه « تاريخ الحركة القومية » ناقلا عن المستشرق مارسل .

« .. ان تاريخ مصر من منتصف القرن السابع عشر الى آخره انحصر فى تعاقب الباشوات الاتراك على ولايتها .. فكان الواحد منهم يشترى منصب الولاية من ديوان الاستانة .. ويظل الباشا فى منصبه لا عمل له الا جمع المال واستصفاؤه من اهله بمختلف وسائل النهب حتى يغادر منصبه .. » !!

وبهذا نرى أن الحكام الاتراك الذين يقاسمون اللصوص نظير حمايتهم ورعايتهم .. والذين يرشون ويرتشون فى وضح القانون . . كانوا أساتذة علموا هذا الشعب المطيع السمسرة ، والرشوة الحرام ..!

ج – الغدر والارهاب ..

ولم تصب مصر بمثل ما اصابها به الاستعمار التركى المديد من

غدر مسلح ، ومؤامرات موصولة وارهاب رجيم ..!

لقد كان الولاة يتآمر بعضهم على بعض .. بل والخلفاء ايضا يتآمر الابن على ابيه ، والاخ على اخيه .. وتفننوا فى الاغتيال وحبك المؤامرات ضد الشعب ، وكانت الجريمة هى الشىء الوحيد الذى يتناولونه بيد الاستاذية البارعة المتفوقة.

ولو انك معى الآن تقلب الصفحات التى اقلبها من تاريخ استعمارهم الاسود لتولاك من الروع والوهل مثل الذى يتولانى

ان القلم ليجفل فى مسيره .. واكاد اشم رائحة الرصاص ، وترتج سكينتى بأصداء الصراخ المنبعث من الضحايا المضرجين .! واسال نفسى : مم تخافين ، وقد ذهبوا ..؟

ربما تفزعها تلك الاشباح التى تتراءى من وراء جرائمهم كأنها رؤوس الشياطين ..

وربما من تلك الظلال المديدة المكتنزة التى تملأ علينا حياتنا رعبا ..!

حين تقرا مثلا ان « محمود باشا التركى » آخر ولاة السلطان سليمان على مصر حين وصل القاهرة لقيه « محمد بن عمر » متولى الصعيد ، ومعه هدايا نفيسة ، وخمسون الف دينار تقبلها الباشا التركى متظاهرا بالغبطة والشكر .. ثم تواصل تلاوة الخبر ، فترى الباشا التركى يأمر باغتيال « محمد بن عمر » عقب مخرجه من لدنه خوفا من منافسته .. ثم يأمر بخنق القاضى المصرى « يوسف العبادى » .. ثم يأمر باغتيال معظم اعيان القاهرة الذين انتقدوا حكمه وسلوكه .. ثم يخترق شوارع القاهرة ومعه (الشوباصى) عميد الجلادين ، يقتل بأمر الباشا رجالنا ، ويستحيى نساءنا .. عندما تطالع هذا النبأ الدامى ، فاعلم ان بجواره مئات الانباء والمذابح .. وامش

الهوينا ، فالطريق التى امامك مضرجة بجثث آبائنا الذين صرعوا جهرة ، اواغتيلوا فى الظلام البهيم .. !

– دنشواى .. التركية .. !

واذا كنا نحتفظ بين ضلوعنا بذكرى مرجفة لفضيحة «دنشواى» التى اعدم فيها الانجليز خمسة من مواطنينا فى ظروف معروفة .. فان هناك فى تاريخ الاتراك فضيحة مشابهة .. تجعلنا نعتقد ان الانجليز كانوا مقلدين فى جريمتهم للغزاة الذين سبقوهم بالقسوة والجريمة !

واذا كانت (دنشواى) .. التركية .. لم تأخذ فى التاريخ مثل المكان الذى اخذته (دنشواى) الانجليزية ، فلأنها لم تكن (دنشواى) واحدة .. بل كانت تتكرر دائما كوسيلة لاذلال الشعب ، واسلاس قياده حتى أصبحت من العقوبات العادية فى شرع الاتراك ..!

حدث ان استولى « محمود باشا التركى » على جميع تركة «ابراهيم الدفتردار» امير الحج وكانت مائة الف دينار ، وجبى من الناس بواسطة السوط والارهاب مثلها .. ثم رفعها الى الاستانة ليرضى عنه مولاه .. وعلم القاهريون ذلك وكانوا قد التمسوا من السلطان عزله علموا ان الرجل قد اشترى سلطانه وسيده بهذه الهدايا المنهوبة .. فكمنوا له فى الطريق وقتلوه .. وفر القاتلون .

وارسل سوء الطالع فى هذه الطريق جماعة من الفلاحين لم يشتركوا فى القصاص من محمود باشا .. بيد ان الحاشية التركية للحاكم الصريع التمست لقتلهم ، والتمثيل بهم نفس الاسباب التى التمسها الانجليز فيما بعد لاعدام ضحايا دنشواى وبث الرعب فى البلد جميعه .

ولعل من الطرائف المسلية ،التى تخفف عنا لأواء هذه القساوة ان نستمع لبعض الاشعار التى تغنى بها الناس عند ماخر ذلك الوحش التركى السائب .

اتى محمود باشا يوم نحس — فساقته منيته غصيبة
تجاه الناصرية خلف حبط — بغيط جاءه منه مصيبة
ببندقة رماه كف رام — فسددها فجاءته مصيبة . !

هـ ـ الذلة ..و العلة ..!

ورسم الاستعمار التركى سياسة لاذلال الشعب ، وافنائه .. وان ما نعانيه اليوم من جبن عقلنا الباطن ،وتوجس عزمنا وارادتنا لأثر محتوم لما انزلوه بنا من رعب وبطش .. لقد انشبوا قسوتهم فى الشعب وشردوا طمأنينته . وضاقت عليه المحاولات بما رحبت. . وبقيت لذلك مثلا ـ تلك القصة التى تروى عن احد الولاة الاتراك حكم هذا الوالى على مصرى بالاعدام .. وعند التنفيذ شدوا وثاقه ،و ربطوه الى سارية . . ثم سألوا : الك حاجة قبل أن تموت ؟ . .

قال : نعم .. ان انقل الى سارية اخرى . .

ففصموا وثاقه .. واذ هو فى طريقه الى العمود الثانى ، توفى الوالى الذى حكم باعدامه . وولى الامر بعده وال جديد . . الغى حكم الاعدام ، وافرج عن المصرى المسكين . .!

ان هذه القصة لم تقع ،وانما اصطنعها آباؤنا ليصوروا بها مبلغ القهر الذى اخذ بخناقهم . وهوان الامل الذى ناطوا به خلاصهم . فالجماهير المضطهدة المغلوبة على امرها بعد أن عجزت عن مواجهة جباريها بوسائل عملية حاسمة ذهبت تتمنى . .وتتخيل،وحتى خيالها كان مكبلا يدور فى مدار ضيق مساحته تلك الاشبار التى تفصل بين ساريتين . .!

ومن هنا اذن جاء هذا المثل الذى ترتله الملايين اليوم : «من خطوة لخطوة .. يأتى الله بالفرج» .

انه تعبير آخر كتلك القصة التصويرية عن بغى الاستعمار التركى الذى حرم الناس حتى من رحابة الامل ..!

وكان للاسقام والافناء سياسة مرسومة كالسياسة المرسومة للاذلال ..

ولكن ماصالح الاستعمار فى اذلال الناس بالعلة ، وافنائهم بالجملة وهو فى حاجة اليهم ليخدموه ..؟

والجواب على ذلك - ان سليمان بن سليم كان قد اصدر الفرمان الذى جعل نفسه به المالك الاوحد لجميع ارض مصر - وهو لن يزرعها بيده طبعا فأعطاها .. للملتزمين .. نظير ضرائب فادحة لاتبقى للملتزم سوى مسكه الرمق ولكن هذا القليل المتبقى للملتزمين لم ينج من اطماع سليمان . غير الحكيم . فاشترط ان تؤول اليه جميع تركات المتوفين الذين لاعقب لهم ولا وارث ، وبقى هذا المرسوم نافذا بعد خلافته ومماته .

ثم تطاول العهد - فكان الباشوات الاتراك يجبون هذه التركات لأنفسهم ، وليرشوا بها السلطان أيضا - فاشتد حرصهم على ان يموت اكبر عدد ممكن من هؤلاء الذين تتوافر فيهم الشروط ..!

وطبعا لا سبيل لتمييزهم فأتاحوا للاوبئة ان تتخذ من بلادنا مزارا ووطنا لتحقيق لهم الغرض الدنىء .. ولتعصف بكل محاولة للمقاومة والنضال .

ومن هذا الاحصاء المتواضع ندرك مبلغ ماكان بين الاوبئة وبين حكم (آل عثمان) من صداقة وائتلاف ..!

ففى عام ١٠٢٨ اجتاح مصر طاعون صرع ستمائة الف نفس

وفى عـام ١٠٣٥ اجتاح مصروباء صرع ثلثمائة الف نفس

وفى عـام ١٠٥٠ اجتاح مصرطاعون خرب مائتين وثلاثين قرية

وفى عام ١٧١١ اجتـاح مصرطاعون اسماعيل ـ وصرع ستين الفا . . (١)

هذه الاوبئة المنقضة الموصولة جعلت من آبائنا الاقدمين ـ حملة ميكروبات ـ للوهن والسقـم توارثنـاها . . ولا تزال أرحام الامهات تنشق كل يوم عن نماذج واهنة لتلك الوارثات .!.

ونلاحـظ ان الاستعمار الانجليـزى قد ورث فيماورث عن سابقه هذه المؤامرة السفيهة المتوحشة . . فسلط علينا وباء الكولـيرا فى اعقاب الحرب حتى لا نجـد قوة نثور بها فى وجهه . . ورفض رجـاء الحكومة المصرية فى منع القيادة البريطانية عن بيع فضـلات الطعام الملوث بالاوبئة المتبل بالامراض . . وحتى الوقت الـذى نكتب فيه هذه الكلمات لاتزال بريطانيـا ترفض حق مصر القانونى فى انشاء محطة رقابة صحية بمنطقة «فايد» كى تتمكن من اشراف صحى كامل على وسـائل المواصلات فى تلك الاراضى المصرية . .!

***

ولم تكن وسيلة الاذلال لدى الاستعمـار التركى ـ السوط وحده ـ بل والسلوك ايضا . . فالوالى التـركى ذو سلوك خـاص مع الشعب . . سلوك يمتاز بالصلف والفطرسـة والتعالى ـ وهو نوع السلوك الذى كان السلطـان يعامل به الولاة والرعايا . .

فالسـلاطين حـين يخاطبون الولاة والباشوات يقولون :

« . . اما بعـد ، فقد تمت ارادتنا السنية الشاهانيـة

---

(١) تاريخ الحركة القومية ـ ج أول ـ عبد الرحمن بك الرافعى

(كـــذا) فاذا أردت اكتساب رحمتنــــا الملوكانية ، فتعال الى اعتابنا ، واقســم على طاعتنا ،والاخلاص لنا .. »

هكذا يخاطب السلطان الولاة ثم تتم مراسم الهوان بالسعى الى اعتـــابه والقسم بين يديه على الطاعة والاخلاص ..!

وهـــم اذا خاطبوا الشعب لايوجهون الحـــديث اليه لهوان شانه ..

بل يخـــاطبونه بواسطة الباشوات قائلين :

«بلغوا عبيد بابنا العالى » ..!

ثم لكى تكون سيادتهم مقدسة وعبودية الرعــايا ضربة لازب يعلنون فى قحة انهم «اعتلوا عرش اجدادهــم الامجاد طبقا للاوامر الواردة من ملك الملوك » ..!ولم تكن هناك مايربطهم بملك الملوك جل شانه سوى هذا الانتحال .

لقــد راض الاستعمار التركى رعاياه على الذل . وراض ولاته على التزلف ، ويمثل الاخـــير اصــدق تمثيل خطاب الخديو توفيق المرفوع منــه الى الصدر الاعظـــم بمناسبة تعيينه مكان والده المخلوع .

نحن الآن مع الصفحة «٢١٦» من الجزء الرابع لكتاب الكافى فى تاريخ مصر . وابصارنا تقترب مشدوهة لتقرأ :

«وصل ليد التبجيل تلغرافكم السامى الآمر ان فراغ **محسوبكم** والدى المحتـــرم عن الحكومة المصرية . وتوجيه مقام الخديوية من **محض جليــــــل عواطف** الحضرة الملوكانية لعهدة **رقيقكم** همـــا من مقتضى عالى ارادته السنية السلطانية . وبالحقيقــة أن تكرم حضرة صاحب الخلافة **الاقدس الذات** بتوجيـــــه مقام الخديوية لعهـدة هذا **العبد** كان دليلا على وجود **عبدكم** مشمولا بفيض النظر الملوكانى ..

« فلذا رفعت الى مقر اجابة الرب القدير اكف الادعية الخيرية ببقاء عمر، وعافية، وارتقاء شان، وشوكة الحضرة السلطانية. عالما علم اليقين ان سلامة الخديوية المصرية وسعادتها وموفقية عبدكم الكاملة يحصلان بالثبات على قدم العبودية والتابعية للسلطنة السنية. »!

من هذا الذى يتكلم.. ويكرر كلمة عبدكم ورقيقكم مرات عديدة..؟

أهو فرد عادى من الشعب.؟

انه الخديو يبذل تواضعه بسخاء.. لان السلطان التركى لايقنع بدون هذا التواضع من تابعيه وموظفيه. ونستطيع على ضوء هذا الخطاب ان نتصور مبلغ اعتداد الشعب بشخصيته - اذا كان هذا مبلغ اعتداد خديويه وحاكمه ونستطيع أيضا أن نقف على تفسير علمى صحيح لقول توفيق للمصريين «أنتم عبيد احساناتنا» واختياره كلمة (عبيد) بالذات..

انها عملية تعويض لاغير.. وهو فيها معذور.. لقد تواضع كثيرا للذين فوقه فلابد ان يتقاضاه من الذين تحته.. من الجماهير والرعايا..!

و - الخداع بالدين..!

ولم يترك الأتراك وسيلة يستغلون بها الرعايا الا انتضوها واذ كان شعبنا متدينا عميق التدين، فقد استغلوا فيه هذه الفضيلة اسوأ استغلال..

فالسلطان سليمان الذى جرد الأمة من جميع ارضها واملاكها. جاد عليها بكثير من المساجد والكنائس التى بناها..! وفى الوقت الذى وقع فيه فرمانا يجعله «المالك الحر لجميع أرض مصر»..

وقع فرمانا آخرهذا نصه : «لاتخرج امراة قط الى الاسواق والشوارع ولومتنقبة الاالعجائز .. ومن خالفت تضرب، وتربط من شعرها فى ذيل حمار ويطاف بها فى القاهرة » ! !

وفرمانا ثالثا : « نطلب من الناس جميعا أن يسيروا بمقتضى الشريعة ـ ويعملوا بموجب السنة » !

يا سبحان الله ! !

نهب واقطاع .. ثم دعوة الى القرآن والسنة ..!

عتو وفجور . ثم تشييد للمساجد والمعابد ..!

هذه شجاعة ضمير لا يقدر عليها سوى الأتراك احد . ان خالق هؤلاء وخالق نيرون واحد

فحين ولى «نيرون» الامبراطورية الرومانية ، قدمت اليه اوراق محكوم عليه بالاعدام لتوقيعها ، فبكى .. بكى نيرون وصرخ : ليتنى ما تعلمت الكتابة ..!

ولكنه فى الفصل الثانى من الرواية .. رواية حياته الآثمة ، سفك دم امه بيمينه.. واحرق روما وهو يقهقه أمام مشهد صاخب من مشاهد الجحيم .!

ان الحكام الأتراك لكذلك .. يؤمنون اول النهار ، ويكفرون آخره .. ويخدعون الشعب بمجاملة نزعة التدين فيه ثم ياكلون حرثه ونسله، ويسومونه سوء العذاب ..

والشعوب حين تبتلى بهذا اللون من السلاطين ، ولا يكون فيها رجل كالعز بن عبدالسلام يقرع الجرس ويبيع امراء المماليك بالمزاد .. فان عاقبة امرها تكون خسرا . . وهكذا كان عصر الاستعمار التركى لمصر وللعرب.

الم تر مرة او مرات.. رجلا يشكو ويئن ، فيقول له صديقه متهكما او مسليا : ادع للسلطان بالنصر ..! ان لهذه الكلمة

الذائعة قصة فى تاريخنا القديم الحديث .

فقد دخل امام احد المساجد ليخطب الجمعة فى عهد بعض السلاطين الأتراك . فوجد المصلين جميعا رقودا يئنون .. فسألهم عن سر هذه المظاهرة الصامتة فأجابوه : ان الباشا هاجم بيوتنا ومعه « الشوباصى » والجند ، وانتهبوا ما فيها من حبوب وقوت زاعما انه سيرسلها الى جيش السلطان .

فسألهم الشيخ : أليست جيوش السلطان تحارب الكفار؟

اجابوا فى سذاجة : نعم !

قال الشيخ : اذن ــ ادعوا للسلطان بالنصر .!!

وذهبت مثلا ..

ولقد افاد نابليون من هذه التجربة يوم غزا مصر ، فاستغل الدين ورجاله وشهدت شوارع القاهرة منشورات كبيرة هذا نصها:

«نصيحة من علماء الاسلام بمصر»

« .. نخبركم أن الطائفة الفرنساوية بالخصوص عن بقية الطوائف الافرنجية . يحبون المسلمين وملتهم .. وهم أصحاب لمولانا السلطان . قائمون بنصرته ، واصدقاء ملازمون لمودته .. يحبون من والاه ، ويبغضون من عاداه .. ولذلك بين الفرنسيين وموسكو غاية العداوة الشديدة وهم يعاونون حضرة السلطان على اخذ بلاد الموسكو ان شاء الله .. » !

ان استغلال الاستعمار التركى للدين لم يكن مصادفة ولا اتفاقا .. بل هو ثمرة خطة واعية هادفة أصاب البلاد منها شر وبيل .. بل وكان الدين نفسه مجنيا عليه فيها .

وآية ذلك ما لا نزال نراه من التعصب ضد المرأة باسم الدين ــ فليس هذا من الاسلام فى شىء .. ولكنها الخرافة الدينية التى روجها الأتراك .. واصدروا بها فرمانا ومرسوما

وعلينا ان نعيد تلاوة مرسوم السلطان « سليمان » الذى مر

بنا آنفا .. والذى حرم به على المراة ان تخرج لحاجتها ولو منتقبة .. ومن فعلت تربط بشعرها فى ذيل حمار .!

أهذا هو الاسلام الذى خاطب رسوله النساء قائلا : « ان الله اذن لكن ان تخرجن لحاجتكن» وأباح لهن الخروج حتى بغير نقاب وحجاب .؟

لكن امة تعيش ثلاثمائة عام فى ظل الجهالة التركية، والتنطع التركى والسيطرة التركية لابد ان تثمر مانعانيه اليوم من رجعية وانحطاط وتعفن .!

***

لقد قال أحد الخلفاء الأتراك: «ساصنع بكم كما يصنع قيصر الروس برعاياه » مخاطبا شعبه وشعوب مستعمراته .! فماذا كان يصنع القيصر .؟

هنا سيتبين صدق قولنا ــ ان استغلال الدين كان خطة مرسومة ،ولم يكن مصادفة طارئة

فقد كان القيصر ــ اى قيصر ــ بارعا فى استغلال دين بلاده.

وكان رجال الدين فى الكنائس يصلون بالناس «صلاة القيصر»

ايها القيصر ..

نحن عبيدك المخلصون ..!

يا ظل المسيح ..!

ويا روح الحق ..!

نعيش لخدمتك ..!

ونطيعك فيما تقول ..!

وهكذا اراد الأتراك ان نعبدهم من دون الله .. وافهمونا ، وهم يتولون الملك كابرا عن كابر، أو صاغرا عن صاغر .. انهم كما يقول الفرمان « يتولون العرش طبقا للاوامر الواردة من ملك الملوك » !

ز ـ الاستعمار التركى ـ والجهل

وهذه الأمية التى لا تزال لطخة سوداء فى وجه مصر اثر من امجد آثار الاستعمار التوكى، واحقها بالاشادة والتنويه ..! فقد عاشت مصر اعوامها الثلاثمئة محرومة من الثقافة والمعرفة.. ودبر الأتراك مؤامرة للاجهاز على لغة البلاد.. واسموا اللغة العربية «لغة الفلاحين» وكانت اللغة التركية لسان السادة والقصور ..

ولا تزال مظاهر هذه الاستهانة بلغة البلاد ماثلة امامنا ـ فعلى بعد خطوات منا، وفى داخل القصور السعيدة المترفة ـ يعيش اقوام لا يعرفون عن لغتنا القومية شيئا سوى انها الهمهمة التى تتحرك بها شفاه الرعايا .. وتضطرب بها مشافر القطيع حين يكلم بعضه بعضا ..!

ولقد كانت مصر قبل استعمار الترك واحة يأتلق فيها علماء نوابغ كابن اياس وابن خلكان والمقريزى وابن حجر وابن العميد والذهبى والدميرى وابن نباته وصاحب «صبح الاعشى» وسواهم

كذلك كانت مهاجر الاحرار المفكرين حين يمسهم فى بلادهم نصب واضطهاد . فقد هاجر اليها ابن خلدون وابن تيمية وابن القيم وآخرون .

فلما جن ليل الأتراك، وكان ليلا بهيما ، ران الجهل على البلاد وعاش قرير العين فى حمى حلفائه واصدقائه الأتراك ..

ترى هل كان اضطهادهم للعلم تشيعا للجهل .؟

هنا نلتقى بكارل ماركس ، على غير موعد بيننا .. حيث تضىء لنا الطريق، نظريته التى يرد بها جميع الظواهر والاشياء الى اسباب مادية واقتصادية.

فلقد كان للمدارس أوقاف كثيرة يانعة . تلفت الأتراك نحوها ثم قالوا : يا ليت لنا هذا الطول العريض ..وماأسرع

ما تتحقق لهم الأمنيات .. فنهبوا أوقاف المدارس ، وباعوا جميع المكتبات الكبرى التى كان الفاطميون قد خلفوها ـ وجاوز جشعهم واستكلابهم كل حد.. فاقتلعوا ابواب المدارس، وأخشاب النوافذ والسقوف ثم باعوها .!

يقول على باشا مبارك فى «الخطط التوفيقية» «..اهمل امر المدارس .. وامتدت يد الأطماع الى أوقافها، واحتجزت مرتبات المدرسين والطلبة والخدم ففارقوها جميعا وانقطع التدريس فيها، وبيعت كتبها، وانتهبت. فخربت وصارت زرائب ..» !

لماذا ننبش القبور ..؟

هل تظن ، وانت تقرا هذه السطور .. وتستعرض بعض مشاهد الماضى ، انك امام عرض تاريخى .. أو حديث نزجى به الفراغ ، ونملأ به الصفحات .؟ لا ـ انت امام غرض أجل ، وغاية اسمى ..

ونحن ننبش قبر الاستعمار التركى حقا لنكتشف الاوتاد المطمورة تحت ترابه والتى لاتزال تصلنا بها سلاسل واغلال .. أن نشوء الجريمة يلقى ضوءا ناصعا على أطوار نمائها، وعوامل تشبثها بالبقاء ..

ونحن شعب تعيث فيه جرائم الاستبداد السياسى، والاستغلال الاقتصادى ، والأقطاع المتفشى، والرجعية المنحدرة ..

وتحتل نفوسنا عقد غليظة تحملنا على الخنوع والعجز والاضطراب ..

ويجثم فوق ظهورنا ماض موقر بالأوزار يوبقنا عن الحركة ويعتاقنا عن التقدم ..

فليس لنا بد من تطهير آبارنا

ان علماء الاجتماع يقررون أن «روح الأمة يسيطر على مصايرها ومستقبلها »

والأمة .. ما هى ؟

انها ليست جيلا يقيم على ارضها ثم يزاورويختفى ـ بل هى تياربشرى متساوق الموجات، يجرى لا مستقر له .. وكل موجة فيه دافعة مدفوعة .. مؤثرة متأثرة ـ معطية آخذة.. وهى فى نقل تطورها تأخذ من ماضيها وتصب فى حاضرها ـ وتتدفق نحو مستقبلها .

وما لم ننظف روحنا المسيطر من رواسب الماضى فسنظل دائما نعيش فى ذلك الماضى برجعيته وفساده واستبداده.. وسيظل الشعب جاثيا تحت الاثقال التى انقضت ظهره ، وهدمت قواه

لابد لنا من روح جديد مطهر من ذكريات الاخفاق والفشل.. تسويه وتنفخ فيه ضرورات حاضرنا ، وتبعات مستقبلنا..

واذا لم نصنع ، فسنظل امتدادا لظلمات الحكم التركى. ومطايا ذللا تحمل فوق ظهورها اخطاء واعباء ماضيها.. وقطيعا ابله ، يضطرب فى المرعى القاحل ويدور .. يرى هشة العصا فيتراكض .. ويصك الزحام بعضه ببعض فيتهارش.. والراعى هناك فوق الهضبة السامقة ، يسوس القطيع بنظراته الزاجرة .. وهو يقلب بيديه البضتين شرائح الشواء على المدفاة .. حتى اذا غص بطنه الكريم .. القى على القطيع نظرة فاحصة .. واستل سكينه المخضب ، وخاض بين قطيعه المطيع .. يتخير منه ذبيحا آخر.. لوجبة اخرى ..

فلنغادر الماضى ..

وان هذا العرض «السيكولوجى» للحقبة التى قضيناها فى قبضة الاستعمار التركى لتكشف عن المأساة .. المأساة التى تتمثل فى اننا ـ الدولة والشعب ـ لا نزال نعيش فى ذلك الماضى السحيق .. وان كل نصيبنا من التقدم ومزاملة الزمن .. بل كل مايربطنا بالحياة المتجددة السيارة هو تواريخ الشهور والاعوام ..

فنحن نؤرخ وجودنا الآن بعام «١٩٥١» بيد اننا نعيش فى عام « ١٥١٧ » حيث بدا الاحتلال التركى ، وفيما تلاه من اعوام وقرون ..

فالعجز السياسى .. والرجعية الاقتصادية .. والانهيار الخلقى والشعب المستسلم .. والحكم الأتقراطى .. والفساد الادارى .. والحريات المصادرة. واستغلال الدين .. كل هذه الخطايا تقترف اليوم بنفس الهمة العالية التى كانت تجترح بها فى تلك القرون ..

ودلالة هذه الحقيقة المؤسفة اننا لانزال نعيش فى ظل الاستعمار التركى .. صحيح ان اشخاصه اختفت وطواها التراب .. ولكن اخلاقه وشعائره لايزالان يثمران كل ما اثمراه بالأمس من فساد

فأول اغلالنا التى تصفدنا – هذا الماضى .. فلنغادره، ولنصنع لنا حاضرا جديدا حرا باسلا

وستكون فصول الكتاب الآتية بمثابة القنطرة التى نقترح اقامتها لنعبر عليها .. مغادرين هذا الظلام ، ميممين وجوهنا شطر حياة تستحق ان تسمى حياة

والآن – فالى ثانى اغلالنا.

٢ – الاستعمار البريطانى

ان الفساد التركى الذى اوجزناه فى السطور السالفة .. كان القنطرة التى عبر عليها الينا الاستعمار الانجليزى

وبقاء آثار ذلك الفساد . هو العامل الاوحد فى بقاء الاستعمار الانجليزى . .

فالاثنان مرتبطان نشوءا ، وتطورا ، وبقاء . .

وهذه حقيقة يجب ان تملأ منا البصائر والاذهان

عند ما بدات الامبراطورية الباغية – التركية – تترنح تحت وطأة الترف الذى بددها – والفتن التى مزقتها .. كانت

طبائع الاشياء تهيب بسيد جديد كى يتقدم ليستولى علينا ..
وكان هذا السيد هناك .. وراء الحوادث ، واقفا يترقب ..

لم يكن نابليون .. فقد ذهبت محاولته فى نفس الطريق الذى ذهبت فيه محاولة لويس التاسع فى القرن الثالث عشر .. وكان هذا الناهب الجديد . بريطانيا

لماذا دخلت بلادنا ..؟

لقد اعلن الجنرال «هتشنسون» بلسان حكومته ان القوات البريطانية جاءت لتثبيت سلطة الباب العالى .. اذن فلاتراك هم الذين ادخلوهم ديارنا بعد ان قبلوا حماية الانجليز لهم من الفرنسيين اولا .. ثم من الشعب ثانيا .. واعلن الانجليز انهم مسئولون عن حماية الباب العالى ومنافعه ونفوذه .

وقبل ان يغادروا مصر هذه المرة احتفروا وقيعة غائرة بين الاتراك الذين يدعون الحرص عليهم وبين المماليك .. ثم اوعزوا الى «محمد الألفى» ان يذهب الى لندن ليطلب معونة الانجليز وحمايتهم ..!

وهذه هى اللعبة التى ظلت بريطانيا ولا تزال تلعبها لتبقى مصر منطقة نفوذ لها ..

فقد تكررت فى المؤامرة التى اوقعوا فى حبائلها توفيق وعرابى وذهبوا يمثلون نفس الدور مع احمد عرابى موعزين اليه ان يطلب حمايتهم كما صنع الألفى سابقا

فيحدثنا شاهد عيان هو «شاروبيم بك» فى الجزء الرابع من كتاب «الكافى»

« .. وتقدم كوكسن نائب القنصل الانجليزى من احمد عرابى امام قصر عابدين فى يومه المشهور وقل له : ان كنت تخشى شيئا فانا كافل لك انت ومن معك حفظ ارواحكم وعيالكم واموالكم ، وجميع ما لكم من الرتب والقاب الشرف .. » !

أراينا ..؟ انها نفس اللعبة القذرة التى دخلوابها.. وعليها الآن يتكئون ويرتكزون ..

ولقد أجاب عرابى جوابا جديرا بمصرى أصيل فقال :

« بورك فيك أيها السيد ، كيف تحفظ أرواحنا وأموالنا وعيالنا وانت نفسك غريب تعيش فى حفظنا وحمايتنا .؟! » وأراد عرابى أن يبالغ فى احراجه واذلاله .. فقال :

« وكيف تستطيعون حمايتنا وقد وعدتم بها ومعكم فرنسا ، اسماعيل صديق باشا .. ثم لم تدفعوا عنه مرارة الكاس التى شربها قهرا ..؟! »

ان عرابى يومذاك كان يمثل كل الوراثات النبيلة والاصيلة التى نبض بها تاريخ هذا البلد الطويل .

وماذا عليه لو دخل فى حماية « كوكسن ، وكولفن » كما صنع الآخرون .. ؟ ـ ان وطنيته الاصيلة ترفض هذا الهوان .

الكلمة الثانية ..!

وسعر الانجليز الفتنة وأججوها .. وتقدم ممثلهم فى مصر من عرابى وسأله :

ـ ماذا تفعل اذا لم تجب مطالبك .. ؟

أجاب ـ أقول كلمة ثانية ـ

ـ وماهى هذه الكلمة ؟

أجاب ـ أقولها عند القنوط .

وعمل الانجليز على أن يقنط أحمد عرابى فحرضوا عليه الخديو وعندما قال كلمته الثانية كانت الشوارع تموج بالدم والاشلاء

ثم كان منشور الخديو والخليفة التركى يتلى ويذاع مبشرا بعصيان عرابى ومن معه ..

ثم توالت المشاهد تترى فى تناقض عنيف ..

فالخديو توفيق يعود الى عابدين من الاسكندرية .. وان موكبه ليتهادى بين صفين طويلين من جيوش بريطانيا الغازية ٠٠ وفى نفس الوقت يدفع أحمد عرابى بأعقاب البنادق الى غرفة مظلمة فى قشلاق قصر النيل ٠٠!

والخديو توفيق يشرف الوليمة الكبرى التى دعا اليها القوات البريطانية ويجلس بجوار الدوق « أوف كانوت » تحت العلم البريطاني الذى يخفق خفقات التحدى والازدراء ٠٠ حتى اذا فرغوا من الطعام قام بين عزف الموسيقى وقرع الطبول ليقلد نيشان « النجمة المصرية » كل جندى انجليزى شهد موقعتى كفر الدوار والتل الكبير ٠٠!

وفى نفس الوقت كان أحمد عرابى هناك ٠٠ يستمع الى عريضة الاتهام :

« يا أحمد عرابى - لقد أتوا بك أمام هذه المحكمة بصفة أنك متهم بالعصيان والخروج على طاعة « الذات الخديوية » وعقابك على هذه الخيانة يكون بمقتضى كل من المادة الثانية والتسعين من القانون العسكرى العثمانى ، والمادة التاسعة والخمسين من قانون الجزاءات الهمايونى » !

ومشهد آخر ٠٠٠

فعلى جدران البيوت والشوارع الصق هذا المنشور الكريم -

((ارادة سنية لكافة اهالى وسكان مصر))

« لما كانت الدولة البريطانية لها بالقطر منافع كبرى ماليا وماديا ولا سيما بالنظر الى قنال السويس ، فقد أخذت على عهدتها التدخل الفعلى لقمع المفسدين دون أن تمس حقوق السلطة السنية ، والامتيازات المصرية ٠٠٠

« ولتحققنا أن نيتها ومساعيها فى الظاهر والباطن ليست الا الاصلاح .. قد رخصنا لحضرة القائد العمومى للجيش الانجليزى

بالتحول نحو جموع العصاة ،واستعمال الوسائل القاهرة لتبديد شملهم وسرعة القبض على رءوسهم ٠٠

« وبما أن العساكر الانجليزية يعدون فى هذه الحالة نائبين عنا فى قطع دابر المفسدين فانهم جديرون بالمعاونة والمساعدة ٠٠ وعلى كل مصرى يحب وطنه ويخشى خرابه أن يعاملهم لقاء حسن نياتهم بالاكرام اللائق بهم ولا يتأخر أحد عن مساعدتهم » ؟!

ثم دار الزمن دورته ، ووقف محمود فهمى النقراشى بمجلس الامن صارخا فى وجه ممثل بريطانيا

– اخرجوا من ديارنا أيها المتطفلون ٠٠

فينهض رجل عملاق فى برود وثبات وسخرية ٠٠ وأشار بيده كالسهم ٠٠٠ كأنه يومىء الى تاريخ غير بعيد وقال :

– أيها السيد ٠٠ اننا لم نتطفل على بلادكم ٠٠ ولكننا دعينا فأجبنا الدعاء ٠٠!

وأغلق النقراشى فمه ٠٠٠ ودارت برأسه الكلمات ٠٠ وصرخ فى أعماقه صرخة مكتومة ، فقد ذكر كل شىء ، وأفاق ٠٠!

لو سارت الامور كما يريد عرابى وتوفيق ٠٠ أكان سيحدث هذا الذى حدث ..؟

لا نظن ٠٠ ولكن الانجليز أرادوها فتنة صاخبة ليتسللوا فى دخانها المتكاثف داخل بلادنا

وقد كان ٠٠ وهذا درس بليغ فلنذكره حتى نعود اليه بعد حين.

الانجليز وجيشنا !

قرر الانجليز أن يكون استعمارهم قفصا كبيرا يسجن فيه طموحنا وآمالنا ٠٠ فرسموا من أول الامر سياسة اضعاف الجيش – حتى نظل هوانا يسام – لا قوة تسيم ٠٠

ولذلك كان منشأ حقدهم على عرابى وتعجيلهم بتسديد الضربة

الى مصر ، محـــــاولته النهوض بالجيش ، وارباءه الى ثمانية عشر الفا ..

ولذلك أيضا رأينـاهم يلغونه ويسرحونه غداة انتصارهم على عرابى ـ واختصروه فى لــواء صغير جميع ضباطه من الانجليز

ومحوا العلـوم الحربيـة والعسكرية كلها من المدرســة الحربية التى كانت تخرج لنـا الضباط ..

وهم الذين تعهدوا فى معاهدة سـنة ١٩٣٦ بتسليح الجيش وقبل أن يجف مداد المعـاهدة ـ ويتلاشى من الافق صدى طلقات المدافع الفرحة .. وردوا لنــا « ذخيرة كذابة » لاتصلح لصيـد العصافير ..!

وهم الذين عثروا يوما بسلاح طيراننا على (٥٠٠٠) قنبلة ثقيلة فاقترضوهــا ... ثم أبوا أن يعيــدوها حتى اليوم .. وهم الذين حرموا علينا استيراد أسلحة من دولة كروسيا .. ثم امتنعوا عن بيعنا أسـلحة قبضوا فعلا أثمانها ..! وهم الذين فزعتهـم محـــــاولاتنا الاخيرة ، فجاءوا باسرائيل لتحاربنا ونحاربهــا ، وفى قلب الملحمــة تخلـوا عن التزاماتهم حيالنا . لا مجــاملة لاسرائيل كما نتوهم فى سذاجة وغباء ... بل لغرض آخر ، هو تعريض جيشــنا لهزيمة ماحقة تذل كبرياءه ، وتزلزل ثقة الامة فيه ، وثقته بنفسه ..

ونحـن على يقـين ، أن تلك السرقات والآثـام التى اشتملت عليها حملة فلســطين ـ كانت بتدبيرهم غير المباشر .. واغرائهم غير المرئى .. وتحريك مطامع الجناة وشهواتهم دون أن يعرف أحد حتى الجناة أنفسهم .. المحرك الاول لهذه الشـهوات .. وهى خطة هادفة .. أراد بها الانجليز أن يحدثوا بها هزيمة معنوية بعد الهزيمة المادية التى كانوا مؤمنين بها .. وفى الوقت المعلوم ونحن ننادى بقدرتنا على حماية خطوطنا ومنطقتنا وندعوهم للجلاء ... كشفوا الغطاء عن الخبء الكريه وقالوا : هاأنتم هؤلاء ..!

ان سفارة انجليـــزية ـ غير رسمية ـ سفارة مجهولة تعمـل فى بلادنا عمل الجبارين لتصيبنا بشر ما يمزقنا • وهم فى هـدم الجيش يصدرون عن ســياسة تقليدية لهم أوصـــاهم بهـا (غلادستون) يوم قال : حذار أن تسلحوا الجيش المصرى ••!

الانجليز •• ووحدتنا •!

والانجليز الذين أثاروا الفتنة بين العثمانيين والمماليك ليسوغوا بقاءهم •• ثم حملـوا الالفى على الاستنجاد بهم ـ ليكون بقاؤهم مشروعا من الجانبين ـ جـــانب السلطان وجانب المماليك •

والذين فرقوا بين توفيـــق وعرابى ليعودوا بجيوشـــهم ويحتلوا البلاد احتلالا عســكريا مدبرا •••

هؤلاء هم الذين أغروا ســعدا بعدلى ، وعدليا بسعد •• وأقاموا سياستهم على بث الحقد وتعميقه فى نفوس بعض الزعماء على بعض .. وبعض الجماعات على بعض

ليس الخــلاف فى الرأى هو هدف الانجليز ـ فالخــلاف فى الراى لايضير .. ولكنه الحقد والخصومة واللدد ..

وسنظل ضحايا هذه الخصومات السود مادام للانجليز فينا نفوذ •• وهم حين يعجزون عن النفاذ الى وحدة الامة باحدى وسائلهم الكثيرة ، ينفذون من الزاوية الحادة غير مكترثين

ان نبيهم « دزرائيلى » يناديهم من مكان غير بعيد :

« لابأس بالغـــدر والكــذب والوقيعة ، اذا كانت هى الطريق !

الانجليز •• وحريتنا •!

ولقــد اضطهدونا اضطهادا موصولا ـ ولايزالون ـ وساموا حرية الشعب ســـوء العذاب ، واصطنعوا لانفسهم حثيات من الذين تجرى فى عروقهم مصرية مستعارة وسلطوهم على الجماهير وأحاطونا بحصار قاس ظلوم ـ فلا نتصـــل الا بالدولة التى

يختارونها ٠٠ ولا نصادق الا من يصادقون، ولانعادى الامن يعادون

حتى حرية البيع والشراء ٠٠ حرموها علينا ٠٠ ولقد اشتروا قطننا ذات عام بعشرة جنيهات للقنطار الواحد ـ وباعوه على بعد خطوات منا بخمسين ٠٠٠ فى السودان !

بل حتى حرية الاحتفاظ بالعرض والشرف ٠٠ سلبوها منا ٠٠ ففى وزارة محمد محمود باشا الاخيرة ـ هم بالغاء البغاء فمنعه الانجليز قائلين :

ـ وأين يقضى جنودناوطرهم ؟

أى أنه لابد للدولة بعد أن استبيحت أرضها وسيادتها ـ أن تقدم للغزاة نساءها بنفس السماحة التى تقدم بها غذاءها وكساءها ٠٠ !

وقد يتكلف الانجليز اليوم التسامح والحلم ٠٠ لاننا صامتون ٠٠ ولكن هذه الاردية الكاذبة تنضيها عنهم المقاومة حين تكون ٠٠ ففى ثورة « ١٩ » لم يتركوا موبقة الا اقترفوها قتلوا ٠٠ وصلموا الآذان ٠٠ وسملوا العيون ٠٠٠ وهتكوا الاعراض فى عربدة معدومة النظير .!

وكل الذى نعانيه اليوم من قهر واختناق ، بقية من القوانين التى وضعوها ٠٠ والتى أوحوا بها ٠٠ لتكبيل حرية القول وحرية العمل ٠٠

ويجب أن نعلم أن الاستعمار البريطانى يقف وراء كل اجراء شاذ تصادر به حريات الشعب وتسفه به رغباته ٠٠ وحين نتحدث عن واجبنا ازاء هذا الاستعمار فى الفصل الاخير ستزداد هذه الحقيقة تألقا ونصوعا

٣ ـ البرلمان البرجوازى

ان الاستعمار البريطانى ذكى ٠٠ وهو ، وقد ورث مخلفات سلفه البغيض ـ الاستعمار التركى ـ حاول أن يصوغ هذه

الاســـاليب القديمة فى أخرى مستحدثة ٠٠ وأن يسكب الفساد القديم والبغى القديم والمكر القديم فى قوارير جديدة ثم يقـــدمها لرعاياه شرابا سائغا ٠٠

واذا كانت الشهوات ـ كمـا يقول أندريه موروا ـ فى حـاجة الى أجساد تتقمصها كى تعمل ٠٠ فان الاستعمار البريطانى لم يقنع بتقمص الاجساد ٠٠ بل تقمص النظم والقوانين كذلك ٠٠

فقد عاونتا على أن تكون لنـا حياة نيابية ، ولكنه وقد شـهد ميلادها ـ بل وساهم فى خلقها ٠٠ صاغها كما يريد ـ لا كمـا تريد ضروراتنا وطموحنا ٠٠

فالحياة النيابية الانتهازية ٠٠ والبرلمـــان الاقطـــاعى يوما ، والبرجوازى يوما آخر ٠٠٠ هو الغل الثالث الذى يقيد حياتنـا ويعتاق نمونا ٠٠

ونحن لانعنى برلمـانا بعينه ، ولا هيئة نيابية بذاتها ٠٠ نحن نعنى روح هـذا النظـــام التى تتقاصر دون حاجات الشعب ولا تسعفه بما يريد ٠

فالاثرياء والمحظوظون لا يمكن أن يمثلوا كل التمثيل شعبا حالفه الجوع والحرمان ٠٠

ولكى نتخلص من اثبات هـذه الحقيقـة أولا ـ ونثبت أن الذين يتحدثون من زمن بعيد باســم الفقراء ـ ليسوا ٠٠ بل لم يكونوا ساعة واحدة من أعمارهم فقراء ـ نطالع أسماء أعضاء أول مجلس نيـابى ـ ثم ماتلاه من مجـالس وهيئات ٠٠

ان أول مجلـس كان مجلس شورى النواب الذى تألف عام ١٨٦٦ ٠٠ وكان ندوة للطبقـة البرجوازية الرفيعة فى البـلاد ٠٠ كان جميع الاعضاء من العمد ٠٠ وكان العمد يومذاك يمثلون الصف الثانى ـ أما الصف الاول فالاقطاعيـون الكبـار ٠٠ وأما الثالث فالشعب البائس المحروم

فمديرية الغربية نجد ممثليها فى المجلس من طـراز اتربى بك أبو العز

على كامل ـ عمدة القصرية

الحاج شتا يوسف ـ عمدة أبى مندور

الحاج محمدحمودة ـ عمدة برما الخ ...

ومن مديرية المنوفية نجد : ـ

الحـاج على الجزار ـ عمـدة شبين الكوم

محمد افندى شعير ـ عمـدة كفر عشما

على ابو عمارة ـ عمدة مليج

وعن الشرقية نجد :

بركات الديب ـ عمدة القرين

محمد افندى عفيفى ـ عمدة الزوامل

عبدالله عياد ـ عمدة كفر عياد

وعن اسيوط نجد :

عثمان غزالى ـ عمدة بنى رزاح

يوسف محمـد عمر ـ عمدة الشيخ تمى

عبدالعال موسى ـ عمدة دروة

وهكذا عن بقية المديريات .. كلهم عمد واعيان ..! (١)

فاذا جئنا البرلمان الذى انتخبه الشعب سـنة ١٩٢٤ وكان اول هيئة نيابية دستورية ـ وجـدنا الباشوات والاعيان ايضا .

فاذا سرنا على الدرب الفينا نسـخا متعددة لطبعة واحـدة أو طبعات متعددة لكتاب واحد .

---

(١) **عصر اسماعيل** – عبد الرحمن الرافعى بك

فتـــارة نلتقى مثـــلا بأصحاب السعادة :

احمد ذو الفقار باشا

احمد زكى ابو السعود باشا

احمد على باشا

اسماعيل سرى باشا

حسين خيرى باشا

وتارة أخرى نلتقى بــــ : —

حسين شريف باشا

محمد افلاطون باشا

محمد العبانى باشا

حسن حسيب باشا

عثمان محرم باشا

محمد البدراوى عاشور باشا

وهكذا تسير منذ بداءة الحياة النيابية حتى اليوم بين صفين طويلين من الباشوات والاعيان . فاذا بلغت الهيئات النيابية الحديثة وجدت نفس الظاهرة ..

وأمامى الآن أسماء خمسة من اعضاء مجلس الشيوخ لهيئـــة برلمانية حديثة — خمسة فقط يملكون — ١٧ قيراطا ٦٥٠٠٠ فدانا

ونحن طبعـــا ، لا نفكر حين نعرض هذه الظاهرة فى التنديد بهيئاتنا النيابية ، ولا بأعضائها . وانما نتساءل فى ضوء هذا الواقع

هل يمكن لهذه المنظمات النيابية ان تمثل شعبا تسعة اعشاره من الحفاة العراة ؟

هل يمكن ان يوافيها الاحساس الصادق بآلام الجماهير الكادحة ؟

هل يمكن أن تسعى لحـــرية الشعب وحقوقه كاملة .. وهى تعلم ان كل حظ من الحرية يناله ينقص من حرية الأعلين، وكل حق يأخذه ، يصيب ثراءهم العريض بالنحول ..؟

ان البرلمان البرجوازى ليس اكثر من تضـــامن الاعضـــاء مع الحزب الحـــاكم لتبادل المنافع والمآرب ..

والحياة النيابية لا تكون حياة .. قوية نابضـــة ، الا اذا كانت معبرة عن جميـــع خصـــائص الشعب .

وانا لنجد من الوقائع والتجربة ما يؤكد اعتقادنا بان هذا التخبط الذى أصبنا به فى الحقبة الاخيرة من حياتنا انما سببه الاكيد سوء تمثيل الحياة النيابية للشعب .

وحسبنا أن نسال :ـ

ماذا كان يحدث لو وجد بمصر فى عهد اسماعيل برلمان قوى يمثل الشعب ، لايمثل حفنة من أصحاب المصالح والاطيان ؟

وخير جـواب على هـذا هو سؤال آخر :

ماذا حدث ، ومجلس شورى النواب يومذاك يمثل ذوى المصالح والاطيان .. ؟

حدث ان اقترض اسماعيل :

١ ـ عام ١٨٦٤ ـ ٢٠٠ر٧٠٤ر٥ من الجنيهـات بحجـة مقاومـة الطاعون البقرى ـ ثم ترك الطاعون يعيث فى البلاد والعباد ..

٢ ـ واقترض عام ١٨٦٥ ـ ٣٠٠ر٣٨٧ر٣ من الجنيهات ليشيد بها قصر «ميركون» على ضفاف البسفور .

واقـــترض عــــام ١٨٦٦ ـ ٠٠٠ر٠٠٠ر٣ ليشترى بها أملاك الاميرين مصطفى فاضل ، ومحمد عبد الحليم كى يتخلص من منافستهما له

واقترض عام ١٨٧٠ ـ ٠٠٠ر٠٠٠ر٣ دفعهـا رشـوة

للاستانة كي يظفر بلقب «خديو» وسافر ببقيتها الى باريس .

واقترض عام ١٨٧٠ ــ ٧٫١٤٢٫٨٦٠ لينشيء بها مصانع السكر الخاصة به ، وبمد سكة حديد زراعية تربط أطيانه المترامية بعضها ببعض .

واقترض عام ١٨٧٣ ــ ٣٢٫٠٠٠٫٠٠٠ رهن قبلها بعض مصالح الحكومة

وهكذا ظل يقترض حتى بلغت قروضه ١٢٦٫٣٥٤٫٣٦٠ من الجنيهات ــ (١)

حدثت هذه القروض المفجعة التى اروى بها اسماعيل هواه . وملأ الارض قصورا ــ فشيد قصر عابدين ، وسراى الجزيرة ، وقصر القبة ، وقصر حلوان ، وسراى الروضة ، وسراى الاسماعيلية ، وسراى الرمل ، وسراى الزعفران ، وقصر راس التين . وعشرات أخرى سواها

وحدث ان جاع الشعب .. لتشبع حفنة رديئة تعد على أصابع القدمين من بطانة اسماعيل وحاشيته التى يحدثنا عبد الرحمن بك الرافعى فى كتابه ــ عصر اسماعيل ــ أنها كانت من الفرنسيين والايطاليين والانجليز الذين لفظتهم بلادهم فوجدوا فى بلاط الخديو مرتعا وملاذا !..

وحدث ان أرهق الشعب بالضرائب ارهاقا منقطع النظير ، حتى جعل على الاغنام ضريبة ، وعلى الحمير ضريبة .. !

والآن : نعود ، فنسأل ــ ماذا كانت هيئاتنا النيابية ستصنع ، لو أنها تمثل جميع الشعب . وآلام الشعب .. ؟

كانت ستكره الحكومة يوم امتنع الانجليز عن تسليح جيشنا على ان تتجه فورا الى دول اخرى نوع تلك الدول التى لجأت اليها انجلترا وامريكا يوما ما .

***

---

(١) عصر اسماعيل – الجزء الثانى ، عبد الرحمن الرافعى بك

كان سيحـــدث عند مانزل «شاهنشـــاه ايران» عن جميع أطيانه للشعب أن تسبق الحوادث التى قـــد تستجيش احقاد الشعب ، فتطلب الى آلهة الاقطاع فى مصر أن يتشبهوا بالرجال .. ويردوا للأمة ارضها .

***

كان سيحدث عند ما أذاعت محطات العالم وكتبت صحفه « ان مكاسب كازينو ايفيان للقمار قد زادت عـــام ١٩٥٠ ٧٠٪ عن الاعوام السالفة بفضل الباشوات المصريين الاغنياء الذين يذهبون الى بحـــيرة ايفيان باحثين عن الاشياء المثيرة » .

ان يصرخ البرلمـــان فى وجه الحكومة ..

من هؤلاء الباشوات .. ؟ وكم من ملايين الجنيهات اخذوا معهم ليشتروا بها لهوا عابثا ..؟

افنعجز هنـــا عن ان نحاسب (باشوات) .. وهناك فى بريطانيا يقف بعض أعضاء مجلس العموم يحذرون الحكومة من ان تتحمل نفقات رحلة ملكى انجلترا الى جنوب افريقيـــا .. ولم يسكتوا حتى وافاهم وعد من الملك بأن نفقات الرحلة ستكون من جيبه الخاص ..؟!

نعم ـ ماذا كان يحدث ايضا لو ان برلمـــانات الشعب هى الشعب ..؟

كان سيحدث ، عنـــدما تقدمت الحكومة طالبـــة اقرار مشروع قانون يفصـــــل بين الشعب والقصر ..

قانون يجعـــل القصر الملكى «منطقة حرام» ويحرم على الامة ان تتحدث عن مليكها بغير تصريح من وزير ـ أن ينتفض ويقول :

كيف يتحكم الوزير وهو موظف .. فى شئـــون القصر واخباره فيجعل بعضها حلالا ـ وبعضها الآخر حراما ..؟ كان سيحدث أن يصرخ برلمان الشعب ..

نحن مصر .. ومصر ترفض ان تحاصر اخبار مليكها ، مصر ترفض اى سور يقام بينها وبين عرشها .. مصر ترفض ان تتلقط أخبار الملك من أفواه الاذاعات الاجنبية المغرضة ، والصحف المحرفة..

ان الله ذاته لم يجعل الحديث عنه حراما .. و ان اخبار الملك وتصرفاته السامية ليس فيهما ما يخجل او يريب .. حتى نضعهما تحت رقابة وزير .. !وعندئذ كان هذا القانون سيلقى نفس المصير الذى لقيه قانون الاشتباه..

***

وكان سيحدث أن يطلب الى الحكومة الوقوف الحاسم الصارم فى وجه المهربين الذين سربوا اموال الأمة الى سويسرا حتى انخفض سعر الجنيه المصرى بالسوق الحرة بنسبة ٢٥٪ فى الصيف الماضى ..

***

كان سيحدث يوم اعتدى الانجليز على شرف الأمة اعتداء مسلحا، وزجوا بالكثير من أبنائها فى المعتقلات ان يقوم البرلمان نفسه بالثورة ، ويكره الحكومة عليها ولكن انى يكون ذلك وو راء كل هيئة نيابية من هيئاتنا جميعا دنيا عريضة من المصالح تذود عنها ، وتعمل من أجل بقائها وانمائها .؟

كان سيحدث طوال هذه الاعوام التى قضيناها فى مفاوضات عابثة ، والتى وعدنا الاستعمار البريطانى خلالها بالجلاء مائة مرة ــ ثم كذب علينا مائة مرة ان يجتمع اعضاء « البرلمان » ــ اى برلمان ــ ويعلنوا بطلان معاهدة (٣٦) ويقرروا ان جيوش بريطانيا الرابضة فى القنال ــ جيوش معتدية يجب طردها ــ ويقرروا ايضا انه لا قيمة للحياة النيابية تحت خفق الاعلام البريطانية .. واذن فيغلق البرلمان ، ويخرج أعضاؤه الى الشوارع والقرى ليقودوا الشعب كله الى معركة الحرية والاستقلال

٤ ـ الغرائز الناقمة

والآن ـ الى القيد الرابع ـ وهو الغرائز الحاقدة المتربصة ـ والحقيقة ان غرائزنا مجنى عليها .. وجانية . .

لقد جنينا عليها بالكظم ، والقهر ، والاضطهاد .. فانقلبت الى قوات شريرة شرسة حين تفزع .. والى مخدر مثبط منيم حين تهجع .!

وقبل الاستطراد فى الحديث عنها نسال : ما الغريزة .؟ يعرفها علماء النفس بأنها سلوك فطرى خاص ، يقوم به صاحبه فى ظروف خاصة ..

اوهى .. ميل فطرى يحمل صاحبه على عمل أو اعمال خاصة عند ظهور مؤثر خاص ..

ويضربون لنا مثلا ـ الغضب ـ انه استعداد جسمى عقلى موروث يحمل صاحبه على الانتفاض حين يتحرش به عدو معتد ، أو طاغية اثيم ..

ويعرفها علماء التربية والاجتماع بأنها الارادة الكامنة وراء كل عمل يأتيه الفرد أو الجماعة ..

نعم ـ الغرائز ارادة ، وبقدر ماتكبت غرائز شعب تكبت ارادته ، وتطمر حياته ..

ودراسة التاريخ الانسانى تزكى اعتقاد المعتقدين بأنها قوة قاهرة .. بالغة امرها .. لاتنال منها الهزيمة منالا ، وهى حين يختفى نشاطها فى سورة كبت او ضغط .. فليس هذا دليل انصراعها .. بل تكون آنئذ فى دور تهيؤ للانقضاض والانتقام

انها راسخة رسوخ النوع الانسانى ..

وفطرية تجرى من البشرية كلها مجرى الدم ..

ومريدة لا راد لمشيئتها ..

وضرورية لبقاء الفرد والنوع معا

ولسنا نملك تجاهها سوى بذل المحاولات لتعليتها، وتقويمها

انها قوى الالهام والابداع ، ولكننا فى مصر والشرق نسيء بها الظنون – شأننا دائما مع كل شيء نجهله أو نتهيبه .. ونمضى نطاردها ونخنقها – دون ما ندرى اننا نطارد الحياة ونخنق فينا ارادة الحياة ..!

وقد يحسبنا القارىء مسرفين حين نقول : ان تحرير انفسنا ، وتحرير أوطاننا ، وتحرير عقولنا – كل هذا منوط بادىء الامر بتحرير غرائزنا . بيد انه لن يلبث خلال مزاملته هذه السطور ان يفيء الى هذا الرأى، ويسرف مع المسرفين ..!

والآن .. لكى نستبين قيمة الغريزة ، واثرها فى الحضارة الانسانية نضرب مثلا غريزة الخوف ..

فلقد انشأنا المدارس – خوفا من الجهل ..

ووضعنا الدساتير – خوفا من الاستبداد ..

واقمنا الحكومات – خوفا من الفوضى ..

وانشأنا المستشفيات، ونبغنا فى علوم الطب – خوفا من المرض

وأقمنا المصانع والمخترعات – خوفا من العوز ..

وتحلينا بالفضائل ، وجانبنا الرذائل – خوفا من الله ..

وخطونا نحو الاشتراكية – خوفا من الشيوعية ..؟!

وهكذا أفضت بنا غريزة واحدة – هى غريزة الخوف الى هرم

باذخ من الثروة المادية والادبية – ولكن شعبنا العانى، تعانى غرائزه محنة لا تطاق – هى نفس المحنة التى يعانيها الشعب من كبت وحرمان – وكثيرا ما يتبادر الى بعض الاذهان ان اطلاق الغرائز معناه العربدة والفجور .

وهذا اثر وهم موروث .. وجهالة مزمنة، فاطلاق الغرائز

يعنى اطلاق القوى الهائلة التى أودعت فينا لتعمل وتثمر ..

وهذا الكتاب يضيق حجمه، وتضيق اغراضه عن حديث مسهب مستفيض فى الغرائز.. وهو يحصر حديثه عنها فى بعضها الذى تتمثل فى كبته مشكلة بلادنا

ونعنى بهذا البعض :

غزيرة الغضب ..

غريزة النفور ..

غريزة الاقتناء ..

غريزة «انا».. وتشمل حب الثناء وحب الظهور

نزعة «المشاركة الوجدانية»

فهذه الغرائز، واخواتها عامل أساسى فى طبيعتنا ، وهى تسمو، او تنحط تبعا للغاية التى تجند لها، والوجه الذى تستخدم فيه

ولكن انحطاطها يكون مؤكدا ومضمونا اذا وكل الى القهرامر تهذيبها ..

فاذا حرم على الشعب أن يغضب ، وحرم عليه ان ينفر مما يكره ، وحرم عليه ان يذكر نفسه ويعتد بها ، وحرم عليه ان يمتلك ويقتنى .. فلماذا يعيش ..؟ ولنبدأ بـ :

١ ــ غريزة الغضب :

ان وظيفتها المحافظة على النفس

ومثيرها ــ وجود العدو ..

والعدو المثير لها فى الجماعات هو ــ الاستعمار، والاستبداد ، والقوانين المتعسفة، والاستعباد الاقتصادى .. اذا وجد شيء من هذه ، أو جميعها فى شعب فذروه يغضب .. ان غضبه هذا صمام الأمان ــ ومحاولة زجره عن الغضب ، كمحاولة

اطفاء النار بقاذفات اللهب ..! ولسنا بذلك ندعو الى شغب او فتنة ـ بل الى سكينة وسلام .. وانما دعاة الفتنة والثورة بحق هم اولئك الذين يتحدون طبائع الاشياء ، ويحاربونها بقانون ..! وما احوج هؤلاء الفلاظ الى درس فى التاريخ ، ليعلموا انه كان وراء كل ثورة كاسحة ، وانقلاب مدمر ، واعصار وبيل ـ ركام هائل كثيف من القوانين حسبوها زاجرة قاهرة فاذا هى وقود الثورة وخصب الانقلاب ..!

لقد ساهمت احزابنا جميعا، وحكوماتنا جميعا فى قمع هذه الغريزة لدى الشعب فماذا حدث .؟

حدث ان ترنحت بادىء الامر تحت الضربات المتساقطة فوقها كالرجوم ، فعجزت عن توجيه طاقتها ضد المستعمر الدخيل .. ثم استيقظت ـ فاذا طاقتها جميعها قد استحالت الى حقد اسود على الذين اضطهدوها .. وهم للأسف مواطنون من ساسة وحكام ..!

ولو تواصت حكوماتنا بغريزة الغضب خيرا لحدث النقيض .. كانت طاقتها ستتجه صخرية كاسحة الى المستعمر ، فتلفظه من بلادنا ـ ثم اذا لم تجد منارهقا ولا اعناتا تتسرب فى مجال نافع ، وتعبر عن نفسها بمقاتلة العجز ، ومباراة الطبيعة لاستثمار ارضنا وسمائنا وهوائنا ..

وانه لمن دواعى الاسف والفجيعة ـ ان يقدر الانجليز هذه الغريزة قدرها ، ويتوسلوا بحسن التفاعل معها الى بقاء استعمارهم وتنحية احقادنا عنه

فحين استجاش حفائظنا حادث دنشواى تركونا نغلى كغلى الحميم ـ حتى اذا أوشك البخار الحبيس على التفجير والانقذاف ـ رفعوا الغطاء ، فتسرب البخار والهواء

وكان ذلك الغطاء ـ كرومر .. فنقلوه من مصر !

ولما وضعت الحرب الاخيرة أوزارها ، وأخذ غيظنا الكظيم

من حادث ـ ٤ فبراير ـ يتراكم ويتجمع ويتحفز ، وارتج الاناء بالبخار المهتاج ـ خطوا نحوه خطوة .. ورفعوا الغطاء

وكان هذه المرة.. كلين .!

ولكن حكامنا ـ كبارا وصغارا ـ لا يؤمنون بعلم النفس ، ولا يريدون ان يعرفوا اللحظة التي يجب ان يرفع فيها الغطاء .! لقد كبلت هذه الغريزة وكبلنا معها ـ بمجموعة من القوانين ، وبالارهاب الموصول ـ فما المخرج من هذه القيود .؟

عندما نتحدث في الفصل القادم عن الحرية سنبسط الطريق لتحرير هذه الغرائز العاملة المنشئة ـ اما هنا فنحن فقط نعدد مظاهر اضطهادها ، وما يترتب على ذلك من مخاطر وآثار ..

ان حكوماتنا من طراز عجيب

فهي تبطش بنا مع الباطشين، وتقول : حذار أن تغضبوا ..

وهي تدعنا نهب السارقين والناهبين ، وتقول : حذار أن تغضبوا ..

وهي تسلبنا حرياتنا وتقول: ويل لكم ان تغضبوا ..!

هي تسلبنا الحلم.. وتحرم علينا الغضب ..! حتى أصبحنا تعصف بنا الحوادث ، وتذرونا ريح العذاب ، وتصفعنا قوى الشر بأيديها ، وتركلنا بأقدامها.. فنرفع ابصارنا الخاشعة الذليلة تجاه السماء.. فتبصق السماء عليها .. ثم تردها الى الارض دامعة خجلى ..

او لايذكر الزعماء والحاكمون يوم كانت تصيبهم بما صنعوا قارعة.. فيستصرخوا بالشعب.. ويخرجوا له كل يوم نداء وبيانا ، فلا ينظر ، ولايسمع ، ولايجيب، ولايغني عنهم شيئا.؟!

انهم الملومون .. فهم الذين اخرسوا فيه صيحة الغريزة

بقوانين القهر التى ساهموا جميعاق خلقها .. واحالوا طاقتها الى حقد عليهم ، وعلى كل المعانى التى يمثلونها ، والقوى التى يساندونها ..

لقد نصبت حكومة عراقية مشانق الاعدام لشباب باسل حر غضب من اجل بلاده على الانجليز المستعمرين ـ والانجليز المستعربين ! .. ودقت حكومة اليمن اعناق مواطنين غضبوا من ضلال الاستبداد ، وضراوة الفجور ، ووحشية الضمير .. واقامت حكومة لبنانية من نفسها خصما وحكما .. واهدرت حيوات شباب غضب من الرجعية السياسية التى تريد ان تلف الشعوب فى مثل الضباب .. !

ومثل ذلك فى سوريا .. وامثال ذلك فى الحجاز .. ثم يراد من تلك الشعوب المقهورة الغرائز وقد هاض قلبها جبروت سادتها ، ورهبوت قادتها ان تغاضب المستعمر وتجالده .. ؟!

ان كل سياسى يكبل غريزة الغضب فى امته بالارهاب والقوانين لخائن اعظم ، وافاك اثيم ..

والحديث عن الغضب كغريزة واجبة الاحترام والرعاية ، حديث يلتبس فيه الحق بالباطل عند فئام من الناس .. وقد يبارك هذا الفريق كبت الغضب وقهره ومقته . وقد يتفضلون فينعتوننا بالالحاد لاننا ندفع عن الغضب كغريزة .. بينما الدين يستهجنه كاثم وجريمة ..

وعفا الله عنهم ـ سلفا ـ وانهم لمخطئون !!

فالدين ينهى عن الغضب ، كما ينهى عن الضحك .. بمعنى ان الاسراف فى كليهما خطأ وفراغ . ثم هو ينهى عن الغضب الفردى الذى يثيره التحرش بحق شخصى تمكن حمايته بالتودد والرفق .. ثم هو ايضا يعنى باستهجان الغضب ـ التمادى والتطرف ، وازجاءه على وجه فيه طيش ونزق وعدوان ..

ولكنه لا ينهى عن الغضب حين يكون استجابة طبيعية هادفة

لصيانة حرمات الشعب وحقوق الجماعات

فهذه عائشة زوج الرسول تقول :

« ما غضب رسول الله لنفسه قط .. فاذا انتهكت لله حرمة ، فلا احد اشد منه غضبا ! .. »

ان حرمات الشعب كحرمات الله - فحين تنتهك ، وتتسورها الذئاب يصبح الغضب بوسائله المشروعة طبيعة وواجبا ..

ولقد غضب الله ذاته فى موقف مشابه ..

فحين جابه ابو لهب رسول الله بقوله : تبت يداك .. الهذا جمعتنا ..؟ تقاذف الوحى فى سرعة البرق ، ورجم الصواعق .

« تبت يدا ابى لهب وتب .. ما اغنى عنه ماله وماكسب .. سيصلى نارا ذات لهب .. »

فاذا قام فى الشعب من المستكرهين الجبارين من يتبه ، ويعنته كان جزاؤه تتبيتا واعناتا

غريزة النفور .. !

ومن الغرائز التى حرم الشعب من نشاطها المنشىء ، وانكفأت من طول اضطهادها تعمل ضده ، لا معه - غريزة النفور ..

وانا لنسأل :

هل يمكن ان يساق الانسان الى طعام كريه .؟

هل يمكن ان يقبل مختارا على شراب مرير يتجرعه ولا يسيغه .؟

انا ندعو الحاكمين ان يجربوا ذلك ، ولو مرة ..

خذوا لقمة عفنة .. او حشرة دسمة .. وضعوها فى افواهكم وامضغوها ، وتلمظوا بها ، واستحلبوها .. ثم انظروا ما سيحدث ..

سيحدث طبعا تقزز ونفور وغثيان ..

واذا دلف اللعاب الى الجوف بشىء من هذه الطعمة الكريهة فسترفضها الامعاء فى عنف فيحدث تجشؤ وقىء

ان هذا الطعام المقذوف ـ يصور لنا قوة الغريزة بوجه عام ـ وغريزة النفور بوجه خاص . .

ويدل فى معناه العميق ـ على ان النفس البشرية ترفض بمثل الطريقة التى ترفض بها المعدة . . كل نظام يرهق كاهلها ، وكل ارادة تكبل حريتها، وكل مستوى معيشى يزرى بآدميتها . .

وان ضمير الشعب ينفر من كل جور ، وغدر ، ونهب ، وتفاهة . .

ولكن شعبنا الاسيف محرم عليه ان ينفر ، ومحرم على غريزة النفور ان تؤدى وظيفتها

مطلوب من الجماهير ان تبسط يدها الى اللقمة العفنة ، او الحشرة الدسمة . . ثم تدسها فى فمها ، وتستحلبها كما تفعل باى شىء حلو لذيذ . . !

اى فارق بين هذا ، وبين اكراهها على الاقبال على نظم لا تريدها ، واوضاع لا ترضاها، واشباح غريبة لا تعرفها ولا تالفها . . ؟

اى فارق بينه ، وبين تجريعها المظالم المريرة المتمثلة فى حكم الفرد ، والاقطاع الفاحش ، والرجعية الراكضة . .

والام نعزو هذا التعفن والبلى والجمود فى حياتنا السياسية ، والاجتماعية ، والاقتصادية . . ؟

ولكن قبل ذلك . . هل فى حيواتنا هذه تعفن ، وبلى ، وجمود . . ؟

نعم . . واكثر من نعم . . !

نعم . . رغم تلك القصور الشاهقة ، والبنايات السامقة ،

رغم تلك العربات الفاخرة ،والحفلات الساهرة .. فما هذه وحدها مظاهر البعث والتجديد !

ان بعث الامة ونشورها يتمثلان قبل كل شيء فى تجديد حياتها السياسية ، ونظمها الاقتصادية ،ومسايرتها ركب الحضارة وموكب الايام . .

ولقد راينا فى بداءة هذا الفصل كيف كانت سياستنا ، واقتصادياتنا ومجتمعنا . . وهى صورة حياتنا الماثلة ، مخلوطة ببعض الالوان الزاهية الملتمعة . .

ما ذا طرا علينا من تغيير وتطوير . . ؟

كنا بالامس « عبيد الباب العالى » . .

ونحن اليوم ـ عبيد الحزب الحاكم . . ! اى حزب . .

كنا بالامس نعيش فى بلادنا « ملتزمين » وكان السلطان هو «المالك الحر لجميع ارض مصر» .

ونحن اليوم نعيش ايضا « ملتزمين » وعشرات الاسر والبيوتات هى « المالك الحر لجمع ارض مصر » . . !

كنا بالامس لا نملك نقد الوالى ولا معارضته ولا تقويمه . .

ونحن اليوم لا نملك نقد الحاكم ولا تقويمه .

كنا بالامس ضحايا النهب ،والرشوة ، والاستغلال . .

ونحن اليوم كذلك أيضا

كنا بالامس نجلد بالسياط ،وليس فينا برلمان . .

ونحن اليوم نجلد بالسياط ،وفينا برلمان . . !

كنا بالامس مسلوبى الحرية ،والارادة . . وليس لنا دستور ،

ونحن اليوم مسلوبو الحرية ،والارادة ، والكرامة .. ومعنا دستور . . !

كنا بالامس امة مستعمرة باكراه ..

ونحن اليوم امة مستعمرة بمعاهدة .. !

كنا بالامس أمة تتربص بأعدائها

ونحن اليوم أمة تتربص بنفسها .. !

كنا بالامس شعبا تلهبه السياط فيتقاذف الى امام ..

ونحن اليوم شعب تلهبه السياط ، فيتراكض الى وراء .!

كنا بالامس نقبل اقدام سادتنا ونعتذر لانفسنا . بانهم وضعوا فيها قلوبهم ..

ونحن اليوم نقبل اقدامهم .. ونعتذر بانهم وضعوا فيها قلوبنا !

كنا بالامس امة معزولة عن العالم . لا تعتمد الا على نفسها.

ونحن اليوم امة فى « هيئة الامم » تعتمد على غيرها .. بل على اعدائها .. !

هذه حقائق امرنا .. فى امسنا ويومنا . . اما ماوراء ذلك من زينة وزخرف . فليس اكثر من طلاء اردناه ليستر مقابح الماضى الذى نعيش اليوم فيه ، فازداد نصاعة وبيانا .. !

ونعود نسأل :

الى اى شىء نعزو هذا البلى والانحطاط والجمود .. ؟!

انه فى نظرنا ثمرة تعطيل غريزة النفور فى المجتمع ، وتحويل طاقتها الهادفة الى نكوص واضطراب ..

فدور هذه الغريزة فى التطور الانسانى من اهم الادوار واخطرها .. وبها يتاتى التجديد المستمر .. والانشاء والابداع ..

فنفور الانسانية من الدابة . حفزها الى اختراع العربة ، فالقطار ، فالطائرة ..

ونفورها من حياة البادية والكوخ .. دفعها الى انشاء المدينة وتشييد القصور ..

ونفورها من الظلم افضى بها الى العدل ..

ونفورها من الاتوقراطية . . دفعها الى الديموقراطية . .

ونفورها من الاستعمار . . قذفها نحو الحرية . .

ونفورها من الاستغلال . . ادى الى الاشتراكية . .

ونفورها من الانقراض . . حتم عليها المسايرة ..

ونفورها من الحرب . . دفعها لنشدان السلام . .

فلو اننا اطلقنا سراح هذه الفريزة ، وتركناها تؤدى الدور الذى وجدت لادائه ، وعاوناها فى نضالها . لكنا اليوم امة اخرى .

ان الحكم المطلق يعتمد فى عمله لبقائه على اضعاف هذه الفريزة ليموت فى الشعب كل احساس بالمساوىء وتتبدد كل محاولة للنفور او التغيير

فالشعب الذى تحول فيه طاقة هذه الفريزة عن وجهتها ـ يصير مأساة مفردة ، وكارثة متفوقة ..

لانه يقع به الظلم .. فلا ينفر منه الى العدل .. !

وتعضه الفاقة .. فلا يفر منها الى الرغد . . !

وتهوى على ظهره السياط . . فيزداد انحناء لتلقيها ..

وتسلب اللقمة المعجونة بدمعه من فمه .. فلا يقلب كفيه على ما انفق فيها ..

وهذا غاية سعى المستغلين والمستبدين . . انهم لا يريدون شيئا آخر سواه ..

فاذا كنا اليوم نريد لبلادنا تجددا وانبعاثا .. فلننفض عن غريزة النفور وعن اخواتها ـ قيودها الظالمة ، واغلالها الآثمة .

٤ - غريزة انا ..

منذ ثلاث عشرة سنة تقريبا، كنت استمع مع جمع غفير، الى محاضرة متوهجة، كان يلقيها الاستاذ محمد توفيق دياب .. وكان من عباراتها .. كلمات لا تنسى ..

« .. انظروا فيما حولكم من الامم، تروا مواكب العز والسيادة .. وتسمعوا الانجليزى يقول: انا انجلترا .. والفرنسى يقول: انا فرنسا، والالمانى يقول: انا المانيا .. فمتى نستمع المصرى يقول: انا مصر .. ؟ »

سمعت هذه الكلمات فى ناشئة العمر وحداثة السن ..

وظل العقل الباطن امينا عليها حفيظا لها .. حتى وجدتها تبرق الآن فى خاطرى على غير موعد او انتظار ..

ونحيت الورق جانبا، وشرعت اتصور مرة اخرى ذلك المشهد فى قاعة « الليسيه فرانسيه » . وعلى مسرح القاعة، وقف الرجل كانه كرة ملتهبة تتقاذف ذات اليمين وذات الشمال .. والى تجاهه جلس حشد من المستمعين تمسه الكلمات مس الكهرباء فيجلجل ويصيح .. !

ثم عدت الى الساعة التى انا فيها .. وساءلت نفسى :

ترى هل استطاع المصرى بعد هذه الاعوام ان يقول : انا مصر ؟

ام هى لاتزال امنية من الامانى والاحلام .. ؟

ان غريزة حب الذات وتوكيدها احدى الغرائز التى وقعت فى اسر الظلمات - وحيل بين الشعب وبينها .. كما حيل بينها، وبين طاقتها ووجهتها ..

انها سليقة من انبل وانفع سلائق الانسانية .. والذين تآمروا عليها فى بلادنا ليسوا فقط الاستعمار والاستبداد .. بل ومعهما - او ربما قبلهما رجال الدين الذين لا يفقهون الدين ..

ورجال التربية الذين لا يحسنون التربية . .

فقدمضى هؤلاء واولئك يلقنون الناس أن احتقار النفس وبغضها ونسيانها .. هو الهدى والفلاح !

وقالوا لهم ، فيما قالوه ، ان الله لم يطرد ابليس من الجنة الا من اجل كلمة واحدة قالها هي : انا . . !

وهناك اطنان من الكتب تدور جميعها حول هذه الافكار الرديئة المدبرة .. وينسى اولئك المربون والمعلمون ان الرسول قال : انا .. انا سيد ولد آدم ولا فخر ، قالهادون ان تنقص من تواضعه شيئا

اننا شعب مستضعف . . لان فيه ضعفا . .

ومستعبد . . لانه يحس العبودية ويركن اليها .. !

وسر ذلك اطفاء احساسه بنفسه ، وتحطيم اعتداده بذاته ، وقمع «غريزة» الانانية المستنيرة الرشيدة فيه . .

وهذا الموظف البسيط الذي يرتجف امام رئيسه .. يمثله فى نطاق أوسع .. الامة كلها عندماترتجف امام مذلها ومستعمرها !

وتمثله ايضا عندما تتهاوى تحت مواد القوانين الزاجرة الراعبة دون أن تملك ازاءها حولا

وتمثله حين تنماع شخصيتهاوتتلاشى فى كل فكرة تطرق بابها . . وكل دعوة تستثير حماسها .. وكل استعمار يزور ديارها دون ان يكون لها عاصم من ريث واناة . .

وتمثله كذلك حين تتهافت على أرضاء حاكميها ، وتهتف بحياة قاتليها . . !

لقد كان اعجب ما صادفني وانا اقرأ تاريخ امتي ان سلطانها ـ الحاكم بأمر الله ـ ادعى الالوهية ايام اصابه مس الغرور والجنون وامر باعداد « سجل تشريفات » ليستقبل اسماء المهنئين للحاكم ، والمؤمنين بالوهته البلهاء ..

ولم تغرب شمس اليوم الاول حتى كان دفتر التشريفات قد

غص ، وازدحمت صفحاته بتوقيعات وبصمات سبعة وعشرين الفا من الشعب المبرور .. !

ثم رجعت البصر الى عصرنا هذا الذى نعيشه ، فوجدت نفس المشهد يتكرر مع كل حكومة تؤلف وعهد يقوم .. بل وجدت مائة الف او يزيدون – ينتظمون الموظف والعامل والجامعى المثقف يستقبلون « كلين » بعاصفة من التصفيق تصم الآذان ، وهو يطل عليهم من شرفة مجلس وزرائنا . كأنه القمر ليلة البدر .. !

ثم وجدتهم يحملونه على الرؤوس والاعناق .. كل ذلك صبيحة الامسية الظلماء التى اقترف فيها – ببسالة نادرة – جريمته وحصاره . .

لو كان هذا الشعب تعلم من زمان . ان يقول : انا .. وجرت من روحه وعصبه وكيانه مجرى الدم . . لنهض فى اهابه كائن من الحرية والكرامة والكبرياء يترفع عن كل صغار .. ويستعصى على كل اغراء واذلال . .

غريزة الاقتناء ..

عند ما كان الاتراك القدماء يملكون مصر ، استدعى أحد ولاتهم فلاحا امتنع عن دفع المكوس المفروضة ، وسأله :

– لماذ لم تدفع المكوس أيها الفلاح ؟

فأجابه .. لقد دفعت كثيرا يا سيدى حتى لم يبق لدى ما أدفعه .. وان أرضى لم تغل هذا العام شيئا .. !

وغص الباشا التركى بياء المتكلم فى كلمة « أرضى » وانتفض من مقعده ، ولطم الفلاح المصرى على وجهه وقال :

.. وأيضا تقول أرضى .. انها ارض السلطان ، وأنتم عبيده ومواليه ..

لقد أجليت هذه الغريزة عن مكانها ، وحل بديلها ، غريزة الحرمان .. أو تقول دون أن يكون فى التعبير تجوز :

ان هذه الغريزة جوعت طوال الاستعمار التركى الذى قبعنا فى ظلماته ثلاثمائة عام .. ثم لا تزال تجوع ، وترغم. فاذا كان السلطان التركى الذى يملك جميع أرض مصر قد ذهب وطواه الموت ... فقد حل مكانه عصابة من الاقطاعيين تملك البلاد والعباد.

والجماعات حين تحرم من أن تمتلك أرضها ، وثمار كدها وكدحها .. أو أن تمتلكها الدولة لحسابها . يكون ذلك وأداً وقتلا لغريزة من أهم الغرائز اتصالا بوجودها وبقائها وسلامها ..

ان فى الفرد غريزة تسمى« غريزة الاقتناء والتملك »تظهر فى دور الطفولة - فترانا نجمع اللعب ونقتنيها ، ثم تصاحبنا فى أطوار حياتنا جميعا - وتختلف حالها الوجدانية لدى الناس ، فاذا كانت مهذبة سوية عبرت عن نفسها باقتناء وسائل الهوايات الخاصة كالصور ، وطوابع البريد التى تتيح لصاحبها حياة رغدة تقوم على التكافؤ لا على الانانية والشره والعدوان .. واذا كانت جشعة مفترسة تمظهرت فى اقتطاع الارض ، واقتناء التفاتيش وابتزاز الحقوق والاموال ..

وفى بلادنا هذه - يوجد سادة يعيرون الشيوعية بأنها ضد الطبائع الانسانية ، لانها تحرم الامتلاك وتهدم بذلك غريزة انسانية عاملة .. يقولون هذا ثم يتحدون هذه الغريزة ويضطهدونها ، ويحرمون الجماهير من الاقتناء والامتلاك .. ؟ !

أتراهم اذن شيوعيين .. ؟ !

قد يعارضوننا متسائلين :

ألسنا نتيح للناس أن يقتنوا ثيابا ، ويمتلكوا بيوتا ، وحيوانات .. ؟

ونجيبهم . نعم ، والشيوعية أيضا تتيح لهم ذلك ، وأكثر من ذلك .. !

ولكننا نريد حقنا فى هذه الارض التى سقتها وسوتها

سواعد آباء لنا كابدوا فيها الهول والشقاء ، وكان كل عزائهم انها ستصير لاحفادهم مثابة ورزقا ..

لقد سقنا فى كتابنا - الاول - الاحصاء الرسمى الناطق بان اكثر من ستة عشر مليونا فى هذا الشعب لا يملكون سوى عرقهم المسفوح ، وعذابهم المقيم .. !

ولقد كانت خطورة المسالة تتبدى هناك فى المخاطر التى يفضى اليها هذا التفاوت الفاحش بين من يملكون كل شىء - ومن يفقدون كل شىء .. !

بيد أنها هنا تتبدى أمام بصائرنا أشد تجهما وعبوسا وفظاعة ..

فهى كما نرى الآن تتصل بغرائزنا التى اقامها الله فينا ، وناط بها وجودنا وحياتنا .. •

انها كغريزة الجوع ليس لها علاج سوى الطعام .. وكغريزة الجنس ليس لها علاج سوى اللقاء .. انها كذلك .. ليس لها علاج سوى أن أمتلك كل حقوقى قبل الدولة التى سمحت لى بأن أوجد فيها ، وأسعى على أرضها وأشقى فى العمل من أجلها .. فاذا لم تجد غريزة الاقتناء حظها - فانها كأى غريزة أخرى - لن تموت ولن تفنى • بل ستغير اتجاهها ، وتنتقم لنفسها ، فبدلا من أن يتسرب نشاطها فى الاىناء والتعمير .. يتفجر فى التقويض والتدمير ... !

هـ - المشاركة الوجدانية

وهذه النزعة مساك الوحدة وقوام التكتل فى الأمم والجماعات .. واذا أدرنا أبصارنا فى شعبنا فوجدناه مزقا وأشتاتا .. والفيناه خابى الشعور خافت الصيحة ، فلأن حكوماتنا المتعاقبة ، والاستعمار المجهز من ورائها - قد افسدوا عليه اسمى نزعاته وانفعها ، تلك هى « المشاركة الوجدانية »

وحتمية ترعرع هذه النزعة ليست فقط من اجل تعاطف الشعب وتضامنه بعضه مع بعض .. بل قبل ذلك من اجل تضامنه مع الحكومة، وتضامن حكومته معه فى الالتزامات .. انها حين تستقيم تصير صمام الامان الذى يجنب المجتمع عدوان الدولة ، ويجنب الدولة انتقاض المجتمع .. ويؤلف بينهما ، ويؤاخى بين ما لكل منها من مشاعر وخطط واهداف .. ليتحركا معا صفا واحدا نحو الغايات التى اختاراها وآثرا العمل لها ..

ولا يمكن قط ان تقول امة : اننى بدات المسير الى المجد .. قبل ان يتم بين حكومتها وشعبها هذا التضام والترابط والمشاركة

ولان الاستعمار لا يريد لنا أن نسير ؛ فقد استغل هذه النزعة وتوسل باضعافها وارهاقها وتضليلها لبلوغ كل ما يريد لبلادنا من ذلة وانكسار وفرقة

لطالما مكن الرسول عليه السلام لهذه النزعة وعمل لانهاضها وترعرعتها حين كان يدعو الى التجمع ، ويحذر من التخاذل والعزلة ويقول ..

« انما ياكل الذئب من الغنم القاصية .. »

وحين جعل مثل الجماعة المتكاتفة كمثل الجسد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الاعضاء بالحمى والسهر .. وحين أخبر ان ابعد الناس عن قلبه ، وابغضهم اليه هم المفرقون بين الاحبة .. المشاءون بين الناس بالنميمة .. وحين ألزم نفسه يوم كان المسئول عن امته وجماعته ان يكون أول جائع اذا جاع الناس .. وآخر من ياكل .. اذا وجد الناس ..!

وحين رفض ايمان كل رجل يبيت شبعان ، وجاره بجواره طاو بطنه على جوع ..

***

ان المشاركة الوجدانية فى الأمة هى عصبها ، وغددها ، وسبب النماء والقوة فيها ..

يقول ماكدوجل :

« .. انها الحالة الانفعالية او الوجدانية التى تحدث عند الانسان عندما يجد انسانا آخر متأثرا ، فتجعله يشعر بنفس شعوره .. كما لو كان قد انتقل هذا الشعور اليه بطريق العدوى . »

ومعنى هذه العبارة فى دلالتها الواسعة .. انها التيار الذى ينتظم مشاعر الملايين ويتجه بها فى خط طول واحد الى حيث يؤدى غرضه على اكمل صورة واتمها . . واذا عجزنا عن الاستنجاد بما فى انسانيتنا من حوافز ، فلنتعلم من الحيوان .. انه قادر على ان يهدينا سواء السبيل ..!

يقول العالم الالمانى كهلر: (١)

« .. ان قرود المزرعة كلها كانت تندفع نحو اى شمبانزى صغير وتعانقه الواحد، تلو الآخر، بمجرد سماع صرخة واحدة تند عنه .. »

ويقول العالم الامريكى هولمز:

« .. ان جماعة النمل والنحل، وكثيرا من الحشرات يظهر عليها الغضب ، حين يغضب واحد منها لسبب ما .. فتأخذ فى التجمع من غير أن تدرك له سببا .. »

ويروى لنا بعض تجاربه الشخصية فيقول: انه استثار مرة قردا فصرخ، فاذا جماعة القرود تخف اليه وتتجه نحو «هولمز» لتثار وتنتقم ..

يقول هولمز : « .. حتى ان القردة الوديعة «ديانا» هجمت

---

(١) كتاب علم النفس - ج ١ - للاستاذ الابراشى وزميليه

علي بتوحش ، معانى كنت قبل ذلك بفترة قصيرة الاعبها، واقدم لها الهدايا .. » ! !

***

اى كارثة ماحقة اصابت امتنا فلم تعد تجد من الاباء والوطنية والمشاركة مثل ما عند القردة الصغيرة ديانا ..؟!

لقد استجابت «ديانا» لواجبها نحو جماعتها فذهبت تعض اليد التى كانت تطعمها وتناغيها .. لانها اعتدت على زميلة لها او زميل ..

وفى بلادنا قوم لا يطعمهم الاستعمار .. بل يستذلهم ويمتهنهم ومع ذلك لا يقفون مع الجماعة ضده .. بل العكس، ويتركون القردة «ديانا» تحقق وحدها المثل العليا ، وجلائل الأعمال ..!

***

ان الاستبداد والاستغلال هما «الجامبيا» التى تمتص من هذه النزعة النبيلة طاقتها ..

افلا ترون ..؟

هذا الاستعمار الذى يمنحنا كل يوم وعدا مكذوبا .. ويلطمنا كل يوم لطمة عاتية ..

والذى يتصرف فى بلادنا دون اعتراف حتى بمجرد وجودنا .. فيتفق مع امريكا على القواعد الحربية فى بلادنا ..!

والذى يجثم على كاهلنا ، ويثير الفتن بيننا لتظل له .. الكبرياء والنفوذ فى الارض ..

والا ترون ..؟

هذا الفساد السياسى الذى جعل مصر اشبه ماتكون بصحيفة تكتب العناوين الكبيرة بحروف عربية .. ثم تملأ صفحاتها بحروف تركية ..

اعنى ان سلطاتنـا التنفيذية ذات طابـع مصرى .. ولـكن سلوكها كله ، وانظمتها كلها ، وتقاليدها جميعها لا تزال بقية مما ترك الأتراك المستعمرون.. هذا الاستعمار، وهذا الفساد.!

اين الشعب منهما ..؟ انه يهمهم ، ويغمغم ثم لايزيد .. بل حتى همهمته تخرج متنافرة متخاذلة ليس بينها تناغم وتشارك انسجام .. !

لماذا ..؟ لأن نزعة المشاركة الوجدانية فيه لاتؤدى وظيفتها ولا تستثمر طاقتها طبقا لخطة موضوعة تواصى بها الاستعمار والاستبداد .. فصـار عاجزا عن ان يصنع صنيع الشمبانزى حين يضام منها قرد صغير..!

***

هذه هي المطارق التى تتهاوى فوق محاولاتنا ، وتنهـال على امكانياتنا :

ا ـ الاستعمار التركى الذى ذهب حكامه ، وبقيت احكامه

ب ـ الاستعمار الانجليزى بنفوذه السيـاسى ، واحتلاله العسكرى ..

ج ـ البرلمان البرجوازى الذى يمثل غفلة الشعب وطاعته لاوعيه ومشيئته ..

د ـ الغرائز الناقمـة التى اضناها طول الاضطهاد، فمضت تعمل ضد المجتمع لا معه ..

والخلاص من هـذه الاوزار لايتاتى بوسائل مناقضة للقانون .. بل الطريق اليه سوية ممهدة .. تعتمد على النظـام والحب والمثابرة .. وكلهـا خليقة من الحكومة والشعب بالتقـدير والاحترام .

وسنـدع الآن الاستعمار البريطـانى حتى نلتقى به فى الفصل الاخير من الكتاب ..

وسننشد فى فصل جديد ،هو الفصل القـادم .. اسباب النجاة من الماضى الذى يطاردنا، ومن البرجوازية النيابية المستغلة التى تعتاق نمونا، ومن الحصار المضروب حـول غرائزنا وقوى الحياة فينا

فالى هناك ..

الحرية .. هي الخلاص

« ان الله الذى وهبنا الحياة ...
وهبنا معها الحريه فى نفس اللحظة
ولنفس السبب

جيفرسون

قصة الحرية ..

كان من المقدور للانسانية أن تظل شيئا غير مذكور لو لم يستحوذ على قلبها هذه الحروف الوضاء للكلمة الساحرة الآسرة ـ الحرية ..

فلما وجدت بردها خاضت من أجلها معركة الدهر ـ ولا تزال تخوضها .. بيد أن لنشوء هذه المعركة قصة جديرة بالتدبر والامعان ..

انها لم تبدأ كما نحسب يوم الباستيل .. بل يوم بدأ الانسان القديم يحس ، ويسمع ، ويرى.

يوم بدا له ، وهو يتسلق الاشجار فرارا من السيول ، ويأرز الى الكهوف حذرا من الصواعق ، والوحوش . . ان الطبيعة تتحدى حريته : وتناوىء طموحه . ومضى يتلفت عن ايمانه وعن شمائله ؛ فلم يجد له نصيرا سواه . .

وانساب فى روعة رجع صوت بعيد مقبل من الازل :

لقد وهبناك الوجود ، ولن نمنحك بعده شيئا ؛ فناضل لتحيا . . اواستسلم فتموت . !

ولم يطل تلبثه وانتظاره ؛ واستبان له هدفه كفلق الصباح ومضى نحوه فى اصرار وعزم .

ترى أى هدف آثر واختار .؟

هو هذا ـ

- تأمين وجوده .
- واستثمار هذا الوجود .

أترانا بعد ملايين السنين نعرف ؛ أو ننشد سوى هذا الهدف المزدوج الجليل . ؟

ولكن ضد من ذهب الانسان القديم يؤمن وجوده . ؟

ليس ثمت سفاكون يحذرهم؛ ولا اقطاعيون يتهيبهم ..

نعم ، ولكنه الفى نفسه وجهـــا لوجه مع الوحوش المتقحمة تعيث فى الارض باحثة عن ذلك النزيل الجـــديد لتمـــلأ بأشلائه أمعاءها ..

ومن هنا بدأت قصــة البغى والمقاومة .

وهنالك أملت الوحوش الباغية على الانسانية الناشئة شروطهــا دون أن تترك لها حق الاختيار .

فأما أن تختفى فى الجحـور والمغارات فتسلم ؛ واما أن تسير على ظهـــر الارض ، وتمشى فى مناكبها فيفترســــها كل ظفر وناب ..

● تماما كما يصنع اليوم المستبدون مع رعاياهم .. فأما ان يتلفعوا بالصمت والتسليم؛ فيسلموا .. واما أن يحترموا آدميتهم ؛ وينشدوا لانفسهم حقوق الآدميين ، فتدوسهم القوة ، ويهصرهم النكال ..

***

ماذا صنع الانسان؛ والوحوش تجوس خلال كهوفه .. هـــل قبع فى ظلامها .. أم خاطر من أجل حريته .. ؟

لقد خرج بحوله المتواضع ؛ وقوته الناشــــئة .. وصـــاح بالوحوش الوقحة صيحة التحدى .. وكان ذلك الاقدام ثمـــرة ادراكه لقيمة الحرية .

لقد رآها ضرورية لبقـائه ، وآثر أن يموت فى الافق المتراحب موتة جريئة باسلة .. على أن ينفق فى جحوره نفوقا بطيئا ..

● تماما - كما يحدث اليوم فى الشعوب المقهـورة حين تدب فيها شجاعة اليأس ، فتغــامر بحياتها مغامرة تفضى بهـــا الى الحياة ..

وكانت خطة الجماعة الانسانية الناشئة ان تتقدمها طليعـــة

فدائية ـ ليس مهمتها أن تنتصر بل أن تموت ·· ولكن بعد أن تكون قد فتحت الطريق أمام الموكب الزاحف الواجف .. وقد كان ·وفى كل رحلة من رحلاتها المتساوقة كانت لها طليعة تلتحم مع الذئاب والوحوش التحاما مرا ، ثم يسقط أفرادها صرعى لتكون جثثهم جسرا تعبر عليه الجماعة الى هدف جديد ·

وذات يوم ، والطليعة راكضة دمدمت السماء برعدها ورجومها فازدادت الطليعة ركضا واقتحاما .. وتحدت الرعد والصواعق والرجوم ، وأبت أن تدع الارض التى وقفت عليها حتى تسلمها للزاحفين على أعقابها · ·

● تماما كما يصنع اليوم رواد الجماعات المستعبدة · · اذ يمضون أمامها ، ويرسمون لها الطريق بأفكارهم ،وأقلامهم فيصرعهم البغى ـ ولكن دماءهم المراقة تبقى وهجا يرسل على طول الطريق ضوءه وسناه ··

وذاق الانسان طعم الحرية؛ وأحسها احساسا مثيرا فجر فيه البصيرة والخيال

وكان من أعضاء الجماعة الانسانية الاولى من انطبعت فيهم سلائق الوحوش من طول ما عاشروها وكابدوها · فما أن استقرت الجماعة فى مدنها وقراها حتى كانت هذه الطبائع تتحفز للظهور والسموق بعد أن أنهت فترة الاختمار · · وكانت الوحوش قد غلبت على أمرها ،

ودالت دولتها ·· فانطلقت هذه القلة المحاكية الباغية تمثل فى جماعتها ـ دور البأس الوحشى المنقرض ، وتقمصت الحيوانية المفترسة أجسادهم كى تعمل عن طريقها ·· فشنوا على اخوانهم الغارات ·· واختطفوا الناس واتخذوهم رقيقا·· ثم احتوشوا الضياع ؛ وأقاموا الاقطاع ·· ثم شادوا الامبراطوريات ؛وجعلوا أنفسهم أباطرة وفراعين ··

***

هذا تصور ؛ أو تخيل لنشوء الصراع بين الاستبداد والحرية

وتطوره ؛ لم يكن لناعنه غنى .. ليعلم أولئك الذين يسومون الشعوب المقهورة اليوم سوء العذاب انهم ليسوا سوى امتداد معنوى لوحوش الغاب وهم غرباء عن الانسانية دخلاء عليها ووظيفتهم فى هذه الدنيا ـ تعويق التقدم الذى يعتمد على الحرية وانطلاق الكرامة الانسانية من وطأة المهانة .. وفض قيود التبعية والخضوع عن البشر ..

•

ولقد سارت المعركة مع وحوش آدم .. كما كانت تسير من قبل مع وحوش الغاب .

وكان كل ظفر تحققه الجماعة حافزا الى جهاد أشد وأعظم .. ولكأنما كتب عليها أن تودع الراحة الى الابد ، وألا تضع العصا عن عاتقها حتى تقضى لنفسها أمرا .. ترى ماذا كان حظ آبائنا الاقدمين فى هذا النضال .. ؟

لقد كان عجبا . أى عجب . ولكن ليس من طبيعتنا ، كما انه ليس من صالحنا أن نتباهى بعمل أهل القبور . وحسبنا فقط أن نذكر ، ان بعض مؤرخى التطور الانسانى يقررون ان أول حركة قامت فى الدنيا ضد الاستبداد السياسى ، والظلم الاجتماعى كانت فى مصر أيام الفراعين .. وعن مصر أخذ العالم القديم الدرس فحذقه ، وأبى أن ينساه ..

وكان لشعب مصر أيام حركته تلك .. صلاة يتلوها فى المعابد .

ـ أيتها الآلهة .

ان فرعون يذلنا .. ويضربنا

والارض التى يقول انكم وهبتموها له ترهقنا ..

ـ أيها الآلهة .

اعطونا راحة ..

واعطونا أرضا .. !

ان ظهــورنا قد انحنت ..

فأقيموها ٠ ٠!

ولكانما سرت هذه الترنيمـةفى وجــدان الانسانية بصورة لا تزال مستسرة خافية ولكنها متطورة نامية .

فلقد وجدنا بعض الشــعوب المنتفضــة تصلى ابان انتفاضها فتقول :

قفوا ـ ياعبيد الارض ٠ ٠

قفوا ـ ياعبيد الجوع٠٠

سيروا مع البركان ٠ ٠

البركان الذى سيأتى عــلى القديم ، ويمحو الماضى جميعه ٠

سيروا على الشوك٠ ٠

سيروا على الجليد ٠٠

وقوفا وقوفا أيها العبيد٠

ان عدو لنــا أراد الدمارا ولارض نعــزها اقفــارا

فسنلقاه بالجواب الاشــد القوى الصدى كقاصف رعد

كسنا البرق يخطف الابصارا

لكن التطور يستحدث وسائله ويجدد أدواته ٠٠ فبعد أن كان لايحقق اغراضه الا بالقوة والعنف صار من الممكن تحقيقها بالتحول والاقناع والاناة ٠٠وأصبح يعزف عن الدم ـ ويبحث عن الزهور٠ ويتقزز من الموت ويريد السلام

واذا كانت مصر اليوم وغير مصر من الامم المغلوبة ـ تريد الحرية وتسعى اليها ٠٠فاتيحوا لها أيها الحاكمون أن تســلك طريق الزهــور ، والحب ،

ولكى ينشأ تعاون وثيق بيننا جميعا : حاكمين ومحكومين ، نحقق عن طريقه اغراضنا المتمثلة فى الحرية والعدل ؛ فالخطوة الاولى أن نقتنع بفائدة الحرية وحتميتها

اتريدون أن تتصوروا قيمة الحرية .. ؟

تصوروا اذن قيمة الانسان . وليس يكفى أن نتصوره تصورا دينيا بمعنى انه خليفة الله فى الارض ؛ ومنفذ مشيئته فيها . بل علينا أن نتصوره مع ذلك تصورا آخر واقعيا يبرزه فى الدور الذى أداه ولايزال يؤديه فى عمارة الكون ؛ وخلق جميع صنوف الحضارة المتبدية فيه

هذا الانسان الذى تعلم وعلم ؛ وبنى وشاد ، واخترع وأبدع ، وفكر وتفلسف ، وانتقل بنفسه وبالدنيا معه . من بدائية فجة غريرة الى رقى عارم ومدنية شامخة ..

هذا الانسان ماكان ليصنع من كل ذلك شيئا ـ لولا الحرية . ويوم كان يجد حريته ـ كانت تجده الحياة . ناصبا فيها حانا لها .. فاذا فقد الحرية ؛ افتقدته الحياة ليخصب بوارها فلا تجده ولاتراه .

ولقد أتى على الفكر الانسانى حين من الدهر وضع فيه تحت وصاية غبية ؛ ورقابة عمياء ، فلم يكن ثمت أدب ولافن ولا اختراع ..

ومثل واحد من مئات المثلات يؤكد هذه الحقيقة ويزكيها .. فحين اخترع المجهر .. « ميكرسكوب » وقف خصوم الفكر والجرية من رجال الدين المسيحى وقالوا :

هذا كفر وهرطقة وسلطوا عدسته على جثمان برغوث .. فرأوه ضخم الجثة ـ ففزعوا ؛ ولعنوا الشيطان الرجيم . .ثم حرموا استعمال المجهر لانه يغير خلق الله ؛ ويضاعف أحجام الاشياء .. !

لو بقيت هذه الآفات تسيطر على الفكر ، وتضطهد حريته، أكان مانراه اليوم من حضارة غامرة سيكون ٠ ؟

ويوم وقف «ابن رشد» يعلن نظرياته، ويضع « الحقيقة الفلسفية ازاء الحقيقة الدينية » وقف خصوم الحرية والفكر من رجال الدين الاسلامى وأغروا به الخليفة وحكموا بخروجه على الدين ٠٠ ودعوا لمكافحته كما تكافح الجرائم والآثام ٠٠ !

فلو بقى هذا الضباب جاثما يسد الافق ؛ ويحول بين الناس والحرية أكان طريق المعرفة سيمتد امامها لاحبا ممهدا يغمره مواكب النهى والمشاعل ٠٠ ؟!

ماأروع الآية التى قالها جيفرسون :

« ان الله الذى وهبنا الحياة ـ وهبنا الحرية معها ـ

فى نفس اللحظة ؛ ولنفس السبب »

فى نفس اللحظة ـ لان الحرية روح الحياة ؛ ولايتأتى أن يكون لها بدونها وجود ٠

ولنفس السبب ـ لان غاية الحياة أن تنطلق محققة الغرض من وجودها ، ومنفذة مشيئة الازل الكامنة فيها ٠٠

والحرية كذلك ٠٠ بل هى الاداة المفردة لكل ذلك ـ ومامن تطور مشكور نافع أخذ بيد الاوضاع القديمة للناس فى السياسة والعلم والاجتماع الاكانت الحرية وحدها رائده وحاديه ٠ ٠

* *

الطمانينة ٠٠ام الحرية ؟

ولكن الحرية مطلب جليل ؛ وهى لاتمنح يدها كل لامس ـ والايدى الناعمة الرخوة حين تمتد اليها لتنالها ؛ ترتد مقبوضة على زراية وهوان ٠٠ ولايبلغها سوى الصناديد البواسل ،

القادرين على التوقل والتسور والطموح ٠

وقديما قال شاعر عربى ٠

لابد للعاشق من وقفة ما بين سلوان وبين غرام

فلنسال انفسنا قبل المسير

أتريد الحرية بحق ٠٠ ؟ انها لاتأتى وحدها ٠٠ بل تحف بها حشود من المخاوف والاخطار ٠

ان مهرها غال لمن يطلبها ٠٠ انه الكد والتعب ، والمثابرة وسماحة الافق وتمكن الاخلاص وهما أشق ما فيه ٠٠

وهناك فى الوجهة المقابلة للحرية ـ توجد الطمأنينة ٠٠

طمأنينة الجماد ؛ وسكينة القبور ٠ ٠

وبهذا النوع من الطمأنينة نستطيع أن نعيش هادئين ٠٠ لانتألم ؛ لاننا لانحس ٠٠

ولانشكو ، لاننا لانشعر ٠

ولا نقلق ، لاننا لا نطمح ..

ولانخاف ، لاننا لانخيف ٠٠

أفنختار الحرية ، ومعها أثقالها ٠ ٠

أم نختار الطمأنينة ؛ ومعها أغلالها ٠ ٠ ؟

لعل من الخير أن نستهدى بأولئك الذين اجتازوا نفس التجربة من قبلنا ٠٠

فلنصغ لرائد كريم هو « فرانكلين » يقول :

« ان الذى يفرط فى مبادىء الحرية وجوهرها ليشترى بها قدرا تافها من الطمأنينة الموقتة لايستحق الحرية ؛ ولا الطمأنينة » ٠ ٠ !

وهذا حق ٠٠ وهو ليس فقط غير مستحق للحرية والطمأنينة بل لن ينالهما أبدا ولن ينال احداهما ـ لان الطمأنينة المندملة

على ذلك الهوان لاتكون جديرة باحترامها ؛ ولا تفيؤها ..

واذا كان شعبنا اليوم قدفقد الحرية ؛ فلانه باعها بالطمأنينة .. ثم اكتشف آخر أمره انه خسر الاثنين معا ـ الحرية والطمأنينة .

* *

السنا احرارا .. ؟ .

ولكن كيف نزعم اننا فقدنا الحرية . ؟

هل هذا واقع ،اوهو ادعاء وتطير .. ؟

واذن فعن أى معنى تعبر هذه الحضارة ؛ وهذا الدستور ، وهذا البرلمان ، وهذه الصحافة .. ؟

أليست جميعا مظاهر صدق لما فى بلادنا من حرية وسيادة .؟

وقبل أن أجيب ـ نعم ؛أو لا ـ دعونى أقصص عليكم قصة :

يوم كان « وشنطن »يقود موجا كالجبال من جماهير المقاتلين فى حرب الاستقلال ؛ برز له جندى وصاح فى انفعالات صاخبة :

ـ فى سبيل ماذا تقاتل ـ ؟

فأجابه وشنطن:

ـ فى سبيل الحرية . .

وعاد الجندى يسأل :

ـ وما الحرية التى تستحق كل هذا العناء ؟ .

فأجابه :

ـ هى أن تقف هكذا ـ مرفوع الراس ؛ بارز الصدر ،وتصيح ملء فمك ـ أنا أمريكا . . ولمريكا بلادى ..

وعلى حين غفلة من القائد العظيم انتفض الجندى كالمارد ، وضرب

الارض بقدمه ، ورفع رأسه وصاح :

ـ أنا أمريكا ـ وأمريكا بلادى

ثم استدار الى « وشنطن » وقال له :

ـ ها أنذا قلتها ·· ففيم ، مرة أخرى ، هذا العناء وهذه الدماء ··· ؟!

وهناك صوب الجنوب ، كانت المدفعية الانجليزية الباغية تدك حصون المحاربين ، وتصليهم سعيرا ·· ودمدمت أصداء طلقاتها العاوية على سمع الجندى المشدوه فقال له وشنطن :

ـ أتسمع هذه الدمدمة ··؟

ان المدافع الانجليزية تناديك

كذبت . . كذبت . . كذبت

لست أمريكا ·· وليست أمريكا بلادك ·!

ويوم تقول كلمتك ، ثم لا تتحداك تلك المدافع ، ولا تكذبك هذه الطلقات ، فأنت يومئذ حر وهذه هى الحرية ··!

***

والآن ـ هل أنت مصر ـ ؟ وهل مصر بلادك ··؟ هل تمثل وطنك فيك كيانا حيا بكل ما فيه من خير ، وبر ، وفرص ، وامكانيات ··؟

وهل لك من الامر فيه شيء ·؟ أم أن الامر كله للناهب الظافر ، والمستعمر الدخيل ··؟ هل أنت مواطن ـ تمشى على أرضها سيدا عزيزا ···؟ أم أنت تابع يأخذ بخطامك استبداد مطلق واستغلال دنيء ··؟

هل تستطيع أن تقول : لا ·· اذا نيطت بها كرامتك ··؟ وأن تقول : نعم ·· اذا نيطت بها مروءتك ··؟ هل تقدر أن تقوم فى بلدك اعوجاجا ، أو تنهنه بغيا ، أو تمس القديم العفن

بتغيير وتحوير ..؟ اذا كنته فانت حر .. واذا لم تكنه ، فانت شيء آخر .. أنت رعوية تافهة ، وعبودية مسخرة .. !

***

ان بداية خلاصنا أن نعرف ،لا أن نخدع .. وأسباب المعرفة عندنا كثيرة ، وعناصرها محشودة ـ تفتح أعيننا على حقيقة صارخة تؤكد أننا رعايا فى « عزبة » .. لا مواطنون فى دولة . .

وحسبنا لذلك ـ مأساة الشيوخ ـ ..!

وهى مأساة لاتحمل وزرها الوزارة .. بل السياسة .. ولا الحكومة .. بل روح الحكم ..

فروح الحكم عندنا توجهها الرغبة فى السيطرة ، وفى الانتقام والعبث ...

روح الحكم ،ونعنى بها السلائق التى تجعل من السلطة التنفيذية سلطة ارهابية تعز وتذل ، وتولى وتعزل ، هذا الروح الماجن بماله من تقاليد وضراوة هو الذى لطم الكرامة القومية لطمة لم يكن منها بد ، ليعلم الذين لايعلمون .. أننا سوائم ، لامواطنون ..!

وهذه حقيقة يعرفها الناس ،ولم يك ينقصها لكى تبلغ أوج اليقين سوى أن يصدر بها مرسوم ، وتنشر فى الوقائع المصرية ..!

وقد لايعنينا أن يظل الشيوخ « المشلوحون » أعضاء أو أن يخرجوا ...

ولكن الشيء الذى أرجف على سكينتنا هو أن يجيء هذا الاجراء عقابا لهم ، وتنكيلا بهم من أجل استجواب تساءلوا فيه : عن أموال للشعب ،كيف انتهبت..؟ وأرواح بريئة كيف زهقت ، وبيعت حياتها اليانعة للشيطان!

وسنرى خلال سيرنا مع هذه السطور مايجعلنا نرتد عاجزين عن الاقتناع بأن لنا فى بلادنا حقوقا ترعى ، وحرمات تصان .

لكنه لا يأس .. فلا بد من صنعا – وان طال السفر . . وسنلاقى الحرية وتلاقينا .. فى مهرجان يضج بأجراس الفوز ، ويفعم بزهور الانتصار .

لكن علينا أنفسنا ... ان معركة التحرير تبدأ منها ، وفيها

***

تحرير انفسنا من انفسنا ..

قلنا : انه لا جزع على حريتنا فى مستقبلها ، فهى آتية لاريب فيها .. ولا خوف عليها من أعدائها .. بل الخوف عليها منا أنفسنا ..

ماذا يخاصم الحرية ، ويعترض سبيلها ..؟

انه الاستبداد ... وهذا الاستبداد نفسه أقرب الطرق الموصلة الى الحرية والاستقلال .!

فكر قليلا ... تجد الامر كذلك .. فنحن كلما استبد بنا الجوع ، الحجنا فى طلب الطعام .. وكلما نفحتنا سبرات البرد الحجنا فى طلب الدثار .. وهكذا كلما لفحنا هجير الظلم والاستبداد ، اندفعنا فى تزاحم الى ظلال الحرية ، وروضاتها المونقات .. ان الظلم من صنع المظلوم ، قبل أن يكون من صنع الظالم .. وعندما تشتد وطاته تبدأ نهايته .. لان الذين كانوا يسمحون له بالبقاء وتتقامأ أمامه محاولاتهم ، يضيقون به ذرعا وتواتيهم شجاعة اليأس ، فيخاطروا من أجل الحرية مخاطرة تحطم عنهم الاغلال ...

لقد وقف « أتاتورك » يوما خطيبا فقال :

ليس على وجه الارض شيء اسمه الظلم .. فهذا الذى وقع عليه ما نسميه « ظلما » اما ان يرفضه ، أو يتقبله ..

فان رفضه ، فقد منع وجوده .. وان قبله ، وخضع له ، صار لما وقع عليه مستحقا واهلا .. فلا يكون مظلوما ..!

وهذا كلام جليل صادق . واذا عجزنا عن تقبله ، وتصديقه فلن نعجز عن تصديق «فولتير» وهو يقول :

ـ ما رايت كالطغيان شيئا يسوق الناس الى الحرية سوقا عنيفا ـ !

لا بأس على حريتنا اذن من جلاديها .. ولكن الخوف عليها منا وحدنا ..

وقبل أن نطلب الى الآخرين احترام حريتنا ، يجب ان نبدأ نحن فنحترمها ..

هل يحترم المجتمع لنفسه حرية نفسه ..؟
ما اثقل عبء الاجابة علينا ونحن نقول : لا ..

فالحقيقة أننا نحن الشعب لم تبلغ بعد الدرجة التى نعامل الحرية فيها بأضعف الايمان ..

ولكن لن ندع الحاكمين يتوسلون بهذا الى منع الحرية عن الشعب ، فهو اذا كان لم يقدرها قدرها ، فلأجل أن حاكميه وقاهريه له يتيحوا له فرصة تذوقها ، ومعرفة قيمتها ولزومها ـ ويوم يذوق سيعرف ـ ويوم يعرف سيفديها بمثل ما افتداها به السابقون ..

وكتابنا هذا محاولة لايجاد تفاهم بين الحرية والشعب .. وبينها وبين الذين اسرفوا على الناس وعلى انفسهم بالبغى والاستبداد .

ولن ننسى ونحن نتحدث عن الحرية ان نقول : انها اذا لم تكن كبتا وقهرا .. فهى أيضا ليست استهتارا وفوضى ..

ولعل خير ما يصور جغرافيتها هذه القصة الفرنسية :

كان أحد الرجلين يجلس على اريكة باحدى الحدائق العامة ، وعن يمينه جلس الآخر ، وليس بينهما معرفة ولا الاف ..

وتثاءب الجار وبسط ذراعيه وهو يتمطى ، فصكت اطراف انامله ذؤابة انف جاره . فغضب ونبه المتمطى للياقة المطلوبة .. فأجابه الآخر : انا حر .. !

فقال له صاحبه : نعم انت حر .. ولكن حرية يدك تنتهى حيث تبدأ حرية انفى ..!

وذهبت مثلا بليغا .. فحواه ان حريتك تنتهى حيث تبدأ حريتى . وحريتى تنتهى حيث تبدأ حرية الآخرين ــ والآن ــ لنذكر هذا جيدا ..

ان المواءمة فى تمرس الحرية بين افراد المجتمع بعضهم مع بعض ، وبين المجتمع والدولة هى خير ما يحقق لنا منافعها جميعا .

فواجب الجماهير اذن حيال الحرية هو :

ــ ان تؤمن بقيمتها وضرورتها

ــ وان توائم بين الحقوق المشتركة فيها ..

والطريق الى الاول ــ أن تفهم انه لا خطر من الحرية على الدين ، ولا على الفضيلة ، ولا على مصالحها .. وان الخطر على هذه جميعا انما يهب من ريح الكبت ، وضيق الافق ، ونضوب التسامح ..

والطريق الى الثانى ــ أن يمارس كل فرد حريته فعلا ، وفورا ، ودائما ــ وسوف نخطىء ويبغى بعضنا على بعض ولكننا اخيرا سنتعلم من الخطأ ، ونفيد من التجربة وتصحو فينا فطرة الحرية فتمضى سوية مستقيمة لا تضل ، ولا تتجانف لعدوان ..

وواجب الحكومة تجاه الحرية ان تكون فى خدمتها ، وان تصوغ قوانينها ، وتمارس سلطتها على وجه ينمى الحرية لا يضائلها .

والآن ــ لنمض معا ــ مستعرضين الحرية فى ازيائها

المتعـددة ـ مبتدئين بمـا بدأالله به ..

لقد تكلمنا فى الفصل الاول عن « الغرائز » .. هـذه التى خلقها الله لتكون طاقة دافعة ،فاستحالت بفضل الظلم والجهل الى اغلال معقـدة ، وعـوائق مانعة .. والغرائز هى القـوى التى نظم الله حولهـا الحيـاةالانسانية بكافة ضروب نشاطها، بل ناط بها وجهـة الانسـانيةنفسها ..

واطلاق سراح الحُريـة رهن باطلاق سراحها فمشكلتنا تتمثل فيها ، وخلاصنا يبدأ منها

وسـنجد الآن أن وراء كـل غريزة مضطهدة حرية مضطهدة كذلك ، والربط بين الحـريةوالغريزة ليس من صنعنا ـ بل من صنع الله ـ وهو قمـين ان يوفر علينا كل محاولة سفيهة لقمع الحريات .. لانها على هذاالنحو ليست شيئا هينا يقضى عليه البطش .. بل هى وثيقةالصلات باعرق واعمـق ما فى الانسانية من قـوة واصرار .وهى الغريزة ..

واذن ـ دعوها فانها مامورة .!

حين نواجه حقيقتنا المنعكسةعلى مرآة الحوادث الماثلة ـ نجد شعبا مخفقا .. يدور حول وهم وعجز ـ حتى اذا ادركه التعب خر على الارض ليطويه سـبات عميق .. واعجب ما فى امتنا وجماهيرنا انها على بينـة ممـاتريد ان تفعل .. ومع هذا فقد عميت عليها السبل ، ومضـت تضرب فى كفاحها ودنيـاها على غير هدى ..!!

ترى ـ ماذا يضللها ، ويخلدبهـا الى الارض ، والحـيرة والاستسلام . .

أهو فقط ظلم الظالمين ..؟

اذن ، فما بالها لا تتحرك حين تمر بهـا فرص يرخى فيهـا

المستعبدون الزمام ..؟ وتكتفي بأن تتململ تململا غامضا ، لا ينطلق بها الى هدف واضح ..وتخرج أنفاسها الكظيمة المضغوطة فيسمع لها خوار .. ثم فجأة تهجع ، وتأرز الى الوتد صابرة، وربما شاكرة ..؟

ان آفة الشعب فى دخيلته ـ فى نفسه الباطنة .. وكل جهد يبذل للاصلاح بعيدا عن نفسه، فهو جهد باطل مضيع .. ان فى أعماق ضميره شيئا يدعوه لمقاومة الحياة .. وفى أقصى نفسه مرارة ويأس ..

وفى وجدانه شعور الريبة بذاته ، وامكانياته ، ومستقبله وفى عقله الباطن جبن ،وهوس، وانقسام ـ وشخصيته كلها ليست اكثر من اطار يضم هذه المساوىء جميعا ـ ومرد ذلك لا جرم ، اطفاء نور الحياة فينا وتحطيم ارادتها بمصادرة منابعها وردمها ..

فلنطلق غرائزنا هذه .. وهى ستهدى نفسها ، وتهدينا معها الى الحرية والسيادة .

ان الحرية أجمل واكبر من ان يضمنها قانون أو دستور او حكومة .. واذا لم تستقر جذورها فى قلوب المواطنين فلن يكون لها اغصان ولا ظلال ..

فلنبدأ من هنا ـ من غرائزنا المصفدة المضطهدة الحاقدة ـ نفض عنها قيودها ، ونحطم سلاسلها .

ولن نتحدث عنها جميعا ، كما رأيت قبلا ـ وانما نسوق الحديث عن بعضها الذى له بحياتنا ، كشعب مكافح ، أوثق الصلات ، وله بحريتنا كأمة مستعبدة ادق الوشائج ..

غريزة الغضب ـ حرية النقد ..

بينا فى الفصل الاول أثر اضطهاد هذه الغريزة فى انطوائها على حقد ، واندمالها على تربص.

والحكومات حين تحاربها ـ فسلاحها القانون .. فقانون يحرم التظاهر ، وآخر يحرم الاضراب وثالث يحرم النقد والكلام ..

والحقيقة أن وضع القوانين سهل ميسور ، وقد يكون تنفيذها كذلك سهلا وميسورا ..

وليست المشكلة فى وضعها .. وانما فى جدواها .. ان القانون هنا ـ يحارب الطبيعة . . . يحارب الغريزة .. يحارب قانونا آخر . وضعه الخلاق العظيم ، وصقلته القرون .. وهو لذلك مغلوب على أمره ، ولو بعد حين

وغريزة الغضب تتسرب طاقتها تسربا مهذبا مأمونا فى المجتمعات والامم بتمكينها من حرية النقد ـ فكبت هذه الحرية فى شعب تحد لقوة أصيلة فيه اصالة الانسانية نفسها ، وتصفية لطاقة تلعب دورا هاما فى بناء الشعوب .

وللعالم الجليل « هارى امرسون فوزدك » فى كتابه « (١) كيف تكون رجلا حقا » كلمات هادية مضيئة تكشف لنا عن قيمة الغضب الذى تكمم حكوماتنا أفواهه ، وتضاعف قيوده . فلنستمع اليه :

« .. والنزوع الى الخصام من أعمق الحوافز العاطفية فى الطبيعة الانسانية ـ والميل للعراك لازم لبقاء الحياة الانسانية وتقدمها ، وتترجم روح القتال نفسها بالعمل الشاق ، وبالشجاعة فى مواجهة المصاعب الشخصية ، وفى كل مظاهر الهجوم على المساوىء الاجتماعية المستقرة .

« .. ولكننا اذا ارخينا الحبل لهذا الحافز العاطفى الذى لا غنى عنه ـ كانت النتيجة مدمرة ، فان البغضاء المزمنة ، أو امساك الحقد فى القلب يمزق صاحبه ـ والغيظ الشديد قد

---

(١) مجموعة مجلة المختار ـ عام ١٩٤٥ ـ

يورث مرضا كما تفعل الجرثومة .

« .. واذا كان من سوء حظنا أن يكون لنا أعداء فان شر ما يمكننا أن نصنعه لا للعدو ، بل لأنفسنا – هو أن ندع الغيظ يستقر ، والكراهة تزمن ..

« – حين لامت سيدة – ابراهام لنكولن – على عبارة كريمة قالها عن أهل الجنوب قائلة له :

« كان الاولى بك ان تتمنى القضاء على أعدائك .. أجابها وهو موفور الصحة العاطفية والاخلاقية ، ماذا تقولين يا سيدتى ؟ الا ترين انى اقضى عليهم حين اجعلهم اصدقاء لى ؟»

افلا نستطيع – حكومة وشعبا ، ان يكون بعضنا لبعض كابراهام لنكولن مع أهل الجنوب فتقضى الحكومة على الجماهير المتفضة باتخاذها صديقا ..؟

ان السبيل لذلك متمثل فى اطلاق حرية النقد فهى الانفعال السامى لغريزة الغضب ..

وان الجماهير فى بلادنا لتعامل معاملة القاصر .. أو معاملة الايتام فى مادبة اللئام – فهى تسرق ، وتضرب وتباع مصالحها ثم يحرم عليها ان تقول لظالميها ، وسارقيها ، هذا حرام ..!!

وهل يمكن ان تحترم امة أو تقدس ، وهى لا تأتمر بمعروف ، ولا تتناهى عن منكر .؟

ان الدستور يعطى الامة هذا الحق – والقائمون على تنفيذ الدستور يسلبون هذا الحق .!

والشعب والحكومة شريكان فى اقتراف هذه الجريمة . فكلاهما يرفض ان تنقد شعائره ونظمه وتقاليده – وحين انقد أنا ، أو انت ، طغيان الاستبداد الذى يطأنا بقوائمه الفلاظ .. وغباء الحكومات وسفهها وسوء استعمال سلطتها .. تلف حول عنقك حبال الاتهام بـ « قلب نظام الحكم »

أفيكون كل نقد لمساوئنا السياسية والاجتماعية قلبا لنظام الحكم ..؟

الا فلنتدبر هذه الحقيقة جيدا ..

لقد كانت الديموقراطية يوم بزغت « قلبا لنظام الحكم » بل لنظام الدنيا جميعها . ثم صارت اليوم مهوى أفئدة البشر جميعا

وفى مصر بالذات كانت المطالبة بالنظام النيابى خيانة وقلبا لنظام الحكم . ثم اذا هو اليوم مناط الامل والرجاء ..

وكانت الحركة التى قادها الشيخ الشرقاوى ، والسيد عمر مكرم لتنصيب « محمد على » مؤسس الاسرة العلوية ، على مصر . كانت هذه الحركة يومها خيانة للوالى القائم ، وقلبا لنظام الحكم ..

لذلك نرى خورشيد باشا يخاطبهما عندما طالباه بالتنازل باسم الشعب قائلا :

« .. انى مولى من قبل السلطان ، فلا أعزل بأمر الفلاحين .. » واتهمها بالخيانة واتهم الشعب كله ـ الفلاحين ـ بمحاولة قلب نظام الحكم .. !

ولكن الفلاحين .. أصروا على ان ينالوا شرف هذه الخيانة العظمى ، ووقعوا العريضة التى رفعت للباب العالى طالبين فيها تولية « محمد على باشا »

وهكذا نلاحظ أن كل قديم عفن يتهم القوى البازغة التى يثمرها الوعى والتطور بالخيانة العظمى وقلب نظام الحكم ..!

أيريد المرجفون بهذا الاتهام ان يفهمونا انه لايتم قط تحول نافع الا على أكتاف الخيانة العظمى ..؟

أو فليوضحوا لنا مغزى هذا الارجاف .. ؟

انا جميعا على يقين بان ولاية محمد على باشا ، كانت فى أوانها

انقاذا للبلاد من فساد كبير .. ونهض هـذا الاعتقاد فى قلوب زعماء الشعب وعقولهم فعملوا وفقه ـ ولكن الحكم القائم يومذاك فسر عملهم المجيد هذا بانه جريمة وانتقاض ..

افئن حاولنا اليوم تهذيب حكمنا ، واستحداث النظم والقواعد التى تلائم تطورنا وطموحنا ، وكان من وسائلنا لذلك النقد الذى يستهدف البناء والانشاء .. نجابه بنفس الاتهام التقليدى ـ الخيانة ـ وقلب نظام الحكم ..؟!

***

ان الحكومة تسوء نفسها كثيرا وتسوء بلادها حين تزجرنا عن النقد وتمنع عنا حقنا فيه .. وهى اذ تسكت أقلامنا ، وتخنق همسنا ـ تغرى بنفسها وببلادها الناقدين الاجانب الذين يكتبون عنا مالو مزج بماء المحيط لتركه آسنا عكرا ...

وعندنا مثل لذلك ـ الكاتب الفرنسى « كوكتو » .. لقد استضيف فى بلادنا ـ وكان من حسن حظ مصر أن يهبط «كوكتو» فى ضيافة فتى مترف حديث عهد بميراث ضخم سمين .. فبسط للضيف موائد الكرم الباذخ تنوء بما فوقها من مطاعم ومشارب .. وهيأ له الكثير الطيب من الليالى الحمراء التى يجاهد فيها المترفون جهادا مبرورا .. !

ولم ينس « كوكتو » وقد جاء مصر ـ ان يرجو مضيفه كى يمكنه من رؤية «الحلقة المفقودة» فى تاريخ الانسان ـ تلك التى تتمثل فى ملايين الفلاحين والصعاليك المضرجين .. وعلى هذه الشارات الآدمية ركز « كوكتو » عدسته طويلا .. فوعى كل شىء ، وعرف كل شىء .. !

ولما عاد الى بلاده فرنسا .اخرج كتابه المعروف « فى بلاد معلهش » .. !! ولم نر هذا الكتاب طبعا ، فقد صادرته حكومتنا الرشيدة .. صونا لسمعة مصر امام اهل مصر .. !

اما العالم كله فقد قراه وتلاه .. ومثل « كوكتو » آخرون وآخرون . .

والعجيب ان حكوماتنا خارقة القدرة فى محاربة النقد ، فهى لا تخرسه داخل حدودها فحسب ، بل تتعقبه خارج الحدود ايضا ـ ولكل بلد وسيلته اللائقة به .. فعندنا مثلا يحارب النقد بالسجن والتشريد . . وعند غيرنا من البلاد الاخرى تتعقبه بالاغراء والرشوة . . ولعلنا لم ننس بعد نبأ ذلك الباشا المصرى الذى ذهب فى الصيف الماضى الى جريدة انجليزية كبرى، وزار المحرر المختص بشئون الشرق الاوسط .. والتمس منه ان تسكت الصحيفة عن نقد الاوضاع الفاسدة فى مصر . . وفى نهاية حديثه قدم للمحرر « شيكا » بمائة الف جنيه . . !

ونادى المحرر حاجبه وقال له:

اصحب الباشا الى الخارج .. فانه يجهل الطريق .. !

نعم .. انه يجهل الطريق .. ولقد علمه الفساد المتفشى فى بلاده ان كل الطرق توصل الى روما ، وان الذمم تشترى بالمال فى غير مصر من بلاد الله ، ففعل فعلته وهو من الضالين ..!

وليت الحكومات هى التى تحارب وحدها حرية النقد . . بل ان الشعب لكذلك ايضا .. !

فحين تنقد من تقاليده الموروثة وجهالاته المزمنة ما تعتقد انه ضار به ، عائق له .. ترتفع اصوات كثيرة حاملة اليك نفحة هائلة من اللعنات والتمنيات ..!

يجب ان نروض انفسنا على تقبل النقد متاسين بالرجل العظيم عمر بن الخطاب الذى كان يقول : رحم الله من اهدى الى عيوب نفسى .

وان الصخرة التى تلقى فى طريق حرية النقد لترتطم بها ـ لهى التقاليد ...

فتقاليدنا السياسية تصدناعن نقدها ومحاولة اصلاحها ..

وتقاليدنا الاقتصادية تزجرناعن نفس الغـاية .. وتقاليـدنا الدينية تطارد كل محاولة نبيلةلاصـلاح دينى . . وتقاليـدنا الاجتماعية تريد ان تستعصى على التحوير والتطوير .. !

والحقيقة التى تغرب عن بالناهى ان الاديان جميعها لم تات الا لتدمدم على التقاليـد ، وتقتلعهاثم تذروها مع الريح ..

ولو كان للتقاليـد سـلطان وحرمة ما قامت للاسلام نفسه قائمة . فانه لم يحارب بشىء كماحورب بالتقاليد .. لذلك ذهب القرآن الكريم يصفع انصارها ـ انصار القـدم والبلى والتعفن ، ويسخر من الذين قالوا : « اناوجدنا آباءنا على امـة وانا على آثارهم مقتدون » !

فلحسـاب من . . تسـتبدبحرياتنا اليوم طائفـة عفنـة من تقاليد الحكم وتقاليد الاجتماع ؟

لحسـاب الدين . . ؟ ـ ان الدين كمـا راينا يرى فى الركون اليها سفها .. بل يراه جريمةيبوء صاحبهابغضب الله وازدرائه .. ففى حـديث صحيح يقول الرسول :

« انى ممسـك بحجـزكم عن النار ـ هلم عن النار ـ هلم عن النار . ولكنـكم تقاحمون فيهـاتقاحم الفـراش او الجنـادب ، فاوشك ان ارسل بحجزكم ـ وانا فرطكم على الحوض تردون على معا واشتاتا ، فاعرفكم بسيماكم واسـمائكم كما يعرف الرجـل الغريبة من الابل فى ابله ، ويذهب بكم ذات الشمال ، واناشد فيكم رب العالمين ، فاقول اى رب . امتى . فيقول : يامحمد

انك لا تدرى ماأحـدثوا من بعدك . انهم **كانوا يمشون بعدك القهقرى على اعقابهم** » .. !

فهل الركون الى التقاليـد الاتقهقر على الاعقـاب ، وتخلف معيب مهلك ـ عن موكب التقدم والحياة .. ؟ !

أم هو لحساب الدنيا اذا لم يكن لحساب الدين .. ؟

لكن الدنيا لا تقوم على الجمود بل على التغيير المثابر والتجدد المستمر – ولنضرب لذلك مثلا :

فقد كانت البيوت الارستقراطية المترفة مختصة دون سواها بتوريد الحكام والوزراء والرؤساء . فاذا بامواج السيادة الشعبية ترفع الى القمة اناسا لم تكن التقاليد لتعترف بمجرد وجودهم ، ولم تكن العين لتقع عليهم فى زحام الحياة . .

فابن الخباز « فنسيان اوريول » يراس جمهورية فرنسا . .

وابن الحداد « ستالين » يتربع فوق الكرملين فى روسيا . .

وغاسل اطباق الصيدلية « ترومان » يصير الرجل الاول فى امريكا . .

وسائق القطار « بيفن » يوجه السياسة الخارجية لبريطانيا العظمى . .

وهكذا فى بقية جوانب الحياة لا قدم للتقاليد ولا قداسة .. ولكل ساعة تقاليدها المستحدثة واوضاعها الملائمة .

غريزة النفور .. حرية المعارضة .. وحرية الارادة

واذا انتقلنا من حرية النقد – الى حرية المعارضة وحرية الارادة وجدنا وراء هذين اللونين من الحرية غريزة اخرى قوية ماضية هى – غريزة النفور . وانفعالها المشروع النافع المعارضة ، والارادة

فانت حين تنفر من شيء مقيت ينتابك احساس مزدوج بالاعراض عنه .. ثم بارادة تغييره او تحديه . .

ولكن الاعراض موقف سلبى ان صلح فى المواقف الفردية لا يصلح فيما يمس الامة والمجتمع وهنالك يستعاض عنه بالمعارضة والتقويم . .

ماذا كان يعنى الرسول بحديثه الكريم .. ؟

« انه سيكون بعدى امراء .من صدقهم بكذبهم ، واعانهم على ظلمهم ، فليس منى ، ولستمنه ، وليس بوارد على الحوض ــ ومن لم يصدقهم بكذبهم ، ولم يعنهم على ظلمهم ، فهو منى ، وانا منه،وهو وارد على الحوض»

وماذا كان يعنى عمر حين دعاالناس ان يقوموه اذا اعوج ، ويرشدوه اذا انحرف ..

ثم ما كان يعنى ستالين عندماعزل احد اقطاب حكومته وحزبه وكتب فى اسباب العزل : « انه يتملقنى دائما ، ولا يعارضنى ابدا » .. !

ليس لهذا كله سوى دلالةواحدة هى التقدير الواعى الكريم لغريزة النفور ..

انها اذا طمست فى امة اوضللت ــ صار امر هذه الامة فرطا ــ لذلك راينا الاسلام يزكى حماسها ويثير انتباهها ، فيقول الرسول :

« لا تمروا بديار الذين ظلموا انفسهم الا وانتم باكون . خشية ان يصيبكم ما اصابهم » .. !

ثم يقول :

« اذا رايتم الظالم ولم تاخذوا على يديه يوشك ان يعمكم الله بعذاب » .. !

ان عبارة « ولم تاخذوا على يديه » هى الانفعال المحتوم لغريزة النفور ــ هى المعارضة والتقويم ..

وحرية المعارضة فى بلادنا عملة زائفة يحظر تداولها ! وبينما نجد كلمة «المعارضة» فى بلاد كانجلترا عنوانا لهيئة سياسية تحترمها الحكومة وتنتفع بذكائها . . اذا بها فى مصر عنوان على طائفة منبوذة مضطهدة ــ هكذا دائما ــ فى كل حكم ، وعهد .. !

ولقد قصصنا عليك من قبل،كيف طردت المعارضة البرلمانية بمجلس الشيوخ كما يطرد بواب عمارة ، او خادم ـ لانهم اجترأوا على رفع الستار عن بعض الذمم الجارحة التى شربت فى كئوس النصر والاستهتار دماء الابرياء ،ودموع اليتامى وثكل الايامى ..!

ان المعارضة البرلمانية قوام الحياة النيابية ، واى امتهان لها او تقويض لسلطانها ، امتهان للنظام النيابى جميعه وتقويض له

والامر كما يقول « ج . بيورى » فى كتابه ـ حرية الفكر :

« ان الشر الناجم عن تقهقر الحرية الى وراء ، أعظم من اى شر وقتى مهما بلغ من الاستطارة والايذاء .. »

ان حرية المعارضة وحرية الارادة تأخذان فى الدول المتحضرة مظهرا يبعث على الدهشة والعجب ..

فترى الحكومة البلجيكية التى بذلت جهدا مضنيا لتعيد الملك « ليوبولد » الى عرشه ـ تقف امام معارضة المعارضين من الشعب منحنية مستسلمة . حتى لقد تركت الجماهير المتدافعة كالموج تصرخ فى وجه الملك العائد من منفاه « مقام غير سعيد ياليوبولد .. ارجع الى منفاك ياليوبولد » ..!

بل أن أروع من ذلك قد كان . فكتبت جريدة الاهرام يومذاك ان مدينة « لييج » أعلنت الحداد من أجل عودة الملك ـ ونكست العلم الوطنى فوق مبنى المحافظة!

وخرج المعارضون فى مظاهرة كبرى يقودها « بول هنرى سباك » معلنة رأيها الصريح فى عودة الملك ـ وبعد يومين اثنين كان الملك يوقع ورقة التنازل عن العرش . وكان « بول هنرى سباك » يتحدث مع مراسل « آخر لحظه » عن المأساة فيقول : « عند ما يصبح الملك هدفا لسخط الشعب، يصير على الفور غير صالح لان يكون ملكا . ولقد شعر الملك ليوبولد بانه لا يستطيع الجلوس على العرش الا وهو فى حماية المدافع الرشاشة ..

« وهل تستطيع ان تتصور ملكا يجلس على عرشه فى حماية الحراب .. ؟ » ـ ثم يتحدث عن الملك الجديد قائلا : ـ « ان الامير بودوان فى مركز لا يحسد عليه ، وهو يفتقر الى المران والخبرة . ونحن نطلب منه ثلاثة اشياء فقط ..

ـ أن يحترم مبادىء الدستور .

وان يعيد السلام والكرامة الى شعبنا الجريح ..

وان يكون ملكا سعيدا ، فان الملوك السعداء يخلقون شعوبا سعيدة .. » !

اننا نريد ان نظفر فى بلادنا بمثل هذه الجراءة فى معارضة السلطة التنفيذية والحاكمين المسئولين . ونريد أن تتوفر لنا حرية الارادة فى ان نصنع حياتنا كما نشاء نحن لا كما يشاء الآخرون . والذين لا يمكنوننا من حرية المعارضة يريدون أن تكون مصر بحق « بلاد معلهش » ..

لان العجز حين يرين على ارادة المستضعفين ، وترعش السنتهم بكلمة الحق يعارضون بها البغى والفساد لا يملكون سوى هذه الكلمة الرثة « معلهش » !

والحاكم الصالح النظيف الشجاع هو الذى تزدهر المعارضة برلمانية وشعبية فى عهده وتترعرع . لانه لا يخافها ولا يخشاها .

ولقد كان عمر من هذا الطراز حين قيل له ، اتق الله فى الناس ياعمر ـ فقال :

ويل لكم ان لم تقولوها ـ وويل لنا اذا لم نسمعها ..!

وكذلك كان « لنكولن » حين قال :

« اذا ادرتم ابصاركم فى الوطن ، فرايتم لى فيه عملا جليلا . فاذكروا الذين كانوا يخالفوننى فى الراى ويعارضوننى .. لقد كانوا من ورائى سياطا تلهبنى ، ومن امامى أضواء تنير لى الطريق » ..!

المشاركة الوجدانية حرية الفكر ، وحرية الراى ..

ان نشاط «المشاركة الوجدانية» يترجم فى حياة المجتمع بتضامن الشعب والحكومة فى حمل التبعات ـ وتلاقيهما فى الاحساس والشعور ..

والعواطف ـ كما يقولون ـ معدية ، ولا تقف عدواها امام حجر او حصار .. فاذا شاعت فى الامة عواطف الثقة والمحبة استقام امرها .. واذا حطمتها عواطف الشك والمقت ـ طاش سهمها ، وخاب فالها ..

ولقد ادركت قوى الشر العاملة الناصبة، هذه الحقيقة . فتوسلت الى تمزيقنا بتريبب المواطنين بعضهم فى بعض .. وتشويه سمعة الرواد المخلصين حتى لا تستجيب لهم الجماهير وتستغل جهل الناس بحقائق الدين ، وحقائق الدنيا .. لماذا صارت الامة اشتاتا ومزقا ؟ تحسبها جميعا .. بل لا تحسبها .. وقلوبها شتى .. ؟

لان نزعة المشاركة قد كظمت فيها وأحالها طول الارغام الى نزعة تشتيت وتخذيل .. !

ولماذا كان ذلك كذلك ؟

لان المجتمع لم يحاول ان يؤمن بحرية الفكر ، ويقدرها قدرها ـ ولو قد فعل لغشيته الثقة ، وآخى بينه التسامح ، وسما به الفكر الطليق الى سماوات من فوقها سماوات ..

لابد اذن ـ ان يقر فى اذهاننا وضمائرنا الاحترام الاكيد لحرية التفكير والتعبير . ويومئذ سيقبل بعضنا على بعض ، ونتخذ من الخلاف الفكرى مزية .. ويضحى بعضنا لبعض ظهيرا ..

فلتفكر انت كما تشاء ـ ولتدع غيرك يفكر كما يشاء ، دون ان نجعل من مناطق التفكير حلالا وحراما ـ فالفكر وحده هو الذى سيقرر فى حرية كاملة حلها أو حرمتها .. ان للفكر الانسانى

امكانيات ثره هائلة ، وهو أداة الارادة الكبرى للكشف عما فى كون المادة ، وكون المعرفة من أركاز وكنوز ..

والعالم الحديث زاخر بالمذاهب والأفكار ، ونحن فى هذا العالم جزء منه يصيبنا ما اصابه طوعا أو كرها ـ فاذا لم نحط بعقليته وافكاره خبرا ، ونسارع الى مسايرته او مسابقته ـ اذا كانت مسايرته بدعة وضلالا . . فسنظل مكاننا ـ لنا أعين لا نبصر بها ، ولنا آذان لا نسمع بها ، ولنا قلوب لا نفقه بها .. حتى يمر بنا الموكب وهو ماض الى غايته فسنظل مكاننا ـ لنا اعين لا نبصر اللقيط ، ويضعنا تحت الوصاية حتى يروضنا على تقبل الحياة والتفاعل معها ..

اليس هذا ـ هو منطق الاستعمار حين يعثر على امة مغفلة لا تحترم ما أودعه الله فيها من عقل وقدرات .. ؟ !

ان بلادنا محرومة من ان تفكر ، لانها محرومة من ان تقرأ ـ ومحرومة من أن تعبر وتقول .. وهى ممنوعة من ذلك كله حرصا على سلامة الدولة ، وسلامة الهيئة الاجتماعية .. ! !

اصحيح هذا ـ ام خداع وهراء .. ؟

ان الفكر الحر لا يكون خطرا على الدولة والمجتمع ابدا . وانما مصدر الخطورة فكر غير حر .. فكر مكره ، مضطهد ، موتور ..

ان حكوماتنا تتهيب طبيعة بعض الافكار وتأثيرها ، فتحرمها . وسنفترض اخلاصها فى هذا التحريم ، ونظافة بواعثها . ثم ندعوها لتسمع من « ميل » فى كتابه الحرية نقاشا هادئا بليغا .

« .. هذه الفكرة المراد تحريمها صواب ام خطأ ..؟

« ان تك صوابا ثم حظرناها ، فقد حرمنا المجتمع حقه فيها .. وسلبنا منه احدى حقائقه الكبرى

« وان كانت خطأ ، فمن أين لنا معرفة ذلك ..؟

« يجب لكى نحكم عليها بالتصويب او التخطئة أن نمتحنها

فى جميع الظروف ، وتتاح لنا الحرية الكاملة فى مناقشتها ، ومناقضتها .. وبغير ذلك لا يستطيع كائن ذو مواهب انسانية ان يتثبت تثبتا عقليا من صواب فكرة او خطئها ..»

ان هذا القول البليغ ليجهز على اراجيف الذين يحرمون المذاهب والافكار حرصا على دولة ، اومجتمع ، او فضيلة.. فالفكرة التى تنتصر على النقاش والمعارضة والنقد انتصارا استمدا من صدقها واحقيتها هى التى يجب ان تنظم تقاليد الدولة حولها ، ويصاغ المجتمع والفضيلة وفقها .. لا ان تحظر وتصادر

لكن ، كيف لا تكون حرية الفكر والراى خطرا على الدولة وهى المسئولة عن كل ما وقع فى التاريخ من تغير وتطور وانقلاب.؟

وجوابنا ــ ان هذه ــ مزية الحرية لا خطيئتها ــ فكل ما احدثته من تغير وتطور تم لصالح الانسانية وافضى لاسعادها ..

واما ما حدث من انقلابات صاغت التاريخ وعينت له وجهته ، فلم تتم جميعها على وجه غير مشروع .. والذى وقع منها على وجه محظور ــ كان القانون فى انتظاره يصادمه ، ويقف دون غايته ــ وهى مصادمة محترمة حتى من الحرية نفسها مادامت بعيدة عن الافراط والتفريط يقول «ج. بيورى» (١)

«ان الحالات التى يكون تدخل الحكومة فيها ضد الحرية سليما ، هى حالات يلتبس فيها الحق بالباطل ..» فلو حدث مثلا تحريض مباشر على اعمال عنف معينة لكان هناك مجال مشروع لتدخل الحكومة.. ولكن الباعث على التحريض ينبغى ان يكون متعمدا ومباشرا ..

«فاذا الفت كتابا ، وهاجمت فيه الأنظمة الحالية ، ودعوت الى نظرية فوضوية ، ثم قراه رجل فقام واعلن التمرد ، وارتكب جريمة.. فقد يستنتج من هذا ان كتابى هو الذى جعل

---

(١) **حرية الفكر** ــ ترجمة الاستاذ محمد عبد العزيز اسحق

الرجل فوضويا وجانيا ـ ومع ذلك فلايكون جائزا، ولامشروعا ان اعاقب على التأليف ، اويصادر كتابى مادام لا يحوى تحريضامباشرا على ارتكاب تلك الجريمة بالذات ..

«ان الشر الناجم عن تقهقر الحرية الى وراء اعظم من اى شروقتى مهمايبلغ من الاستطارة

«وان مبدا حرية الفكر اذا تقرر يوما ما ، باعتباره اقصى مراتب التقدم الاجتماعى .. خرج من مجال الامر العادى الى مجال الامر السامى الجليل الذى نسميه «عدلا» أو بعبارة اخرى ، يصبح حقا يستطيع كل انسان ان يستند اليه ـ وان قيام هذا الحق على مبدا المنفعة لايبرر ان تقوم حكومة فى احوال استثنائية ، فتقص من اطرافه بحجة المنفعة نفسها.»

ويعنى «بيورى» بقيام الحرية على مبدا المنفعة، انها لكى تكون مجدية حاسمة بعيدة عن المهاترة والتعارك والخلاف .ينبغى ان تناط بالمنفعة القائمة على مصالح الانسان المطردة المتطورة ..

واذا عجزت هذه الكلمات الهادية ان تهدينا، وتقف عدواننا المستمر على حرية الفكر ، فلن نعجز الواقع ابدا .. وهذا الواقع يتمثل فى ان للافكار والآراء فى هذا العصر. من النفاذ ، والغلبة ، وسرعة الانتشار ، وقوة الاقتحام، مالا يمكن قوة على ظهر الارض من وقفها . فبدلا من ان تنفذ الى افئدة الناس فى خلسة وظلام .. دعوها تأخذ طريقها السوى لنبصرها ونراها ، ونتفحصها فى اناة ووعى لنأخذ منها الطيب ،وننفى عن مجتمعنا الخبيث .

وارتباط حرية الراى بحرية الفكر خالد وثيق . ولا قيمة للثانية بدون الاولى

ونحن لا نطالب بحرية الفكر كمانطالب بحرية الراى .. فانت تستطيع أن تفكر تفكيرا ذهنيا فى اخطر الاشياء ، واشدها خصومة ولددا للقانون ، دون ان يسمع احد أو يرد ، ودون ان يقدر احد ـ حتى انت ـ على وقف التفكير ورجعه .

لذلك ، فان حرية الفكر تعنى فى الحقيقة حرية الراى ـ حرية التعبير والقول .

وقمين بنا أن نعلم ان هناك تلازما خلقيا طبيعيا بين التفكير، والتعبير .. حتى ان بعض علماء النفس ليقولون :

« الانسان يكلم نفسه وهو يفكر .. ولو راقبنا حباله الصوتية ، ونظرنا الى حنجرته أثناء التفكير ، لرايناها تتحرك ـ وهو دليل على انه يتكلم ولو لم يشعر بذلك .. »

ارايتم الآن ما بين الحريتين من تلازم وارتباط ... ؟

ثم ارايتم ان مكافحة الحرية مكافحة للطبيعة الغالبة ، وتحد لارادة الله .. ؟!

ولا يتمثل الراى فى شىء كما يتمثل فى الصحافة ، فهى التى يتشكل فيها الى حد كبير اسلوب الامة فى التفكير وفى الحياة ... وهى التى تستطيع ان تعبر فى افاضة ، واحاطة ، وقوة عن آلام الشعب وآماله ..

ولما كنا سنتحدث عنها فى الفصل القادم باعتبارها اهم العناصر التى تتألف منها شخصية الامة فسنرجىء الحديث عن حريتها ليأتى هناك مع الحديث عن تبعاتها وقيمتها

اطلقوا سراح العقل ..

والحديث عن حرية الفكر والراى لا يبلغ مداه حتى يحمل نصيبه من الدفاع عن العقل ذاته

ان العقل فى بلادنا ، وهو مناط التفكير والفهم ، مشرد محروم .. تطارده الحكومات ، وتطارده أيضا الجماعات .. !

فهو مشبوه سياسى تارة ، ومشبوه دينى تارة أخرى .. ولا يكاد يبزغ من كوى سجنه بزغة خاطفة ، أو يومض ومضة بارقة حتى يفزع منه « المحافظون » .. !

وماذا ، بعد ان تظل عقولنا مسامة هذا الاضطهاد .. ؟

ماذا ، بعد ان نظل امة بلاعقل ... ؟

ان المستعمر الذى يستعمرنا ، والمستبد الذى يحكمنا ، والمستغل الذى يستغلنا - كل هؤلاء انما يستعينون علينا بعقولهم .

فاذا شئنا ان نزلزل الارض تحت اقدام المستعمرين ، ونرد الرجعية الاقتصادية على اعقابها لتلتزم مكانها الذى اراده لها التطور والتاريخ ...

واذا قررنا الانطلاق مع الموكب الحى ، احرارا كما ولدتنا امهاتنا - عاملين ، تتفجر بالادب والفن والانتاج مواهبنا ..

اذا كنا نريد ، فلا سبيل لشىء حتى يعود الغائب ، ويطلق سراح السجين .. العقل !

***

ان الخوف والتقليد هما اللذان يلفان عقولنا فى الظلمات .

والعجيب انها تخوف بالله .. ترى اين يلتمس العقل سكينته وامنه اذا افتقدهما لدى الله ؟

ان الشعوب التى لا تحترم العقل لن يحترمها احد - وستظل أبدا مباءة تعج بالسفه والحماقات ونهبا يتربص بها كل مستعمر وناهب .. !

ويجب ان نعلم ان العقل سيد نفسه ، واذا كان لله خلفاء فى الارض ، فخلفاؤه العقل ..

والانسان الذى يبخس عقله ، وينتزع منه اختصاصه ، لايظل انسانا .. انه كومة هزيلة من اللحم والعظم والاعضاء والامعاء يطلق عليها تجوزا لقب « آدمى » !

وهؤلاء الذين يثيرون العواصف أمام العقل باسم الله جد مفترين !

لقد اختلف الانبياء والمرسلون ، فكان لكل واحد منهم طريقة ومنهاج ...

واختلف اصحاب محمد عليه السلام وهو ثاو بينهم ومقيم ، واختلف ائمة الفقه فى اخص خصائص الدين ... واحترم بعضهم لبعض هذا الخلاف ..

وماذلك كله الا احترام للعقل ، وتحريض له على المغامرة والتحليق ..

انظروا – تروا عمر بن الخطاب لا يخاف من الغاء نصيب المؤلفة قلوبهم ، مع انه مضمون بآية صريحة فى القرآن .. !

لماذا .. ؟ لان عمر استعمل عقله ، فاهتدى الى ان هؤلاء المؤلفة قلوبهم لم يعد ثمت ما يدعو للحرص عليهم مالم يأتوا مؤمنين راغبين .

ولو ان عمر ، رجل يعيش فى عصر الانحطاط الذى نعيش فيه اليوم ، وصنع هذا الصنيع ، لتزاحمت من حوله الفتاوى بانه كافر زنديق تحركه الجماعات التبشيرية ، وتموله السفارات الاجنبية .. !

ان استعمال العقل واحترامه بداية ما نريد من بعث ونشور – ولا بأس ان تخطىء عقولنا وتزيغ .. فسنهتدى آخر الامر والخطأ الذى يثمره تحرير العقل من الخوف خطأ فاضل نبيل .. وهذا هو الخطأ الذى يجعل الاسلام لصاحبه اجرا ..

ولقد كان الرسول عظيما يوم ضم الى صدره معاذ بن جبل تقديرا لشجاعته الادبية والعقلية حين قال : اجتهد رايي ، لا آلو .. جوابا على سؤال النبى له :

– ماذا تصنع اذا لم تجد الحكم فى كتاب الله ، ولا فى سنتى ... ؟

وكذلك كان « جون ستيوارت ميل » بليغا وهو يقول :

« ان الحق ليستفيد من خطأ الذى يعتمد على فكره مع اتخاذ الاهبة ، وانعام النظر — اكثر مما يستفيد من صواب الذين لا يعتقدون الصواب الا من باب التسليم دون ان يكلفوا انفسهم مئونة البحث ، ومشقة التروى »

***

دعوا عقولنا تتحرر من الخوف، فليس شىء سواها بقادر على تحريرنا وانقاذنا

ولنذكر أن أعداء الشعب لا يرهبون شيئا مثلما يرهبون العقل الطليق المستنير . لانه الرائد الباسل امام كل حركة شابة ، وتطور زاحف .

انه يأتى « الرعايا » النائمين، فيصيح فيهم صيحة الايقاظ .

— هبوا ، واستقبلوا موكب الحياة والنور .

ويأتى الطغاة المتآمرين ، فيدمدم عليهم بصياحه :

— صبحكم .. ومساكم .. !

انى اذا نزلت بساحة قوم ، فساء صباح المنذرين .. !

ومن اجل ذلك يبغضونه ، ويحاربونه — وعلينا ان نحرره ليحررنا — ونخلصه ليخلصنا .

***

انا لنأسف ملء نفوسنا ، حين نرى بعض رجال الدين ، او القلم ، يسهمون مع الغاصبين فى محاربة العقل وتأليب الجماهير عليه ، وتشكيكهم فى قيمته وفى نفعه ، وتجرئتهم على بهته ورجمه — حين يحصبونه بالحجارة والتهم ، ممثلا فى آراء بريئة خالصة لأخوة لهم فى الوطن، والالم ، والكفاح ...

ان هؤلاء لن يكونوا سوى فريقين :

اصدقاء جهلاء للشعب ..

او اعداء خبثاء له ..

فليختاروا لانفسهم مايحلو .

اما نحن فنختار لهم ، أن يكونوا اصدقاء علماء ... !

ونأسف أيضا لحكوماتنا التى تجبى منا الضرائب لتسخو بها عن طريق المصروفات السرية والعلنية ، على أولئك الذين يحاربون العقل والوعى بما يكتبونه ويذيعونه ..

وحين تدع كتب الغثاء والتضليل تنشر بلا قيد ، ثم تصادر ، أو تهدد دائما بالمصادرة كل كتاب يبشر بالواجب ، ويخافت بالواقع المثير ..

واذا كان الخوف عدوا خطرا للعقل ، فالتقليد اشد خطورة وكيدا .. وهو ديدبان حارس لما للرجعية والتاخر من تراث .

والامم المنحدرة النائمة لا تفيق حتى تومض فى حياتها ساعة تؤمن فيها بأن التقليد انتحار ..

ترى هل دقت هذه الساعة فينا ، وآن لها الاوان .. ؟

ان الجواب ـ مع الاسف ـ لا .

فنحن امة تتلقط دائما من غيرها ـ دون ان يكون لها ابداع وابتكار

وهذا كلام يضل فيه الفهم اذا لم يكن بصيرا ، فقد يظن البعض ان استهجاننا للتقليد يعنى كل محاكاة نافعة ، وكل قدوة بالذين سبقونا الى الحياة .. كلا ـ والفارق بعيد بين التقليد والمسايرة ...

ونحن ندحض التقليد ، ونؤمن بالمسايرة .

ولكن ماعلاقة التقليد بحديث يساق عن الحرية .. ؟

ان العلاقة بينهما اكيدة وواضحة .

فالتقليد ـ عبودية ورق ـ واهدار لكافة مقومات الحرية ، والشخصية والفرد حين يقلد فردا آخر يمحو ذاتيته من الوجود . .

والدولة حين تقلد دولة تقليدا اعمى توقع منشور نعيها وخبر وفاتها ..

وفى بلادنا يكمن التقليد وراء كل عمل ناتيه ، ونهج ننهجه

وفى غيرنا من بلاد الدنيا المتحضرة عليت نزعة التقليد وهذبت ، وصارت تطورا ومسايرة

يالمشاهد المضحكة .. !

جماعات تقف فى اقصى اليمين، وعلى ابصارها غشاوة . وجماعات اخرى فى اقصى اليسار ، وعلى اعينها غطاء ..

ورجال دين يعلنون من فوق منبر الفاتيكان ان ملكوت الله ، ورحموت الكنيسة حرام على من يناصر الشيوعية ، او حتى يتلو صحيفتها ..

فيقلدهم رجال دين عندنا كبار ـ مذيعين نفس الفتيا معلنين نفس الاعلان

وهنا يتبين لك الفارق الاكيد بين المسايرة والتقليد ـ فالفاتيكان ابتدع هذا النهج مسايرة لامريكا بعد ان اعتمد له « الكونجرس » علنا مئات الملايين من الدولارات جزاءا وفاقا لحملته ومسايرته !

اما نحن ، فنقلد تقليد العبيد الذين لا ثمن لهم ولا جزاء ..

والحكومات عندنا ـ الفت هى الاخرى عقلها ـ ومضت تقلد فى جنون وشغف ـ

فهى تارة تقلد « عنترة » ، فتخطب وتصخب ، وتبطش بالضعفاء لتزجر بهم الاقوياء ، وتمزق الهواء بالسيف ، وتهتف من « الشرفة » بسقوط الشيوعية ..

وتارة اخرى تقلد « جحا » يوم مضى يؤذن وهو يجرى فى الطريق فلما سئل : لماذا يصنع هكذا ؟

اجاب بانه يريد ان يعرف الى اى مدى يبلغ صوته الجهير .. !

فحكوماتنا تحمل نفسها اوزارالعروبة ، وسفهها وفوضاها ـ لانها تريد ان تعلم . الى اى مدى يمكن ان يصل صيتها ،والى اى مدى تستطيع ان تسوس امبراطورية مترامية عندما يمن الله بها عليها .. !

لقد كان جحا قادراعلى معرفة منتهى صوته ومداه لو انه وقف مكانه ونادى بالآذان .. ولكنه اراد ذلك ليتيح للفارغين ان يقلدوه ، وينتفعوا بذكائه .. !اننا فى كارثة ، ونحن لاندرى ..

فالتقليد لدينا محور حياتنا

. وهو يذهب صاعدا ـ فتقلد الجماهير روادها من كتاب وصحفيين وبرلمانيين ..

وهؤلاء جميعا يقلدون الروح المتخلف من سكان الاضرحة والقبور ..

ثم يأخذ التقليد ترتيبا آخر تنازليا ، فنرى الشعب مثلا يصيح ..

هيا الى فلسطين ـ فيردد الكتاب والرواد صداه ..

هيا الى فلسطين ـ واذا الحكومة تصيح هى الاخرى ـ هيا الى فلسطين .. دون ان تتهيأ وتستعد وتقف على صخر مكين. والجماهير ـ تنفس عن غيظها العاجز المكبوت ، فتهتف .. تسقط الراسمالية ..

وتقلدها الحكومة ، فتصرخ ـ تسقط الشيوعية .. !

ان عقليتنا السياسية تقلد ، وعقليتنا العلمانية تقلد ، وعقليتنا الاصلاحية تقلد .. لذلك نحن امة تافهة ـ فقدت نفسها لانها فقدت عقلها ـ فاذا أردنا ان نجد انفسنا ونفرض على الآخرين وجودنا واحترامنا ، فلنقدر العقل قدره .. ولنمكنه من ان يفكر فى حرية وانطلاق ـ لا يخاف وهما ، ولا قانونا ـ ويساير النابهين مسايرة مبصرة . ولا يقلدهم تقليد المكفوفين .

عندما نتحدث عن الحرية هذا الحديث المتنوع ، فنقول حرية الفكر ، وحرية الراي ، وحرية النقد ـ الى آخر هذه التقسيمات، فليس معنى هذا أن الحرية تتجزأ ..

ان الحرية وحدها متضامة متداخلة لا تقبل التجزئة ، ولا التفتيت ـ ولكننا نكسوها هذه الازياء المتنوعة ـ تبعا لتنوع الظروف والمقتضيات .. والحرية هي الحياة .. والحياة لا تتجزأ ـ فأما حياة كاملة ـ واما موت كامل ـ

من اجل ذلك صاح محرر قديم ـ اعطني الحرية ـ أو الموت !
ونريد الآن ان نتحدث عن الحرية السياسية للشعب ـ وهى الانفعال السامى لاعرق غرائزه ، وانفعها ، واغناها .

غريزة « انـا » حب الذات ، واثباتها ، وتوكيدها ـ ان الشعوب المستعبدة تعجز دائما عن ان تقول : انا ..

اسمعوا هذه الحقيقة جيدا .

ان الشعب المسترق لا يستطيع ان يقول : انا ... مشيرا الى نفسه ..

ولكنه يقول : هو .. مشيرا الى سيده !

وعلاج شعبنا اليوم فى لسانه .. ان يقول دائما :

انـا .. انـا .. انـا

ان توكيد الشخصية يتطلب مددا زاخرا من قوى الفرد ، وقوى الجماعة .. واذا كانت التعاليم المغلوطة ، والاهانات المتكررة ، والاستعمار المتغطرس .. اذا كانت هذه جميعا قد نزعت عنا كبرياءنا ، فلنحاول من جديد ان نكون اهل ثقة واعتداد وكبرياء .

لقد قرا نابليون فى صغره ـ ان من اراد ان يكون شيئا ما ، فليهتف

كـل يوم ثلاث مـرات عن وعى وانتبـاه ـ يجب ان اكون ذلك الشيء ..

وذهب ، فـكتب « لافتـة » واضحة الكلمات ـ وناطها بجدار غرفته ـ وفى كل صباح يرتدى ثيابه ـ ثم يستقبلها فى وقفـة عسكرية ـ ويقرأ كلماتها المكتوبة فى قوة :

ـ يجب ان اكون جنرالا .. !

وانـكم لتعلمون اى شيء قـد صار ـ نابليون ..

نريد ان نكون مجانين مثـل الطفل نابليون ..

فيهتف كل مصرى صباح كل يوم ـ انا مصر ..

نريد أن تصف كل سـيدة صغارها وأشبالها قبل منصرفهم من المنزل فى الصباح ـ وتطلب اليهم ان يصيحوا جميعا ـ نحن مصر ..

نريد أن تقف « طـوابير » التلاميذ والطلاب فى ابهاء معاهدهم ومدارسهم لتهتف صباح كل يوم ـ نحن مصر ..

نريد أن يفتتح النواب والشيوخ جلسـات البرلمان بهذه الصيحة الواثقة ـ نحن مصر ..

ولـكن بعد ان تمثل مصر فى برلمانها تمثيلا صحيحا .. ينتظم فقراءها قبل اغنيائها .

لن نعرف حقنا ـ حتى نعرف اولا ـ انفسنا ..

ولن يعترف احد بوجودنا .. حتى نثبت اولا هذا الوجود ..

والسبيل لهذا :

ان تقف ـ لنرى .

وان نتحدث ـ لنسمع

وان نقتحم ــ لنخشى

وقبل أن نقول : نريد ــ يجب ان نقول : نحن !

واذا ما سئلت : اتدعو الناس الى الانانية ، وحب الذات ، وحب الظهور .. ؟ !

أجيب : نعم .. يجب ان نتحلى بفضيلة الانانية .. الانانيــة المستنيرة الفاضلة ، التى تحفزنا الى ادراك قيمتنا ، والعكوف على مطالبنا ، والنهوض بواجباتنــا ، والتشبث بحقوقنا ..

لقد قتلنا التواضــع ، وبددنا طول الانطواء والانزواء .. فلنبرز الى الافق ، ولنبصر انفسنا من جديد ..

ان الانانية البغيضــة هى تلك الفردية التى تطويك على نفسك ، وتلفك فى اطماعك وشهواتك .. أما الاخرى التى نريدها ــ فهى تعرفك بنفسك ــ لا تطويك عليهاــ وتنشرك ضخما فخما عظيما ، لتملأ افقك وفراغك ..

ولكى يبلغ الشعب هذه المكانة ، ويحقق فى مجموعه هذه الفضيلة ــ يجب ان يبدأ افراده بذلك ..

غادر نفسك ــ اذا كانت نفسك قبوا مشحونا بالاطماع ..

وانشىء لك نفسا جديدة لهــا مثل ، ونهج ، وكفاح بحيث تتلاقى مثلك ونهجك وكفاحك مع حاجات وطنك ، ومصلحة مواطنيك .. واعكف على نفسك هذه .. فلن تكون انانيا بغيضا .. بل انانيــا مستنيرا .

واذا كان هناك ما يعين على هذه الطريق بعد انفسنا ، فهو اتاحة الحرية السياسية لنا اتاحة كاملة لا تكتنفها عوائق ولا قيود .. فعن طريقها تتحقق كرامتنا السياسية ، ووجودنا القومى والانسانى

ان الحيــاة السيــاسية للامة تنتظم كثيرا من العناصر والادوات ــ ولكنها تتركز اخيرا فى الحكومة ، والبرلمان .

فالبرلمان يشرع للامة سياستها ـ والحكومة تقوم بتنفيذ هـذه السياسة ـ وبين الاثنين تفاعل يذهب طردا وعكسا ، فالحكومة تؤثر فى البرلمان وتخضع له . . وهو يؤثر فيها ويخضع لها . .

والطريق المفضى لتحقيق حريتنا السياسية هو : ديموقراطية الحكم والديموقراطيـة النيـابية ـ فلنتحدث عنهما ـ

ديموقراطية الحكم

لكى يكون الشعب حرا ـ يجب ان يسود . .

ولكى يسود ـ يجب ان يحكم

وهذه هى الديموقراطية . . حكم الشعب

وما دامت الحـكومة ثمـرة انتخابات يختار الشعب عن طريقها ممثلين ، ليعينوا بدورهم نـوع الحكومة التى ستحكم . . فـان الشعب اذن هو المسئول وحده عن نوع حكومته ، وسنوضح هذه المسألة عند الحديث عن الاصلاح البرلمانى . . بيد أننا نريد ان نقرر هنـا أن الحكم الديموقراطى اذا غربت شمسه عن امة ، فقـد غرب معـه اسـتقلالها ، ومال مستقبلها للمغيب . . وبعبـارة اخرى . .

ان الحكم الاستبدادى يقوض سيادة الدولة ، ويهيىء الامـة للعبودية والاسـتسلام . لذلك يجب أن يسلك كل حاكم طاغية فى عداد « الخائنين العظام » ـ لانه باستبداده ينزل الشـعب منزلة رديئة من الاستياء والقنوط يفقد فيها زمام التصبر والاحتمال . . فيرحب بكل طـارق يقرع ابواب بلاده ، ويرى المقـاومة ضربا من العبث والجنون . .

ماذا وراءه حتى يحرص عليه ، ويذود عنه . . ؟

لقد قال الشاعر العربى :

وحبب أوطان الرجال اليهمو   مآرب قضاها الشباب هنالكا

فاذا تلفت الشعب وراءه، فلم يجد له ذكريات سعيدة تستجيشه وتناديه — ففى سبيل ماذا يقاتل؟

وقال شاعر آخر:

لا اذود الطير عن شجر قد بلوت المر من ثمره

فاذا ابصرت الجماهير بالاشجار التى ابت ان تظللها من الهجير، وتطعمها من الجوع .. تجتاحها الاعاصير، او تعدو على ثمارها الذئاب .. فلماذا تدافع عنها ؟!

لذلك لا نجد غازيا سار عبر التاريخ الى مدائن ففتحها، او عروش فدكها، او امبراطوريات فاذاقها لباس الخوف والذل — الا كان استبداد الحكم فى هذه البلاد المفتوحة الصريعة، الطريق المهد الذى دخل منه موكب الغازين ..

انصتوا لغوستاف لوبون :—

« استقبل كثير من البلاد المحتلة غزاة فرنسا كمحررين لها — فقد هرع سكان سافوا الى رؤية الجنود الفرنسيين، واستقبل الناس فى مايانس هؤلاء الجنود بحماس .. وغرسوا أشجار الحرية، واسسوا مجلش عهد شبيه بمجلس باريس ..

« .. وكلما كانت جيوش الثورة الفرنسية تصطدم بأمم اذلها الملوك المستبدون، ولم يكن لها خيال تذب عنه — كان النصر يحالفها .. ولكنه كان يتعذر عليها عند اصطدامها باناس أولى خيال وثيق كخيالها .. »

اذن فالحكام المستبدون فى امة هم طابورها الخامس الذى يعمل بشعور أو لا شعور، لحساب الغزاة والمستعمرين ... وهم الذين يحيلون الشعب الصلب المتماسك الى زبد طرى تجرى فيه السكين ..

---

(١) كتاب روح الثورات — تعريب الاستاذ محمد عادل زعيتر

واذن فالامة يتقرر مصيرها ،يوم ينهض فيها حكم استبدادى ولو تلفع بأردية زائفة من الديموقراطية ، وما اروع ـ اذن ـ محمدا رسول الله حين يقول :

اذا وسد الامر لغير أهله فانتظر الساعة ..

أى اذا صارت امور الامة بيد من ليس للحكم اهلا ، فانتظر الساعة .. الساعة التى تدق معلنة وفاة هذه الامة .. ناعية سيادتها واستقلالها .. ! وهل يكون المستبد اهلا للحكم ابدا .؟

انه لايكفى شكل الديموقراطية بل لابد من حقيقتها .

وليس يكفى ان يكتب فى الدستور : الامة مصدر السلطات ثم يكون الواقع ـ ان الامة ضحية السلطات .. !

وليس يكفى أن يحمل حكامنا « جنسية مصرية » بل لابد أن يجرى فيهم دم مصر ، وآلام مصر وآمالها ..

***

ان الحاكم الديموقراطى يحترم الشعب ، ويجعله فى عينه اجل من أن يخدعه ، وأعظم من أن يضلله ويحترم حقوقه جميعا أدناها ، كأخطرها .. ولطالما تستبد بنا الدهشة والعجب حين تضطرب أمورنا ، فنفقد توازن الحكم وديموقراطيته ،ونتساءل مانحن ..؟

عرب ـ أم فراعنة ..؟

ثم تتكاثف الدهشة حين نجد انه لادين العرب الذين هم آباؤنا ولا دين الفراعنة الذين هم جدودنا ـ يبيح الاستبداد ، ويمنح الحاكم المستبد حق الطاعة والاحترام ..!

فهذا هو الرسول يقول :

« مامن امام يغلق بابه دون ذوى الحاجة والخلة والمسكنة الا اغلق الله أبواب السماء دون خلته ، وحاجته ..

ويقـول : « اذا رأيتم الظالم ، ولم تأخذوا على يديه يوشك أن يعمكم الله بعذاب من عنده ..

ويقـول : « اللهم من ولى من امر امتى شيئا ، فشق عليهم ، فاشقق عليه ..

ويقـول : « ان شر الرعاء الحطمة .

ويقول : « خيار ائمتكم الذين تحبونهم ، ويحبونكم ، ويصلون عليكم ، وتصلون عليهـم .. وشرار ائمتكم الذين تبغضونهم ويبغضـونكم ، وتلعنونهم ، ويلعنونكم .

ويقول : « اذا اراد الله بالامير خيرا — جعل له وزير صدق ، ان نسى ذكره ، وان ذكر اعـانه .. واذا اراد الله به غـير ذلك جعل له وزير سوء — ان نسى لم يذكره وان ذكر لم يعنه .

وهـذا عمر يعدو وراء بعير شـارد من ابل بيت المـال ..

حتى اذا سئل :

الا نتعقبـه نحن ، وتستريح انت ياأمير المؤمنين ؟

اجاب وهو يهدر :

ولمـاذا اذن اكون للناس واليا واميرا .. والله لو ضـاع عقال بعير بالعراق لخشيت أن يسألنى الله عنه ، ويقول لى :

انستودعك حقوق النـاس ، وتنام عنها ياعمر ..؟!

اى أن عمر رضى الله عنـه يقدر مسئوليتـه ازاء حق الشعب فى عقال بعير — فى حبل من مسـد لايسـاوى شيئا — فكيف كان تقـديره اذن لحق الشعب فى الحرية ..؟

هذا هو الاسـلام .. اذا كنا مسلمين ..

وماذا فى دين المصريين الاقدمين ؟

انهـا نفس التعاليم التى تلزم الحاكم باحترام الشعب ، ونشر الحرية والعـدل والمساواة بين ابنائه جميعا

لنضع ابصارنا الآن على الصفحة الثالثة والتسعين من الجزء الثاني لكتاب « قصة الحضارة » .. حيث نطالع الخطاب التقليدى الذى كان يلقيه الملك على الوزير حين يتقلد منصبه ! ..

« اجعل عينيك على مكتب الوزير ، وراقب كل مايحدث فيه ، واعلم انه الدعامة التى تستند اليها جميع البلاد .. ليست الوزارة حلوة ، بل هى مرة .. واعلم انها ليست اظهار الاحترام الشخصى للامراء والمستشارين وليست وسيلة لاتخاذ الناس ايا كانوا عبيدا ..

« انظر . اذا جاءك مستضعف من مصر العليا او السفلى ، فاحرص على أن يجرى القانون مجراه فى كل شىء ، وان يعطى كل انسان حقه .. واعلم ان المحاباة بغيضة الى الاله ، فانظر الى من تعرفه نظرتك الى من لاتعرفه .. والى المقربين الى الملك - نظرتك الى البعيدين عن بيته ..

« انظر . ان الامير الذى يفعل هذا - سيبقى هنا فى هذا المكان .. وليكن مايخافه الناس منك انك تعدل فى حكمك ..

« ارع القواعد المفروضة عليك . »

هذه آيات يفسدها التعليق ، فلندعها هكذا متانقة متالقة - ولنتساءل مرة اخرى .

من اين لنا اذن مايصبغ حكوماتنا جميعا بصبغة العتو والاستبداد ..؟

من الاسلام . . ؟ لا ..

من المصرية القديمة ..؟ لا ..

اذن . فمن اين .. ؟ من اين تهب هذه الريح السموم ..؟

لابد انها من الماضى .. حيث الاستعمار التركى المتوحش .

ومن الحاضر . . حيث الاستعمار الانجليزى الخبيث .!

***

لقد اتى على جماهيرنا المستعبدة حين طويل من الدهر زيف فيه دينها تزيفا هادفا ليسلس قيادها ، وتتلاشى امام الطغاة ارادتها . فقيل للمسلمين منا : ان نبيكم يقول :

« اسمع لاميرك واطعه ، وان جلد ظهرك واخذ مالك »

« كن عبد الله المغلوب ، ولاتكن عبد الله الغالب »

« الزموا طاعة امرائكم ، وان ظلموا . . ، فان الله مبتليكم بهم »

وحاشا محمدا .. ثم حاشاه أن يقول من هذا شيئا ..

وقيل للمسيحيين منا ان دينكم يقول :

« ايها العبيد ـ فلتخضعوا الاسيادكم ، والخوف يملأ نفوسكم . ولا يكونن هذا خضوع للخيرين منهم ، ولا للرفيقين فحسب ـ بل وللشريرين ايضا ـ رسائل بطرس .

« ايها العبيد ـ اطيعوا سادتكم فى خوف ، ورعدة . . ـ الرسالة الموجهة الى الفيزيين

« على جميع من يخضعون لنير الرق ان يعتبروا أسيادهم جديرين بكل تبجيل ـ الرسالة الموجهة الى تيموتيوس ..!

وحاشا روح الله ـ وحاشا حوارييه الصادقين أن يقولوا من ذلك شيئا ..!

انها اذن مؤامرة فتل الاستبداد حبالها من زمن وسلك فيها ضحاياه من الشعوب .

فلنحذر .. ولنعش احرارا كما ولدتنا الامهات ، وتشققت عنا الارحام ..

الديموقراطية النيابية :

واذا كانت ديموقراطية الحكم لازمة لتحقيق الحرية السياسية فى الامة ، فالزم منها واخطر الديموقراطيـــة النيابية ... فالبرلمان هـــو الذى يثمر الحكومة ، ويعين لونها .. وعملية الانتخاب هى التعبير الصحيح عن ارادة الشعب وحريتـــه السياسية اذا لم تخالطها رغبة ولا رهبة ..

والديموقراطية النيابية تتحقق بعناصر اهمها : ـ

ا ـ حرية الترشيح ..

ب ـ حرية الاقتراع ..

ولنبدأ الحديث عن اولها ..

حرية الترشيح

ان المواطن الذى يتقدم الى الناخبين طالبا ثقتهم ، يجب ان يكون حـرا .. ويجب ان يشعر بالحرية المطلقة شعورا غامرا حتى يواتيه الاحساس الصادق بكرامة مهمته وقدسيتها .

ولكن الترشيح فى بلادنا مصفد بهذه القيود .

١ ـ الدوائر المغلقة ..

٢ ـ العصبية والحزبية

٣ ـ القيود البرجوازية ..

***

اما الدوائر المغلقة فبدعة فى حياتنا السياسية .. وهى نوع مهذب لاسواق الرقيق .. لان فحوى هـــذا النظام ان تتفق الاحزاب على توزيع منـــاطق النفـــوذ .. فياخذ كل حزب نصيبه من الدوائر ، ثم يفرض عليها من مرشحيـــه من لاتكون لهم موهبـــة سوى موهبة التبطل والفراغ ..! ويحرم على

ذئاب الحزب حرف (ا) ان تعتدى على ذئاب الحزب حرف (ج) بل لماذا نظلم الذئاب .. ؟

ان نظام الدوائر المغلقة يقضى على المنافسة الحرة فى الترشيح ويجعل احزابنا قريبة الشبه (بالفتوات) الذين يتقاسمون الشوارع والاحياء .. ! ولا بدلكى تنال حريتنا النيابية من الغاء هذه البدعة وتحريمها .

***

وليس بخاف عنا ، اثر العصبيات ، وقوائم الترشيح التى تصدر عن الاحزاب ، فى تسيير المعركة الانتخابية فى طريق بعيدة جدا عن الحرية والديموقراطية .

ولقد أهدرت من وقتى كثيرا لكى اتمكن من مراجعة بعض قوائم الترشيح الحزبى التى صدرت فى بلادنا .. وامامى الآن منها خليط متنافر ، لاحزاب عدة لن اذكر لك اسماء .. وحسبك أن تعلم أن تسعين فى المائة من الذين تحمل القوائم اسماءهم ليسوا اكثر من حزم كبيرة من البنكنوت والجهل والنفاق .. !

لقد آمنت بأن الاحزاب لا تحترم الشعب ابدا مادامت تختار له هذا الاختيار ..!

ان الحزب - فيما يبدو - لا يريد نائبا يشرفه بعقله ومواهبه ولكنه يريد - بوليصة تأمين - تؤمن خزينته من الاعواز ونفوذه من الخذلان .

وهكذا تبيع الاحزاب - الناخبين الى مرشحيها ..ثم يعود المرشحون . . ليبيعوا الناخبين ومصالحهم الى الاحزاب ولسنا ننظر الى خطر قوائم الاحزاب من هذه الزاوية وحدها - بل ومن الزاوية الاخرى حيث تستعمل الاحزاب نفوذها - غالبا - فتعمل على انجاح عملائها الذين فرضتهم على الشعب .. ومن زاوية ثالثة - حيث يتسم النظام النيابى بما قد يصلح وصفه بالخسة والدناءة.. اذ لا يسجل اسم مرشح فى

قائمة الحزب الا اذا نقد الحزب ثمن هذا الترشيح ـ هذه جريمة بشعة ..

فنحن نعلم ان المرشح لا يدفع الفا من الجنيهات مثلا الا ليضمن بها الفوز والانتصار .. والحزب يعده ذلك ويمنيه ويعمل جاهدا لاجله . ويقبض منه الثمن على هذا الاعتبار ..

بماذا تسمى هـذه العملية المتبجحة الرخيصة ؟

اهى سمسرة ؟ اهى غش وتدليس .. اهى تجارة رقيق ، يباع فيها الناخبون للمرشحين ؟

نعـم ـ هى كل ذلك . . والغرم دائما على الشعب الاسيف فالمرشح الذى يرشو حزبه بالف جنيه ، وينفق فى المعركة مثلها . يعود فيتقـاضى مادفعه اضعافا مضاعفـة . . ومن اين ..؟ من الشعب وعلى حساب مصالحه . فهو اذا نجح فى الانتخاب يصير رجلا ذا نفـوذ .. وهذا النفوذ لا يتحرك لقضاء حاجـة الا بثمن .. لا يسمـونه طبعا رشوة ، ولا سمسرة . انه فقط (مصاريف) الانتقال . وثمن القهوة ، أو ثمن البنزين .. !

وللذين يوضعـون فى قوائم الترشيح اثمان متفـاوتة ، تختلف باختـلاف الدائرة ،والحزب هـل الدائرة مقفلة ام مفتوحة ؟ لكل من الاثنتين ثمن !وهل الحزب ضالع مع الحكومة التى ستجرى الانتخابات أم غير ضالع ؟ لكل من التقديرين ثمن

وفى احزابنـا تقرع أجراس المزايدة .. والاوكازيون .. ففى هذا الحزب تساوى الراس . . خمسمائة ..

واذا كنت رجلا رقيق الحال فلا تحـزن .. ستجد احزابا أخرى رقيقـة الحال مثلك تثمن راسك بثمن بخس ـ مائة جنيه مثـلا .. وخمسين أيضا اذا هانت عليك راسـك كل هذا الهوان ..!

***

فاذا غادرنا القـوائم الى العصبيات ، ألفينا فسادا كبيرا فهناك ترى مثلا ــ رجلا مفرط الجسامة ، منتفـخ الاوداج .. حذار ان تطيـل اليه النظر ، وتحملق بعينيك الفضوليتين فى وجهـه الكريم .. انه السيد المـالك .. الذى يملك القـرية كلها . . وربما يملك معها القرى التى حولها .

حسب هذا السيد حين تخلو الدائرة ــ ان يعلن فى كلمـات متأففة متكلفة .. انه سيدخـل المعركة ، فلا تكون قـط معركة .. لن يجرؤ أحدهما تكن ثقافته على مواجهته فضلا عن مزاحمته

ولقـد حدث مرة ان اجترا رجل فاضل جدا ، ومثقف جدا ــ على ترشيح نفسه فى احـدى دوائر الصعيد أمام سيد كبير .. فضرب السيـد الارض بقدمه فانشقت ــ وخـرج منها أحد خدمه وعبـدانه .. فانسحب السيد من الترشيح ، واقسم بعزة آبائه انه لن يرشـح سوى هذا ، ولن ينجح سواه . . هذا الخـادم الاقرع الاعرج الذى يتبـول على نفسه ، ويظن ان السماء تمطر رذاذا . .!!

وقد كان .. واحرج الرجل المثقف الفاضـل ــ كان يمر بالدائرة فى بضعـة أنفار من عصبيته المتواضعة ..

وكان خادم السيد يسـير فى موكب يزرى بالمواكب ، وكرنفال تهتف الدنيا له . .!!

لابأس ان يرشـح الخدم وينتخبـوا ــ فهذه دعوتنا ورسالتنـا ــ أن يحرر العبيد ، وترتفع قيمة الانسان . .! ولكن الموقف هنا مختلف اختـلافا بعيـدا .... وهـو من الوضوح بحيث يعتبر تفسيره اتهاما لفطنة القارىء وذكائه ..

ان العصبيـات وقـوائم الترشـيح تطأ حرية الاقتراع بأظلافها وتبـددها تبديدا ... والدوائر المغلقة كذلك ــ ورابعة الاثافى ، ان كان للاثافى رابعة .. هى :

انها تسجن امكانيات الشعب فى قانون ...

قانون لايسمح لك بالترشيح الا اذا دفعت مائة وخمسين جنيها .. والا اذا كانت ضريبة الدخل التى تدفعها عن أملاكك وأطيانك مائة وخمسين جنيها كذلك اذا كنت ستدخل مجلس الشيوخ !

ان مقاييس الجدارة فى بلادنا لا تزال أبعد ماتكون عن المواهب الجديرة بالاحترام ..

انها تناط بمالك .. ووسامتك .. ونوع الدوحة الكريمة التى تنتسب اليها .. !

وقد يحسب المثرون أن مائة وخمسين جنيها للتامين شيء غير معجز .. وهم معذورون لان أكوام الذهب والورق التى أمامهم تخفى عنهم ملايين المواطنين الشرفاء .. الذين يعيشون من اليد للفم ، والذين قد يتقاضى أحدهم ثلاثين ، أو أربعين جنيها ولكنه يوم يموت لايجد أهله ثمن الكفن الذى يلف حطامه ، وعظامه ..!

ثم ان هذه القيود ، حتى مع القدرة قبيحة ، برجوازية ، مثبطة

قد يقال : ان هذا التأمين الذى يؤهلك للترشيح .. أو ذلك الشرط المادى الذى يشترط ملكية خاصة تؤهلك للشيوخ .. انما توخى بها القانون تنظيم الترشيح ، وحصره فى نطاق معتدل معقول .. حتى لايتقدم كل من هب ودب ..

وسنفترض ان هذا هو الباعث ؛ وانه باعث سليم . وعندئذ نسأل :

لماذا تناط المسألة اذن بالمال . . ؟

هنا تبرز الاغراض الرأسمالية الواقفة وراء كل تشريع ؛ والتفكير الاقطاعى الذى يمسك زمام المجتمع وزمام الحياة . .

فليكن المناط فى هذا المجال ـ العلم ... المؤهل العلمى ...
وحتى هذا نحن لانرضاه . ونرفض أن تقيد ارادة الترشيح باى قيد سوى قيد المواطنية . والصلاحية . .

ومن القيود البرجوازية ايضا السن . .

فانت ؛ مهما تكن مواهبك ونضجك ، لا تكون نائبا حتى تبلغ الثلاثين . . وقد تسقط فى أول محاولة لك ؛

وفى الثانية أيضا . . فلا تتمكن أن تخدم بلادك داخل البرلمان الا ابتداء من الاربعين مثلا . . !

السنا نمنح الشاب ابن العشرين ، او ابن الثالثة ، أو الخامسة والعشرين شهادات عليا ، تتيح له أن يكون محاميا ، أو طبيبا ، أو أستاذا ، أو قاضيا . . ؟!

فهل هذه الوظائف فى قيمتها والتزاماتها لاتهم الدولة ، فتعهد بها الى الصبيان . . ؟!

أى فارق بين وكيل للنيابة فى سن الخامسة والعشرين يجلس الى يمين القضاة .

وبين وكيل للامة ، فى مثل هذه السن ، يجلس تحت قبة البرلمان . . ؟

فلتفض هذه القيود . .

فلا يشترط التامين ـ ولا دفع قدر من الضرائب محدود . ولا سن الثلاثين ـ ولا الاربعين .

ان سن الرشد الذى اعتبرته الدولة ؛ وحددته باحدى وعشرين هى السن اللائقة للبرلمان بمجلسيه ـ النواب والشيوخ . نبدأ منها ، ونظل مادام فينا جلد وقدرة وحياة . .

***

وبعد ؛ فان مجالسنا النيابية حتى اليوم لم تمثل الامة ، بقدر

ماmثلت الحزب .. وكان هذا سببا مباشرا لكل مانعانيه من ويلات

والبرلمان الذى يأتى ثمرة هذه الاوضاع الفاسدة ـ لايحكم الحكومة بل تحكمه ..

ولايعزف عن تأيدها ابدا ـ عدا محاولات ناشئة بدأنا نحسها فى البرلمان القائم .. قد تتضاعف وتنمو ـ وقد توجه اليها صيحة زاجرة ، فترتد على ادبارها ، وتنكص على أعقابها ..

فى شهر نوفمبر عام ١٩٥٠ ـ وافق مجلس العموم البريطانى باكثرية (٢٣٥) صوتا ـ ضد (٢٢٩) صوتا .. على تعديل تقدم به حزب المحافظين بشأن بعض المسائل البرلمانية .. أى ان حزب المعارضة انتصر على الحكومة فى برلمان لها فيه أغلبية الاعضاء والآراء ..

فما دلالة هذه الظاهرة التى تتكرر كلما تكررت مقتضياتها ؟ انها تدل على ان النائب هناك ، يعرف نفسه جيدا . ويدرك انه يمثل الامة فى البرلمان ويمثل الحزب فى الامة .

أما عندنا ، فالنائب يمثل الامة فى الحزب ، ويمثل الحزب فى البرلمان .!

فارق كبير جدا ـ فمتى نبلغ مبلغ الرجال . ؟

ب ـ حرية الاقتراع .

الاقتراع ـ هو الادلاء برأى حر فى اختيار ممثل لمجموعة من الناس ـ يثمر تلك المنظمة النيابية التى نسميها « البرلمان »

والبرلمان ـ هو الهيئة المختارة الممثلة للامة ، والتى تثمر الحكومة الديموقراطية ، وتراقب سلوكها

والحكومة ـ هى الهيئة التى تقوم بحماية الدولة ، وتنفيذ قوانينها ، ورعاية مواطنيها ..

واذن ، فنحن حين نختار نوابنا ، أو شيوخنا ـ نختار فى

نفس اللحظـــة الحكومة التى ستحكمنا ، بل والقـوانين التى ستسيطر عـلى مجتمعنا ٠والسياسة الداخليـة والخارجية لبلادنا ...

فاذا كان الشعب اليوم بمعزل عن المؤثرات الحقيقية فى سياسة وطنه ـ لايسـهم فى تقرير مصيره ٠ ٠

واذا تكون كريهة يدعى لهاـ واذا يحاس الجيس يدعى جندب فمعنى هذا انه ـ كان الله معه ـ لاينتخب ، ولايختار ٠٠ وانما يساق سوقا عنيفا ، أحيانا ـ ورفيقا،أحيانا أخرى الى التصديق عـلى الذين تضعهم الظـروف السعيدة أمامه من مرشـحى الاحزاب ، ومرشحى السلطات، ومرشحى العصبيات ٠ !

هذه هى الحقيقة ٠٠

ان الحرية السياسية فى بلادنا كالاشتراكية تماما ... كلتاهما اكذوبة على شفاه الكبار .. وهم فى أحلام الصغار ٠٠ !

أصحيح أن الناخبين حين يسـاقون الى الصـناديق بالوسائل المعروفة يتمكنون من صوغ رايهم واملاء ارادتهم .. ؟

أصحيح ان هـذا المواطن المحطم المتهالك الذى يحمـل همـوم الثقلين ٠ ٠ ويزلزل سكينته صراخ عشرة بطـون جائعةهى بطون زوجه وأولاده٠

هذا المسـكين الذى برقت أمام حاجته وحـرمانه ورقة بنكنوت ، تتيح له امتـلاك خمسـين قرشا تجعل جحيمه فردوسا أعلى ٠٠ وتجعله فى لمح البصر من الاغنياء والموسرين ٠٠ ! على أن يعطى صوته لرجل لايعرف عنـه شيئا ؛ الا انه أحياه ٠٠ يوم كانت حيـاته منوطة بهذه الخمسين ٠٠

أتظنونه سيأبى ٠٠ويذهب ليختار مرشحا آخر لايرشـو ولا يعطى ٠٠؟

كلا – ولو كان مرشح الشماه .. !

ومواطن آخر .. ذلك الذى يقع فى منطقة نفوذ مالك كبير ، فيؤمر أمرا باختيار مالكه. أومن يهبه المالك رضاه ،فيمضى صبيحة الانتخاب أسيفا مكتئبا يحسد الآخرين الذين هم فى منح أصواتهم أحرار .. يبيعونها بالثمن الذى يشاءون ..

أتسمون هذا انتخابا .. ؟

أعرف فى مصر « تفتيشا » غليظا أنا أحد رعاياه .. وقريتى كلها تقع بين فكيه ، وفى دائرة نفوذه – ومعها بلاد وبلاد ..

فاذا جاءت انتخابات ؛ لم تجد المرشحين هناك يتزاحمون على أبواب الناخبين ، ولا يسعون اليهم .. بل يتسابقون الى سراى التفتيش ..

وهناك يجلس « البك » « المفتش » ينقر مكتبه الأنيق بأنملة سبابته ، فيهب سكان أربعة بلاد وقوفا ، وصفوفا .. ثم يومىء اليهم بطرفه ،فيخروا ساجدين .. !

فعندما تزور « البك» المفتش وتصلان معا الى اتفاق معلوم . ويعدك بأن الصفقة لك ، فقد ضمنت قطعا أصوات هذه البلاد جميعا .. وفى يوم الانتخاب « المشئوم » يساق القطيع المسام يثغو ثغاء هزيلا ..

من تنتخبوا .. ! التفتيش .!

من نائبكم . ؟ التفتيش . !

انظر .. انهم لن يختاروك فحسب ، بل وسيجعلونك تفتيشا . . . !

حدث هذا ، ولايزال يحدث. وفى يوم من تلك الايام التقى أستاذ فاضل باحدى المدارس الثانوية بمعاون التفتيش ،وهو واقف بين الناخبين ، يذكرهم ويحذرهم فأخذته عزة العلم ، وكرامة الانسان ، وثار فى عنف ...

وثار معاون التفتيش فى عنف أكثر ..

كان المدرس الفاضل يتحدث بقوة كرامته وحدها ..

وكان الثانى يتحـدث بقوة تفتيش باذخ عظيم ..

كان الاول يترافع عن حقوق الانسان ..

وكان الثانى يترافع عن حقوق الاطيان .. !

ما الكرامة .. أمام تفتيش، فى بلد كمصر .. ؟!

وماحقوق الانسان ، أمـــام الاطيان ، وآلهة الاطيـــان ، فى بلد كمصر ..؟!

انتخاب هذا .. أم انتهاب ؟

اختيار هذا .. أم اقهار ؟

كل شىء فى بلادنا مظلوم . حتى اللغة ـ حتى الكلمات ..!

ان الانتخابات ـ هنـــا ـ ملحمة عظمى ، تصرع فيها ارادة الشعب وحريته ..

وهذه الجماهير المتراكضـــة تسـخر فقط لحمل الاعضـــاء على الاكتاف حتى تبلغ بهم باب البرلمان .. وهناك يسمح لهـــا بالعودة .. فتعود الى نجوعها، وجوعها تقرع سن الخيبــــة ، وتزدرد آمالها اللاغبة وأمانيهـــا المتعبة .. !

ان حرية الاقتراع تعيش فى هذه الاصفاد .

ا ـ الاقطاعيات والتفاتيش . وقد ضربنا من واقعها مثلا .. نعتقد انه يتكرر فى كل ضيعة وتفتيش .

ب ـ الرغبـــة العـــــامة فى التزييف ..

وهى تبدأ من رجل البوليس ـ وتنتهى عند رئيس الحكومة .

اما رجل البوليس الذى يقترف هذا الوزر ، فيكون حافزه غالبا المجاملة ، أو المعاملة ..

ولسنا هنا نعيب هيئة البوليس، أو نتهمها ٠٠ فليسوا سواء ٠٠ اننا نشخص مرضا من أخطر أمراض مجتمعنا ، ولبعض رجال البوليس دور ملحوظ فى نشوئه، ومضاعفاته والبعض الآخر عف كريم

هذا الرجل البوليسى الذى يخون واجبه، ويسيىء استعمال سلطته ـ يستغل ضعف الجماهير وخوفها ، فيمسك أزمتها بواسطة شيوخ الخفراء فى القرى ، وشيوخ الحارات فى المدن ، ثم يوجهها حيث يريد .. انه يهدر امانة الواجب من أجل مجاملة أو معاملة ..

أما الحكومة التى تجرى الانتخاب ـ فاما ان تكون حزبية ،أو لاتكون ٠٠ فان كانت ،فان الحزبية تدفعها الى توكيد ذاتها ، ونشر لوائها ، فتزيف ـ وان كانت محايدة تنتابها الفلسفة المكيافيلية ٠٠ فالغاية تبرر الوسيلة ـ والغاية عندها، ايجاد برلمان صالح ٠ ٠ حسب فهمها الخاص لكلمة صالح ٠ ! والوسيلة هى اكراه الناخبين على اختيار الصالحين ٠ ٠٠ الصالحين فى نظرها أيضا وهى تقنع نفسها بأن الشعب جاهل، ولايحسن الاختيار ٠ وهذا حق ٠

ولكن ، ماالسبيل لان يتعلم ،ويحسن الاختيار ؟

الطريق هو الحرية ،والتجربة ٠ ٠

دعوه يتخير ، ويخطىء ـ ثم يتخير ، ويخطىء حتى يبزغ اليوم الذى تنمو فيه تجاربه ، وينضج وعيه ، فيختار فى توفيق وسداد

ماذا يصنع أحدنا حتى يصبح واعيا رشيدا .. ؟

انه يمر بأدوار الطفولة والمراهقة والشباب متعثرا بالخطايا والاخطاء ـ حتى اذا بلغ أشده ، ورشده ، واستوى ـ اتخذ من عثرات ماضيه ،وتجارب امسه درسا هاديا ، وعصمة واقية .

فليعلم رجل البوليس ـ ان الواجب ـ اسمى من المجاملة ،

وابقى من المعاملة .. وليتق الله فى امته التى قطعت فى ممارسة الحياة النيابية سبعة وعشرين عاما ... ثم كانها تبدا اليوم .. بل كانها لم تبدا بعد .. !

وليعلم الحاكمون ان الخطأ وسيلة الصواب .. ولابد ان نخطىء اليوم ، لنصيب غدا . وان الحاكم الذى يزيف ارادة الامة انما يقف نموها ، ويلاشى شخصيتها .

ج - رشو الناخبين ...

وهذه الرشا التى تقدم للناخبين جهارا علنا تضرب حرية الاقتراع فى الصميم ..

وقد تسال : اليس الناخب الذى يبيع ثقته بدراهم معدودة يصنع ذلك مختارا ، ويصوت فى حرية .. ؟

والجواب طبعا - لا - لان الاكراه ليس فقط للقوة ، بل هو ايضا للضرورة ... وهذا الذى استكرهته ضروراته على بيع صوته - مكره لا مختار ... ففضوا عن عنقه اغلال ضروراته ، وحاجاته .. والى ان تفعلوا ، ولن تفعلوا ، فيجب ان تحرم الرشا فى الانتخابات تحريما زاجرا ... وتشرع عقوبة مؤدبة لا للآخذ - بل للمعطى - فالمرشح الذى يثبت عليه انه رشا ناخبيه يحرم من حق الترشيح ثلاث دورات متتاليات من تاريخ الجريمة لعله يتذكر او يخشى ، فاذا عاد - حرم هذا الحق الى الابد .

من كان منكم لم ير .. فقد راى آخرون ، مرشحا غير محترم .. كان سيصير نائبا محترما .. ! يقف امام لجنة الاقتراع باحد اقسام البوليس ، ويشطر الجنيه شطرين ، ثم يعطى للمقترع نصيبه ، ويرسل معه رسولا ، يتاكد من انتخابه ، فاذا عاد تسلم نصف الجنيه الثانى ... !

يحدث هذا - علنا ، وامام قسم البوليس وبعض رجاله ..

ان نصف الجنيه كان فى المعارك الانتخابية الاخيرة ، خطيبها

الساحر ، وفارسها المغوار ، وسيظل كذلك حتى نقضي عليه، أو يقضي علينا .. !

وبعد ، فان كثيرين يحلو لهم ان يعزو فشلنا القومي الى ضعف الرقابة البرلمانية على الحكومة .. ولكن اية رقابة هذه التى تتهمها بالضعف ، اذا كان البرلمان نفسه لم يوجد بعد .. ؟

ان الحياة البرلمانية الحرة الطليقة المنتجة ـ لا تزال مقرنة بالسلاسل التى ذكرناها ، والتى نعيدها لك كى لا تنسى ..

ا ـ القيود البرجوازية ..

ب ـ نفوذ التفاتيش ، وآلهة الاقطاع ...

ج ـ اغراء الناخبين بالرشوة

د ـ الرغبة التامة فى التزييف

ه ـ ضعف الايمان بصلاحية الشعب للاختيار

و ـ الدوائر المغلقة ...

ز ـ قوائم الترشيح ، وسيطرة العصبيات ..

وحدث نتيجة لهذا ، ان نظام « حكم الاسر » الذى كان قائما فى العصر البدائى وفى الامبراطورية الرومانية القديمة .. صار هو الحكم القائم فى مصر .. !

فالذين يسيرون الانتخابات بأموالهم ونفوذهم هم حملة « السندات » وابناء الذوات .. والبرلمانات عندنا لا تمثل الشعب كما تمثل الاسر الكبيرة ، والبيوتات الشريفة .. واذا كان البرلمان هو الذى يثمر الحكومة استطعنا ان نعرف نوع الحكومات التى تتعاقب علينا ..

لقد طال بنا الجدل، والخلاف حول لون الحكم فى بلادنا .. اهو دايمقراطى .. ؟ ام هو اتقراطى؟

ولكن بعد استعراض الوضع النيابى عندنا على هذه الصورة

لا نشك فى انه لا ديمقراطى ـ ولا اتقراطى ...

انه شىء آخر استمرناه من القدم ـ هو بالأتقراطية اشبه ـ واسمه يا ابناء وطنى ـ حكم الأسر ...

ولقد كان الركود ، والاهمال اثرا محتوما لكل انتخابات تجرى على النمط الكريه الذى شاهدناه حيث تثمر ندوات أعيان ..

خطر لى ان اقف على مدى اهتمام الاعضاء بحضور جلسات البرلمان .. ومددت يدى نحو المضابط اسألها واستفتيها .. فوجدت حشدا كبيرا من النظائر والاشباه لهذا الاحصاء الذى ستقراه الآن .. وانا انقله اليك من مجموعة مضابط دور الانعقاد العادى الواحد والعشرين فانظر :

رقم الجلسة	نسبة الغياب
الرابعة	٥٤ شيخا
الخامسة	٣٠ شيخا
السادسة	٥٠ شيخا
السابعة	٤٠ شيخا

جلسات تعرض فيها سياسة الامة ، ومشروعاتها .. ثم يغيب عنها خمسون عضوا ـ أو اربعون

كيف يحدث هذا ؟ وهل كانت مشاغل حضراتهم على ميعاد حتى يتغيبوا جميعا .. ؟

لعل حضرات الاعضاء حريصون على وقتهم ، فهم لا يضيعونها فى حضور جلسات لا جدوى لها ...

وتعقبت المضابط ، وواصلت البحث خلالها فوجدت ان الجلسات التى تنظر فيها المشروعات الجليلة الخطيرة المحرجة تظفر بنسبة كبرى من الغياب فى احايين كثيرة .. وهنا يكون التغيب طبقا لخطة مرسومة لوقف المشروع وتعويقه حين

يصير العدد غير قانونى . او فرارا من التورط فى مخالفة الحكومة ومعارضتها .. !

واللجان البرلمانية هناك غليظة الاحساس وبطيئته بحاجة الشعب وآلامه .. ولانكاد نلتمس دليلا لذلك .. حتى نفر من كثرة الأدلة وازدحامها .. وحسبنا مثلا مشروع قانون تقدم به الشيخ المحترم – محمد خطاب بك بشأن استعمار الاراضى المستصلحة ..

ان قصة هذا المشروع . . قصة كثير من المشروعات الصريعة التى اتخذت من سراى البرلمان ضريحا ..!

وفى هذه الخطوات تثوى قصته ، وقصتها ...

١) قدم المشروع فى ١٨ اكتوبر سنة ١٩٤٥

٢) عرض على خمس لجان – الاقتراحات، المالية، الشئون، المالية مرة اخرى، العدل رقم ٢

٣) اختصر من ٤٨ مادة الى عشرين مادة

٤) لا يزال المشروع تائها حيران ، منذ عام ١٩٤٥ الى عام سنة ١٩٥١ .. ونحن نخط هذه السطور ، وقد حددت له جلسة يقترع عليه فيها من مجلس الشيوخ ولكن احساسنا يرفض التفاؤل .. ونتوقع أن يرتطم المشروع فى صخرة .. أو يسقط فى حفرة .. لماذا .؟

لنفس الاسباب التى جعلته يهمل ، ويدس فى الاضابير كل هذه الاعوام .!

وتتلخص فى ان المشروع شعبى يهدف الى تحريم بيع الاراضى الحكومية التى تستصلح ، للمالكين .. وبيعها فقط بوسائل ممكنة للمعدمين الذين لايملكون شيئا ..!

لقد حدث أن كانت الحكومة تستصلح الارض وتعدها للزراعة – فيقفز بعض الكبراء والباشوات ويشتريها بأبخس الاثمان .. !!

فيصادف مثلا ـ ان يشترى قارون كبير ضيعة واسعة من هذه الارض بسعر الفدان الواحد عشرة جنيهات ، ليقتنيها ، أو ليبيعها بعد حين يسير بسعر الفدان الواحد سبعمائة جنيه .!

فلو ان الناخب وجد الفرصة الواعية الحرة التى يختار فيها نائبه ، او شيخه ، فاختارهم من الذين ينوءون بمثل اعبائه، وبلوائه .. لما مكث مثل هذا المشروع اكثر من اسبوع .

واذا كنا نبغض الظروف التى تجعل من الناخب مطية تسخر وتذلل .. فلا يفوتنا ان نقول للناخب نفسه: انت ايضا مسئول

لماذا لا يستعمل المثقفون حقهم فينتخبوا ..؟

ان الاحصاء الرسمى ينبىء بأن الذين ينتخبون من عام ١٩٢٤ ـ الى اليوم هم الاميون من عمال وفلاحين ـ واذا ظللنا نحن الذين اخذنا من الثقافة بحظ. متخلين عن التزاماتنا قبل الحياة النيابية ، فهذه احسن وسيلة ننتحر بها ، وتنتحر بها البلاد

واخيرا ـ الحرية .. لا التسامح

نكتفى بهذا القدر من الحديث عن حريتنا السياسية ، وعن الحريات جميعا .. حرية النقد، والفكر ، والمعارضة ..

وبقى شىء يجب أن يختم به هذا الفصل ..

لقد لاحظ القارىء اننا لا نخص بحديثنا فى هذا الكتاب الشعب وحده ، ولا الحكومة وحدها. بل هما معا .. وهذا ثمرة اعتقادنا بانه فى الامكان ان يقوم بين الحكومة والشعب تكافل صادق يحقق للجماهير كل اهدافها .. ولكن الحاكمين عندنا هم الذين لا يريدون .. وحين يتفضلون بمنح الشعب شيئا من حريته، فباسم التسامح والعطف .. لا الواجب والحق..

ونريد الآن تحديد مطلبنا بالحرية، لا التسامح. فالتسامح شىء يعتمد على الرغبة ، والتفضل .. اما الحرية فحق محتوم..

والتسامح يثمر هبة يمكن استردادها .

والحرية تثمر حقوقا مكسوبة خالدة ..

والحاكم الذى يمكننى من حق باسم التسامح يستطيع ان يسلبنى نفس الحق باسم التعصب

ويوضح الفارق بين الحرية والتسامح ، رجلان كافحا من اجل الحرية كفاحا باسلا .. هما توماس بين ، وميرابو .. يقول « بين » :

«ليس التسامح عكس التعصب، بل هو تلفيق له ـ وكلاهما تحكم واستبداد ، فالتسامح يزعم لنفسه حق منح الحرية، والتعصب يزعم لنفسه حق منع الحرية(١)»

ويقول ميرابوا : ـ

« ان الحرية تبلغ من القداسة حدا تبدو فيه كلمة التسامح كانها نوع من الاستبداد لان السلطة التى يتراءى لها ان تسامح ، قد يتراءى لها ان تتعصب . »

هذا كلام جليل ، ويجب ان نؤمن اعمق الايمان أننا ـ نحن الشعب ـ لن ننال الحرية ، بل ولن نكون لها اهلا . حتى تكون الحرية ، لا التسامح ـ المحور الذى تدور حوله حياتنا ، وتناط به وجهتنا .

ان الحاكم الذى يتسامح مع امته مناله دعى .. وهو لا يوجد الا فى الامم التى تسودها فلسفة البر والاحسان والخيرات .. هنالك يتكىء على اريكته ، وينفخ اوداجه ، ويعلن انه يمنح رعاياه وعبدانه ما يجود به من حرية وحق ..!

أما الحاكم الرشيد ، فانه يجل الحرية عن ان يبذلها كما تبذل المنح والصدقات .

---

(١) كتاب حرية الفكر ـ ج ـ بيورى

ان « توماس بين» يصعد بالحرية الى قمة الاجلال حين يضرب للتسامح هذا المثل ..

« لو ان احدا قدم الى برلمان اقتراحا بمشروع قانون يسمح لله أن يتقبل عبادة اليهود والاتراك أو مشروع قانون يمنع الله من قبول عبادة اليهود والاتراك لكان ذلك تجديفا فى حق الله وكفرا به .. »

فهؤلاء الذين اتخذوا الحرية لهوا ولعبا - والذين يتجشأون كل يوم قانونا يسمح للشعب بنصيب ضئيل من حريته وقانون يحرم عليه منها كثير الايقدرون الحرية قدرها ، وهم يجدفون فى حقها ، وفى حق الشعب تجديفا وقحا عنيفا ..

ومن أسف ان الشعب هو الذى يحرضهم على ذلك ..! فافراده فى تعاملهم المادى والادبى يقيمون هذا التعامل على اساس من التسامح لا الواجب ويبدو ذلك واضحا فى مسائل العقائد والتقاليد والفكر .. فاقصى مانسمح به لانفسنا فيما يمس هذه - هو التسامح ، والتسامح كثير ..!

ومنشأ هذا التزمت أننا ضعفاء ، فاقدو الثقة بأنفسنا ، واذا كان فاقد الشيء لايعطيه فقد عجزنا عن الثقة بما فى الحقائق من قوة ذاتية تكفل لها الغلبة والبقاء . ومن ثم جعلنا وسيلة حمايتها الاملاء ، لا الاقناع .. والتسليم لا الاقتناع .. وحرمنا الفكر حقه فى الحرية ، ومنحناه قليلا من التسامح . وبسبب هذا الغباء نضبت الحياة من تقاليدنا وأفكارنا .

يا ليتنا نصغى لهذا النبأ ونعيه ...

فقد ذهب الى الرسول عليه السلام نفر من أصحابه ، وقد استطيرت ألبابهم روعا ومخافة وقالوا له :

- يا رسول الله . ان أحدنا ليجد فى نفسه ما لأن يحترق حتى يصير حممة ، أيسر عليه من ان يتلفظ به .. مشيرين بهذا

الى ما كانوا يجدونه فى انفسهم من شك عاصف فى الله ، كما وضحت ذلك رواية أخرى للحديث .

فأجابهم الرسول :

ـ الحمد لله . . ! هل وجدتموه ؟

هذا صريح الايمان . !

هنـــا رسول كريم يدرب الناس على الحرية ، لا التسامح

لقـد كان قادرا على ان يقول لهم : لا بأس ، عفـا الله عنكم . . أو سيغفـر الله لكم . وهذا هو التسامح . .

ولكنه كان أكثر اجلالا للحرية ـ حتى حرية الشك ، والاسترابة فاعترف بها ، وجعلهـا محض المعرفة ، وصريح الايمان ـ وكان بها حفيا . . !

ذلك انه يعلم ان الحرية حق للناس ، وان تمتعهم بهذا الحق كاملا غير منقوص ، هو أفضـل الوسـائل لترقية انسانيتهم ، وتعلية نزعاتهم ، وهدايتهم الى الحق ، وتثبيتهم على الهدى ـ ويعلم ان احتـرام حرية البشر ينعش فيهـم كل قوى الفضيلة والخير والجمـال ، فلم يتسامح معها ـ بل سلم بها ، وزكاها .

***

ان اليوم الذى يرفض فيـــه الشعب ان يساوم على حريتـه أو يتنـاولها من أكف التسامح ، والاحسان ـ لهو اليوم الذى يبلغ فيه رشـــده ويقف على قدم السوائيـة الفاضلة مع الشعوب الحرة ، والعالـم المتحضر الكريم

***

وقبل أن ننهى هذا الدفاع عن الحرية نقـول : انه اذا كان فى تصويرنا للكبت الذى نعانيـــه مبالغة ـ ، فهى مبالغة طفيفة . واذا كان فيه قصور ، فهو قصور كبير . . !

ونحن على الحالين لاننسى ابداتلك الجهـود النبيلة التى بذلت منـذ ثورة «١٩١٩» فى سبيل الحـرية ، واذا كان الاستعمار الرجيم قـد ثبط عزم هذه الجهـود وضللها ، فلا باس ، ولنبدأ من جديد .

***

ولقـد تركنا الحديث عن نوع الحرية المرتبطـة بغريزة الاقتناء الى الفصـل الثانى من كتابنا ـ من هنا نبدأ ـ فهناك يستبين لنـا اثمارها وارتباطهـا الوثيق بحرية العمل وحرية الضمير ..

ان غريزة الاقتنـاء يناط بهاتحرير البشر من اغلال الضرورات

وليس نشـاطها كما ذكرنا فى حديث الفصـل الاول خاصا بطبقة من الناس دون الآخرين . كمـا انه لا يتحتم احتواش التفاليش والضياع ..

ان اقتنـاء وسائل الحياة الكريمة هو الضرورة الكبرى التى تهتف بها اليوم حضارة الانسان

***

وبعد ، هـل نحن جادون فى نشدان الحرية .؟

اذن ، فلنوجد الشعب الذى يستطيع ان يتقبل اماناتها ..

الشعب الذى تثق به الحرية .. ويثق بها .

الشخصية .. كي تعمل

« ان كل شيء معد ..
« اذا كانت شخصيتنا كذلك »

شكسبير

القيصر الاخشيدى ..

هل ذهبت يوما لعيادة صديق لك فى مصحة الامراض العقلية ؟ ام ان اصدقاءك جميعهم من العقلاء ..؟

لقد زرتها يوما لزيارة صديق.. واذ كنت سائرا فى وصيد المستشفى ، سمعت صيحة صاخبة تتعقبنى من وراء قائلة:

ـ هو .. خلفا دور ..!

فلما التفت وجدت عملاقا ضخما طوله شهر .. وعرضه عشر . . فسألنى :

ـ هل تعرفنى ؟

فاجبته : معذرة ، فانى لم اشرف بمعرفتك من قبل

قال : انا القيصر الاخشيدى !

ـ مرحبا . سيدى القيصر .

ثم سالنى : هل تحب ان اوليك امارة .؟

قلت : هذا شرف عظيم ياسيدى القيصر .

فضحك .. وقال : (خلاص) ساعزل احد ولاتى ، واضعك مكانه ـ ثم مد الى ذراعين مجدولتين ..

وقال : تعال ـ تقدم ..!

قلت : الى اين ؟

قال : الى هناك ـ الى الولاية انها فى المريخ وساحملك بين يدى وتغمض عينيك ، واقذف بك فى الهواء ، فيحملك اليها .!

قلت له : اذن ، فاعطنى فرصة للتفكير ..!

وطفق يحرك سبابته فى الفراغ ـ كأنه يدير قرص « تليفون » ـ ثم وضع قبضته على اذنه ، وفمه .. وشرع

بهمهم ، ويصـــدر تعليمـــاته « باللاسلكى » الى المريخ .. تاليا مرسوم العزل ، ومرسوم التعيين ..!

***

ما أسعد هذا القيصر الـذى استراح مما يتعب العقلاء ..!

وما اشبه الجماهير به حين تركب ثبج الغفـــلة والغـرور والانخداع ، فتخال نفسها كهذا القيصر الاخشــيدى . تـولى وتعزل ، وتضع وترفع ، وتعز من تشاء وتذل من تشاء ..!

ومـا اظن المســـتعمرين ، والمســتبدين يفرحـون بشيء فرحهم للشعوب حين تصـــاب بهذه الآفة المسكنة ، والاخشيدية الواهمة ..

وهم حين يحســون بواكيرها فى شعب ـ يعملون دائبين على شيوعها وانمائها ـ لأنها تشفى قلوب الجماهير مما تجـد ... وتسرب غيظها فى مسارب الاحلام .. وتحول طاقتها الهادفة الى ضجة فارغة . وتحتبس طموحها المتسلق الوثاب فى قمقم هـذه الاخشيدية السعيدة بجنونها ، وغرورها ..

***

الا ان شعبنا الضرير يعيش فى الوهم .. ويقيم داخل اهابه ـ قيصر اخشيدى ـ من طراز قيصر المستشفى ..

ذلك الذى لم يعلم انه قيصر زائف حتى اشرت الى السلاسل التى يجرها فى قدميه ، والتى صفدوه بها لتثبطه عن الهرب ، وتصده عن الافتراس .. وقلت له : ـ لو كنت قيصرا حقـا ، ما سلكوك فى هذه الاصفاد ..! والقى على اصفاده نظرة واجمة عميقة . ثم ضرب صدره بيده وقال : ـ

ـ آه .. لابد أنهم عزلونى .. أنا اذن قيصر مخلوع ..!

قلت له ، وأنا أودعه : ـ نعم .. انت قيصر مخلوع .

***

هنا مشابه كثيرة بين قيصرناهذا ، وبين الجماهير .. ولكن الشبه الوحيدالذى يهمناوجوده ـ هو ذلك الوعى الذى يرفع عن ابصارنا الغشاوة ، لنعلم اننا شعب مخلوع ومعزول ـ

والآن .. فلنحرك اقدامنا ، فان احسسنا بها ثقلا ، وسمعنا قعقعة الحديد .. وقهقهة القيود .. فلنعلم انها الاغلال .

ان بداية البدايات فى نهضة الامة أن تعرف نفسها ، وتتبين فى دقة وضعها ومكانها .. ولن تستطيع حتى تتخلى عن اوهامها وتواجه حقيقتها فى مرآة مجلوة لا تخفى من ملامحها شيئا ..

ثم تبدأ من جديد فى تكوين شخصية لها ، عاقلة ، عاملة نامية . وتبعة ذلك كله علينا وحدنا .. لن يصنعنا احد سوانا ، فلنصنع لانفسنا ـ نحن الشعب ـ شخصية قوامها القوى الاجتماعية بعد تصحيحها وتنقيتها .

***

هذا هو الطريق .

وهناك حقيقة جديرة بالتذكر وهى ان الطريق الوحيد لان ننهض .. هو ان نوجد ..

ووجود الشعب ـ معناه وجود قواه ، أو بتعبير آخر ـ وجود قواته الاجتماعية على حال تمكنها من إمداده بالطاقة والحياة

لقد تحدثنا عن الحرية . ولما كانت الحرية تضن بنفسها على الذين لا يستحقونها ، فقد صار لزاما علينا ان نبحث عن المقومات التى تجعلنا لها اهلا .. والتى تجعل لنا قبل ذلك شخصية سوية ناضجة تقاوم المطامع ، وتملأ فراغها فى الحياة ـ وهذه المقومات والعناصر هى ـ القوى الاجتماعية التى لها من الحتمية والفائدة مايجعلها جديرة بالعناية والعمل من أجل حيازتها .

ينقل الاستاذ العقاد فى كتابه « فلاسفة الحكم » عن الفيلسوف

« جايتا تومسكا » هذه العبارة الجليلة ..

« ان الخير لا يتحقق فى الطبقة الحاكمة الا بفضل القوى الاجتماعية ، والحصانة الشرعية

« والحصانة الشرعية هى الوازع المستمد من قدرة القوى الاجتماعية على مقاومة مطامع الحاكم الشخصية .. »

***

اذن فالقوات الاجتماعية هى السيف المعنوى الذى يلاقى الفساد ويتحداه ..

واذا كانت قوانا هذه التى سنتحدث عنها ـ تبدو اليوم سيفا متقاصرا ، فلنعمل بوصية الاسبرطى الذى قلد ابنه سيفا، فهزه الغلام فى قبضته ، وقال :

ـ يا ابت . هذا السيف قصير

فأجابه أبوه : تقدم به خطوة واحدة فسيصير طويلا ..! فلنتقدم بقوانا خطوة ، مؤمنين بان الظروف كائنة ما كانت لا تستطيع ان تعمل ضدنا على صورة شاملة ، ودائمة ـ الا اذا اردنا نحن ذلك .. وان ما بنامن ضعف ليس علاجه مضاعفة اسبابه ، وارباء مقوماته .. والضمور الماثل فى قواتنا الاجتماعية يتطلب منا ان ننقل اليها من دمائنا لتنتعش .. لان نمتص ما بقى فيها من دماء .

لقد سئل رسام شهير : كيف تخرج الوان لوحاتك زاهية الى هذا الحد ..؟

فأجاب : انى اخلطها بدمى .!

فلنخلط قوانا بدمائنا ـ اى لنؤازرها بكل ما نستطيعه من اخلاص وانصاف وانماء . ولنذكر مرة اخرى ـ ان حقوقنا ، كشعب ـ وان الامم فى نضالها الموصول، ومسراها الكادح نحو الحرية تكتسب بالخبرة والتجربة مزية الاقتناع بنفسها ، واحترام

العناصر المكونة لشخصيتها .. فاذا فقدنا هــذه المزية اليوم ، وسخرنا قوانا الاجتماعية لغيرصالحنا ، فقــد تودع منا .. وليرحمنا الله ..!

والقوى الاجتماعيــة كثيرة ـ ولكننا نركز الحديث عن اهمها، واكثرها اتصـــالا بقضـيتنا ،وفاعلية فى حاضرنا ومستقبلنا ـ وهى :

ا ـ القانون ..

ب ـ الصحافة ..

ج ـ الاحزاب ..

د ـ القيم والمعايير

ولنتحدث عنها واحدة واحدة

ا ـ القانون ..

القصد .. والشمول

اول القوى الاجتماعيــة التى تتكون منها شخصية الشــعب قانونه .

والقانون حين تكون النزاهــة والقصد لحمته وسداه ـ فانه يصير مثابة الامة وامنها ،وعامل رقى وتقدم فيها. اما اذا تجانف لهوى وعدوان ، فانه يكون آفة الامة وكارثتها الماحقة ، ويحـق عليه ذلك المثل الاسبانى الطريف

ـ اذاهب انت الى القــانون لتشكو اليه سرقة شاتك ..؟

ـ حسن .. ستعود ، وقـد سرقت بقرتك ايضا ..!

والقانون لكى تتم نعمته على الناس يجب ـ فى نظرنا ـ ان يلتزم امرين ـ القصد ،والشمول

اما القصد ـ فيقتضـينا الانسرف فى وضع القوانين ، لانها

غالبا ما تكون على حساب الحرية بل وعلى حساب النظام الذى توضع لحمايته .

وانا لنرجو ان يجد حكامنا جميعا ـ الشجاعة التى تحفزهم الى الاعتراف بانهم اسرفوا على انفسهم ، وعلينا فى اصدار القوانين ، ولعلهم قد فاتهم ان قليلا من القوانين نطيقه ـ خير من كثير نتبرم به ، ونحقد عليه .. وفاتهم ايضا ان القانون ليس الوسيلة الوحيدة لتربية الشعوب ـ بل لعله آخر الوسائل جميعا .

ولنضرب لذلك مثلا :

منذ شهرين تقريبا قامت بمصر حركة اضرابات واسعة. حتى لقد أضرب الازهر اضرابا اجماعيا اشترك فيه شيخ الازهر وجماعة كبار العلماء .. فرات الحكومة أن تعالج هذه الحركات بقانون يزجرها ، ويفتح ابواب السجون للمضربين، والمحرضين

وفى فبراير الماضى سنة ١٩٥١ ـ اضرب سبعون الف عامل فى جنوب بلجيكا ـ كما نشرت الاهرام فى عددها الصادر بتاريخ ١٥ ـ ٢ ـ وطالبوا برفع اجورهم ٥ ٪ ، فلم تستصدر الحكومة قانونا مماثلا للقانون الذى اصدرناه ـ بل اجابت مطالب العمال .. !

وفى نفس ذلك الحين ، اوقبله بقليل . اضرب عمال السكك الحديدية بأمريكا ...اضربوا وجيشهم المحارب فى كوريا يتدحرج فى مجاهلها ،ويقاتل ، ويتلقى الضربات الشداد مما يجعل الاضراب حالئذ جريمة وخيانة ـ فماذا فعل ترومان.؟

تجيبنا جريدتا الاهرام والمصرى بتاريخ ١٩٥١/٢/٩ « ان المضربين حنثوا فى كلمتهم مع الحكومة ، ونقضوا اتفاقية عدم الاضراب . كما لو كانوا حفنة من الروس » ..!

هذه هى النكتة المرحة التى استقبل بها « ترومان »الاضراب والمضربين، ونقلتها عنه صحافتنا

وماذا فعل ايضا ..؟

عندما ازداد الاضراب اتساعا وخطرا ، امر بفصل الذين لا يعودون الى اعمالهم – ولكنه قبل ذلك أمر برفع أجورهم فورا .. بل وجعل الزيادة الجديدة رجعية من عام ١٩٤٨ !

افلم يكن « ترومان » قادرا على تحريم الاضراب بقانون ؟

نعم – وكذلكم كانت بلجيكا قادرة .. ولكن مثل هذا القانون يعتبر تحديا لكرامة الشعب ، واهدارا لحريته ، وهو امر لا يقدر عليه « ترومان » ولو أوتى بسطة فى الحكم .. وبسطة فى النفوذ ..!

نحن لا نشجع الاضرابات .. وليس هناك فى عالم العقلاء من يشجعها – فهى تشل حركة الامة ، وتهدر من عمرها وقتا نفيسا بلا انتاج ولا عمل ..

ولكننا نرفض أيضا ، أن نعامل معاملة العبيد الذين تشهر دائما فى وجوههم السياط ..!

وثقوا أن هذا السرف فى التقنين يفقد القوانين قيمتها ووقارها ، ويؤلب عليها الناس الذين ينظرون اليها آنئذ نظرة فيها مقت وعداوة

ونحن حريصون على كرامة القانون وسيادته حين ندعو الى القصد والاعتدال فيه حتى نتيح للمجتمع فرصة حبه واحترامه – فالاسراف فيها فوق انه يصورنا امام العالم امة تعيث فيها الفوضى والهمجية ، يبذر فى النفوس بغض القوانين برمتها ، ويحفز المجتمع الى التحايل عليها – واذا تكونت فينا عادة التحايل ، فقد فقدنا كل أمل فى امتثال القانون ولو كان عادلا وفاضلا ..

او يظن الحاكمون أن القوانين على كل شىء قادرة ..؟

فلنأخذ العبرة من قانون الاضراب الاخير .. لقد توعد بالعقوبة المحرضين فهل اختفى التحريض ..؟

كلا ـ فقــد نشرت جريدة الاهرام بعد صدوره بيومين او ثلاثة، وبخط بارز مثير «سبعون الف عامل يضربون» وساقت اخبار الاضراب البلجيكي باسلوب فيه اغراء كثير ..

وكتبت كذلك «اخبار اليوم» على اثر صدور القانون بعنوان «الازهر يواجه مشكلة جديدة»!

وصاغت الخبر صياغة محرضة مشعلة دون ان يستطيع القانون معها حسابا ـ فقالت :

«.. وسيترتب على ذلك حرمان ١٢٠٠ متخصص من الامل فى الترقى الى الكليات .. وقد علمنا ان هذا الموضوع سيثير ازمة جديدة فى الازهر»!!

ان هذه الكلمات مثيرة للازهريين لاشك ومع هذا فقد قيلت على سمع القانون وبصره ثم لم يملك ازاءها شيئا .

ولقد كانت صحافة الوفد تلعب نفس اللعبة وهو فى المعارضة. فعندما وقف صدقى باشا بمجلس الشيوخ فى ١١ مارس سنة ١٩٤٦ يدافع عن تصرفه فى الغاء جريدة «الوفد المصرى» قال : انها تدعو الى الثورة بطرق ملتوية وتلا منها هذه الفقرة:

«ان البلاد فى ثورة ، والثورة لن تخمد مادام فى الشعب المصرى دم يجرى ، او عرق ينبض .. ـ تنتهى اليوم المهلة التى طلبها صدقى باشا من وفد الطلبة حين قابلوه وطلبوا منه مطالبهم القومية .. ترى ما الذى اعده صدقى باشا وقد اجابه الطلبة الى رغبته .. لقد انتهت المدة .. فماذا فعل .. ؟!»

***

ان القانون فى بلاد الاحرار خادم عاقل .. وفى بلاد العبيد سيد مستبد .. وليس يكفى ان نزعم اننا احرار ، فللحرية سماتها ، وعلاماتها ..

ولقد قال حكيم : «ارونى قوانين امة من الامم، وانا ادلكم

على نصيبها من العظمـة ، او الانحطاط ..

وهذا حق .. حق جدا .. لان الدولة التى تصاب باسهال تشريعى تكون دولة غيرطبيعية، ودولة عاجزة .. وهى لاتلبث حتى تستمرىء هذه العادة الرديئة ، فتصنع كما صنع الحاكم بامر الله .. حين وضع القانون فى خدمة « الملوخية » يبيحها اول النهار ، ويحرمها آخره ..!

وكثيرا ما تجىء هذه القوانين مخالفة للدستور ، فى نصه وروحه .. وكثيرا ماتكون مبهمة لا ترديد لامس .. . فتفسرها السلطة التنفيذية تفسيرات مردية . . .

قال مثل هذا القول نواب محترمون فى جلسة ١٩٤٨/٤/٢١ – وكانت الحكومة تعرض مشروعا جديدا تعدل به نصوص القانون رقم ١١٧ لسنة ١٩٤٦، الخاصة بمعاقبة من يحبذ او يروج المذاهب التى ترمى الى تغيير مبادىء الدستور الاساسية ، او النظم الاساسية للهيئة الاجتماعية بالعنف ، اوالارهاب اوبايةوسيلة اخرى غيرمشروعة – وارادت الحكومة يومئذ ان تفسح دائرة هذه المادة باضافة المواد – ٩٨ ا ، ب ، ج ، د ، ه ، التى أضيفت فعلا ..

فوقف بعض النواب صارخين .. محذرين من عواقب هذا الافراط – ولا من يسمع او يعتبر .! ومع هذه الاضافات الزاجرة وجدنا النشاط الذى وضعت تلك المواد لمطاردته ينمو وينتشر .. فماذا صنع القانون المسرف على نفسه وعلى الناس .؟

والآن لنستمع الى كلمات هؤلاء النواب المحترمين (١)

***

حضرة النائب المحترم الاستاذ حنفى الشريف ، قال :

«انه يعارض مبدا هذا التشريع لانه لوكان فى مصر حزب شيوعى

---

(١) مضابط مجلس النواب جلسة ١٩٤٨/٤/٢١

يعمل علنـا ، لكان فى وسـع الحكومة ان تحكم الرقابه على اعضائه ، واعماله ، وصحفه.. ثم قال :

« ان قيام هذه القوانين قدادى الى قيام الخلايا السرية التى تعمل الحكومة جاهدة للقضاء عليها - وقال :

«انه يطالب الحكومة بان تدع حزبا شيوعيا ينشا فى مصر ، فان ذلك ابيح فى انجلترا وفرنسا وايطاليا .. وان هذه المذاهب تدرس فى الجامعة ، ويمتحن فيها الطلبـة ، وقد يكون من بينهم من اقتنع بها واعتنقها ، وان محاربة هذه المذاهب تجعل الجمهور يظن انها صالحة .. لكن الحرية لو تركت .. تنظم نفسها .. »

***

وقال النائب المحترم على بك راتب :

« انه يوافق الحكومة كل الموافقة فى ان تفرض ما تشاء من عقوبات على من يحاولون بالقوة او الارهاب تغيير اصول الحكم .. لكنه لا يوافقها مطلقا على الحد من حرية الذى يفكر ، او يكتب .. »

***

وقال النائب المحترم فكرى بك اباظه «باشا» :

«ان التشريع المعروض يخالف الدستور ، والمواثيق الدولية التى ارتبطت مصر بها - وانه يتعارض مع احكام المواد السابعة ، والرابعة عشرة ، والعشرين ، والسادسة والخمسين بعد المائة من الدستور .. »

ومضى يتساءل : ماذا يعنى المشروع المعروض بمحاولة سيطرة طبقة على اخرى .. وما هذه الطبقة ..

اهى الأرستقراطية .. ام الوسطى ، ام الشعبية ؟!.»

***

ولكى أدلل على مرونة القانون وتميعه ـ وهى مرونة ضد المتهم غالبا ، خاصة فيما يتعلق بالحرية، اذكر تجربة شخصية لى

فقد اتهمت فى كتاب سابق بتهم عدة ...

وكان منها الدعوة للانتقاض على الدستور ، وتغيير المبادىء الاساسية للهيئة الاجتماعية

وكان تكييف الاتهام فى التحقيق على هذا النحو ..

اننى ، وان لم اكن قد دعوت الى استعمال القوة .. الا اننى روجت لمذهب ، قام فى بلاد اخرى بالقوة .. !

ياسبحان الله .. !

اذن ، فالترويج للاسلام جريمة لانه قام فى بلاد كثيرة بالقوة ..

والترويج للاستقلال جريمة ـ لانه لا ينال الا بالقوة ..

والترويج للحرية جريمة ـ لانها انتصرت فى بلاد اخرى بالقوة .. !

وهكذا تطلق الحكومات ، القوانين فى اعقاب المواطنين لتنال منهم شر منال .

وكل جائع يقول اليوم : ياكبدى . ! شيوعى

وكل كاتب مخلص .. شيوعى

وكل ذى شكاية ، ومظلوم .. شيوعى

وحكام اليوم ، كانوا شيوعيين فى نظر حكام الامس ..

وحكام الامس ، شيوعيون فى نظر حكام اليوم ..

وكلا الفريقين ، شيوعى فى نظر حكام الغد ..

والجانب المضحك فى هذه المأساة يجعلنا اقرب الناس شبها بجحا .. لقد اراد ان يتخلص من مضايقة بعض الغلمان له ، فدلهم على عرس موهوم .. ثم عاد المسكين ، فصدق نفسه ، وانطلق

يعدو وراء الظلمة نحو اكذوبته التى صدقها .. !

اننا ايضا ، نضع القوانين احيانا لنلتمس بها للابرياء التهم والعيوب .. ثم نعود ، فنصدق انهم حقا متهمون .. ؟!

والجانب المزعج فيها .. ان كل حكومة تلى الحكم تشرع القوانين التى تحميها، وتبقيها .. كأنها من الخالدين .. ! وتتعمد ان تجعل لكل قانون بابا كبيرا يتسع لمدخل كل من تستضيفه .. حيث يفضى الى دهاليز من ورائها السجون والظلمات .. !

ومثل ذلك ، وما اكثر الإمثال ـ مانجده فى مؤخرة المادة ١٩٨ ، ب ، ج ، د ، هـ ـ وهو :

« .. متى كان استعمال القوة او الارهاب او اية وسيلة اخرى غير مشروعة ملحوظا فى ذلك .. »

اما القوة والارهاب ، فحسن هذا .. ولكن ما مدلول عبارة « او اية وسيلة اخرى غير مشروعة » .. ؟

ان كل وسيلة مشروعة تستطيع الحكومة ، والبوليس معها ان يلبساها لباس اللا مشروعية والجريمة . ثم يقدماها للقضاء بهذا الوصف الزنيم ..

وكيما تزداد المسالة وضوحا نستشهد ايضا بالمادة (١٧٦) عقوبات ..

وهى « يعاقب بالحبس مدة لا تتجاوز سنة ، وبغرامة لا تقل عن عشرين جنيها ، ولا تزيد عن مائة جنيه ـ او باحدى هاتين العقوبتين . كل من حرض على بغض طائفة او طوائف من الناس ، او على الازدراء بها .. الخ »

ان الغموض الشائع فى عبارة « بغض طائفة ، او طوائف من الناس .. » غموض مقصود .. وهذه العبارة على ضآلتها بئر لا قاع له يستطيع ان يبتلع فى لا نهائيته الشعب كله ثم ينادى فى سعار وجشع : هل من مزيد .. ؟

ويا أيها الذين تحتمون به عندما تتململ الشعوب الخاضعة

ويا أيها الذين تتظاهرون بالخوف عليه من أولى الناس به .

هذا ـ هو الاسلام .

وهـذا هو احترام رجاله للقانون

ولقد استمعنا من قبل الى الملك وهو يلقى على وزيره خطابه التقليدى . ايام المصريين القدماء فيقول له :

« اذا جاءك مستضعف من مصر العليا أو السفلى ، فاحرص على أن يجرى القانون مجراه فى كل شىء .. واعلم ان المحاباة بغيضة الى الاله .. وانظر الى المقربين للملك ، نظرتك الى البعيدين عن بيته .. »

ان سيادة القانون ضرورية لسيادة الامة ـ والويل لمجتمع ينكمش قانونه امام عليته وكباره عندئذ تشيع فى شخصيته الفوضى والاضمحلال والاستهتار

وانا لنمر فيما نقرأ عن الدول الاخرى بمشاهد تبهر الابصار.

حدث يوما ـ وهذه قصة ترويها أخبار اليوم بتاريخ ٥/٧ سنة ١٩٤٧ ـ أن تزوجت بنت ستالين، ورجت أباها أن يهيىء لها سكنا تستأجره ، فرفض حتى يحين دورها ـ كبنت أى كناس يكنس الشارع ويحمل القمام . . !

وعلم بعض الوزراء ، فجمعوا المجلس سرا ،وقرروا تسليم بنت المارشال ستالين شقة ذات غرف ثلاث .. !

**

وحدث أيضا ـ أن عاد ابنه الاصغر من ميدان القتال مزهوا بالنصر ، فانطلق بين حانات موسكو ومراقصها مفتونا بشبابه وحسبه .. فاصدر « بريا » مدير البوليس أمره باقصائه فورا الى قرية نائية لمدة عام كامل ..

وسمع « بريا » أن الفتى ساخط على هذا القرار ،فاستدعاه وقال له : ـ لقد أصدرت أمرى هذا رحمة بك قبل أن يتدخل أبوك فى أمرك .. وأنت تعلم جيدا انى لو أحلت الامر الى أبيك ماكان جزاؤك أقل من النفى خمس سنوات كاملة .. !

* *

ويوم أحب ملك الانجليز .. « مسز سمبسون » .

اى ذنب جناه حين احب . !

لكن لبلاده تقاليد أقدس فى قلوبهم من القانون ..

ألم يكن الملك بقادر على أن يحطمها .. ؟

لا ـ انه لايستطيع .. لانه يحترمها .. ولقد انحنى لها .. وترك عرشا يطل من فوقه على دنيا سعيدة مديدة .. وحمل عصاه على عاتقه ، ومضى يشخن فى أرض مجهولة ، رضى النفس مقتنع الضمير ..

لقد احترم فى اللحظة المغرية الحازمة أمته واحترم تبعات الملك وشعائر البلاد .

وماذا أقول .. ؟

ان التاريخ مفعم بالامثال يضربها للناس .

ولكن أكثرهم لايعقلون ..

* *

دعوا القانون يسد ويسيطر

فاذا سرق الفقير رغيفا وادخل السجن ..

وسرق الكبير دولة .. فليدخل السجن أيضا ..

اما ان ننحنى أمام اثمه وسرقاته ثم ننشد :

ملك الملوك اذا وهب لاتسألن عن السبب
الله يعطى من يشاء فقف على حد الادب

فهذا هو ـ سوء الادب . !

لقد علم عمر بن الخطاب ان عمرو بن العاص داهية العرب ومن وجهاء قريش وكبرائها - قد فشت له فاشية من الابل والمال .. فأرسل وراءه من يحاسبه الحساب العسير ويقاسمه جميع ثروته - حتى اذا انتهى منها جميعا قال :

- أين نعلك ياعمرو .. ؟

فأجاب عمرو مبهوتا - لم ؟. فقال محمد بن مسلمة رسول عمر : -

- لنا واحدة ، ولك واحدة .!

لم يقف جاه عمرو ، ولا دهاؤه ولا قوته دون القانون وهو في طريقه اليه - بل بلغ منه المبلغ الذى يريد

***

ان من الخير أن نعترف في شجاعة بمحنة القانون في بلادنا ولكن الحق ان الحكومات ليست وحدها سبب هذه المحنة - بل نحن معها .. ونحن قبلها ..

ففى سلم السلطة التنفيذية من أدنى - يوجد كثيرون من الموظفين الذين لايحترمون أقل احترام - التزاماتهم ازاء الدولة والقانون والشعب وهم يعرفون أنفسهم كما يعرفون خطاياهم .

أولئك الذين يعطلون تنفيذ الاحكام من أجل رشوة حرام ..

وأولئك الذين يضللون القانون عن جناية وجانيها من أجل دراهم معدودات ..

وأولئك الذين يحرفون القانون عن مواضعه تحقيقا لغرض .. أو استجابة لشهوة .!

فلنؤد واجباتنا نحو القانون في ذمة وشرف وليبذل الحاكمون من ذوات أنفسهم مزيد احترام للقوانين ، فيعمموا تطبيقها ، ويعلنوا سيادتها .. ومزيدا من الفهم لحكمة مشروعيتها ، فلا يسرفوا فيها .

وليمكنوها من سكان القصور ، وأبناء الاكرمين .

ب ـ الصحافة ..

« ... وعندما أغلقت بابى وراء رئيس الوزراء ، دق جرس الورد « بيفر بروك » صاحب جريدة الديلى اكسبريس ،وقبل ان أروى له مادار بيني وبين المستر بلدوين قال لى :

ـ لقد ضاع الامل الاخير فى المحافظة على هدوء صحف لندن لقد قرر رؤساء تحرير الصحف أن ينشروا تفصيلات الازمة التى بينك وبين الحكومة ..

« ووضعت السماعة .. وشعرت بان الدنيا قد بدات تظلم فى وجهى .. ولما نظرت الى ناحية مطابع « فليت ستريت » شعرت كأن سحبا سودا تخرج من هذه المطابع ، وتتجه الى قصرى ..

« لقد كان يوما سيئا .. !

« وقد كنت أتوقع ان تتحدث الصحف عن الازمة فى صراحة مؤلمة . ولكنى لما قراتها فى صباح اليوم التالى شعرت بذهول ثم باشمئزاز . آ

« هل يمكن أن يكون هذا الذى يتحدثون عنه هو الملك . أو انه « هلفوت » عادى .. ؟

« حقا ان الصحافة تستطيع أن تخلق ، وتستطيع أن تهدم .. » !

ليس هناك أروع من هذه الكلمات لنبدا بها حديثنا عن الصحافة ـ والصحافة هى أعصاب الوعى فى أمتها ... وهى من أهم ان لم تكن أهم عناصر الشخصية الشعبية ..

وان لها حقوقا ، وعليها واجبات .

فاول حقوقها ـ الحرية الكاملة

١ ـ حرية الانباء . وتشمل حرية التلقى ، وحرية الاداء .

ج ـ حرية الرأى والنقـد والمعارضة ..

ومن ســـوء حظ مصر ان صحافتها لا تتمـع بمـا يجب من حرية .. وحكوماتنـــا فى مباراة هائلة نحو مضايقتها وتكميمها ..

وحين نفاضل بين عهد وعهد نجد اقومها طريقـة هو الذى يهبط فيه منسـوب الاضطهاد

وليس الذى يبرأ برءا كاملا من هذه الآفة الخبيثة .

فى يوم ١٩٥٠/٩/١٧ نشرت جريدة المصرى حديثا لمعالى فؤاد سراج الدين باشا وزير الداخلية وازن فيه بين ماذا .. ؟

بين عدد مرات المصـادرة فى عهده ، وعددها فى غير عهده من العهود ـ فقال :

« بلغ عدد القضـايا الصحفية فى سنة ١٩٤٦ ـ ٢١٣ ـ قضية »

وبلغت عدد الكفالات المدفوعة من الصحفيين المتهمين ـ ٢٧٦٥ ـ جنيهـا ..

« وحدث ان جريدة واحـدة هى البلاغ ، تعرضت خلال اربعة اشهر لاربعـة عشر تحقيقـا ، وحبس عشرة من الصـحفيين دفعة واحدة فيما نشره المصرى بشأن الاقتراح الكولمبى .. »

« وفى عام ١٩٤٥ ، ابان الاحكام العرفيـة ـ بلغ عـدد القضـايا الصحفية فى ثلاثة اشهر فقط هى ـ اكتـوبر ، ونوفمبـر ، وديسمبر ـ ٣٧ ـ قضية صحفية وجملة الكفالات ـ ٤٠٠ ـ جنيها ، على الرغـم من وجود الرقبـاء الذين كانوا يحـذفون كثيرا كما يشاءون .. »

ثم ذكر معاليه عدد القضايا الصحفية فى سـبعة اشـهر من عهده وهى المدة الواقعة بين اول يناير سنة ١٩٥٠ ، وآخر يوليو سـنة ١٩٥٠ وكانت (٣٢) قضية .. !

لا جرم ان الارقام التى ساقهامعاليه خاصة بالسنوات الماضية أرقام بشعة مزلزلة . .

ولكن ما دلالة هذه الموازنة فىمعناها العميق .. ؟

دلالتها ان مضايقة الصحافة ،وابسالها ، ومصادرة حريتها قائمة فى هذا العهد وفى غيره من عهود .

وان الفارق بين عهد وآخر ماثل فقط فى الكم والعدد . .

ونحن نعلم ان العدد فى هذاالامر ، مسالة زمن . .

فاذا كان محصول الحكومةالقائمة فى سبعة اشهر (٣٢) قضية ـ فكم يكون المحصول فىخمسة اعوام . ؟

لقد ذكر معاليه ان مجموعالكفالات التى دفعتها الصحف المضطهدة عام ١٩٤٧ هو(٢٢٠٠) جنيها .

فما قوله ، دام فضله ـ فى اندارا واحدة من دور الصحف هى « دار اخبار اليوم » قد بلغما دفعته وحدها من كفالات ـ ١٢٥٠ ـ جنيها فى أسابيعمعدودة .. ؟!

انا بهذا النقاش لا نهدف الىاحراج وزير ، اوالتشهير بحكومة معينة .. فنحن من بداءة رحلتنافى هذا الكتاب نلقى اللوم دائما على روح الحكم وسلائقهوطرائقه . . اما الاشخاص فلا .. لانهم زائلون

اين تقدير حكوماتنا للصحافة.. من تقدير ذلك الملك العظيم السابق الذى شعر كأن سحباسوداء تخرج من مطابع الصحافة وتتجه نحو قصره .. ؟

ثم اين احترام صحافتنالواجبها ، ولقارئها .. ؟

ان للصحافة فى توجيه الرأىالعام اثرها البليغ ، فهى قادرة على هدايته وعلى اضلاله . .وبقدر ما تقدم له من عون ، تقدم لنفسها ايضا ـ فكلاهماللآخر قوة ومساك . .

ولعل صحافتنا الموقرة تجد من الشجاعة ما تصغى به لهذه الحقيقة ..

وهى – ان الاخلاق التجارية تسيطر عليها اكثر مما يسيطر الواجب الادبى .. !

وقد يكون عذرها حاجتها المطردة الى الربح والمال . .

بيد ان ذلك مستطاع ميسور مع الاحتفاظ بالمعنويات الفاضلة التى تجعل منها فى بلادها نبوة هادية ..

ان الروح التجارى هو الذى يدفع الصحافة احيانا الى الاسراف الشديد فى الولاء ، لتظفر بقلب الحكومة وجيبها ..

وهو الذى يدفعها حينا آخر الى التطرف فى الشنآن ، لتظفر بعواطف الجماهير التى تسارع بحكم طبيعتها الى البغض اكثر مما تسارع الى الحب ..

وامامى الآن ركام هائل من الصحف المملوءة بالمتناقضات وسامد يدى نيابة عنك ، واتناول عفو الصدفة صحيفة منها اى صحيفة .. ثم نقرا فيها معا .. ونبحث بعد ذلك عن عدد آخر من نفس الصحيفة يكون قد صدر فى عهد آخر – ولننظر ..

« .. واذا كان المنادون بالحريات – يريدون ان تنصرف الحكومة عن واجبها فى صيانة النظام ، ليعبثوا به ، ويسخروا بعض « الصعاليك والمفتونين » لتنفيذ اغراضهم الخبيثة ، وجعل مصر مدينة مفتوحة للشيوعية والفوضى .. فليبحثوا لهم عن « لعبة » اخرى قبل ان ينفض « السرك » وينصرف عنهم المتفرجون »

***

اقراتم هذه السطور ..؟

اقراوا مرة اخرى كلاما آخر قالته بعد ذلك بعام واحد من عمرها المديد ..

.. افتحوا ابواب السجون التى ملئت بشبابنا المثقف متهما بالشيوعية .. والله يعلم انه ليس فى مصر شيوعيون سوى اولئك الذين يقضون حياتهم بين سهرات الشتاء الحمراء بمصر وسهرات الصيف الحمراء بباريس .. »

ان الحرية — هى .. هى — لم تتغير .

وحركة اضطهادها تسير على الدرب المرسوم .. فما سر التناقض فيما كتبته الصحيفة. وفيما تكتبه زميلاتها الكريمات.؟

ان الاتجاه النفسى .. تغير فتغير معه كل شىء.. والجماهير القارئة هى التى تدفع ثمن هذا العبث من اعصابها ، وسكينتها، ونهاها ..

اننا بالاشواق الى ذلك اليوم الذى نسمع فيه عن صحفى مصرى — طرق احد الكبراء بابه.. وقدم له « شيكا » بمائة الف جنيه مساوما به على مصالح الشعب .. فيصنع كما صنع الصحفى الانجليزى .. ويدعو حاجبه لاصطحاب الكبير المحترم الى الباب — لانه يجهل الطريق.!

***

ان الصحافة هى الرئة التى تتنفس بها الشعوب..وتصوروا لو ان رجلا ذا جاه ونفوذ ومال استاجر رئتى انا — لتتنفس لحسابه ، لا لحسابى ، كم لحظة من العمر استطيع بعدها أن اعيش ..

لقد كان «امرسون » صادقا حين قال : الصحافة الحرة رسول من قبل الله للشعب .

نعم — انها لكذلك ..

فهى التى تكشف عن بصره الغشاء ، فيرى ..

وتزيح عن آذانه الوقر ،فيسمع ..

وتمزق عن وعيه الحجب ..فيدرك كل شىء ويعيه .. انها

القوة التى تحيـــا بها الامة .. وتموت ايضا ..!

ونحن ندعوها الى العمل وفق تبعات هذه المكانة السامية التى بوأتها الحضارة اياه .

ج ـ الاحزاب ..

التعدد .. لا الوحدانية .

عنـدما يغم الطريق امام امة من الامم ، وتتغشـاها غواشى المسكنـة والذل ـ وتكون قـد عاشت أمدا طويلا فى قبضـة الجبارين ، فانها تحن دائمـا ، وتنزع الى شىء غير قليل مـن التخضع والتخشع .. والارتماء فى احضان سيد واحد .. ليس له صنو ولا شريك .

وهذه هى العقبة الـكأداء التى تعانيها الديموقراطيـة وهى فى طريقها الى ضمائر هذا الطراز من الجماعات .

ان هذا الضمير لا يزال يبحث عن جبار جديد .. بعـــد ان اصطنع له اسما آخر يهـــواه ويطيـــقه ـ كأن يسميه مثلا ـ الحزب الواحد .. المستبد العادل .. الشورى الغير ملزمة .. ولعل الشرق كله لا يزال يردد فى ايمان ونشوة الكلمة المعزوة الى السيد جمال الدين الافغانى : « لن يصلح الشرق الا مستبد عادل »

وقد يكون « جمال الدين » قائل هذه العبارة ـ وقد تكون من صنع احـــد المعجبين به ، وبالمستبد العادل ..

اصحيح هذا ..؟

ايمكن ان يكون الحاكم مستبدا وعادلا معا ..؟

كنا نقرأ فى الاحاديث المنسوبة الى الرسول ، وهى غير صحيحة ـ ان لله ملكا نصفه من ثلج ، ونصفه من نار .. فلا الثلج يطفىء النار ، ولا النـار تذيب الثلج ..!

اذا كان فى الامكان وجود مستبد عادل ، فهو هذا ..!

نريد ان نقول لجماهيرنا الحبيبة ـ هذا هراء ..!

والرجل الواحد .. والحزب الواحد ـ استبداد وافك ودمار.

لقد آمنت قبلا بالرجل الواحد وبالحزب الواحد .. أيام كنت أؤدى للآخرين تحية العوام ،كما يقول « اسكار وايلد » ـ التقليد تحية العوام لاصحاب العبقرية. اديت هذه التحية يوما .. لاناس طيبين ـ ليسوا على اى حال متهمين بالعبقرية .. فلما بدات افكر لنفسى وعيت شيئا جديدا.

واستطيع الآن ان أتصور ـ وتستطيع انت ان تتخيل معى ساعة جلسنا اثر صلاة الفجر نستمع لموعظة ـ وكنت يومئذ اومن بالرجل الواحد فى جماعة دينية .. جلس الشيخ يعظ ـ فقال :

من قال لشيخه لم ..؟ فقد حرم بركته .

قلت للشيخ يومها : ان اصحاب الرسول كانوا يقولون له : لم ـ ولماذا ..؟

فأجاب: عندما تكون كأصحاب الرسول .. قل مثلهم ـ لم.؟

اجبته ايضا ـ والى ان تبلغوا انتم منزلة الرسول . سنظل نقول لكم : لم ..؟

واشهد ، وانا الآن اشرف على الحوادث من مكان بعيد لا اتأثر فيه بشهوة ولا غرض ـ ان شيخنا ذاك .. صورة صادقة لكل رئيس جماعة ، او حزب فى مصر .!

كلهم يؤمنون بانفسهم ولا يزيدون ..

ولو كان الصواب والسداد يقفان بجانب الرجل الواحد ، لكانا اذن من التفاهة والضآلة بحيث يكفى لتحصيلهما عقل واحد ، قد يكون مريضا او موتورا ..

ان الدين يرفض حكم الرجل الواحد.. والدنيا له اكثر رفضا

والحزب الواحد، كالحاكم الواحد. كلاهما شر، واستبداد

وفي مصر خلق كثيرون يصرخون كلما تكاءدتهم الامور. الغوا هذه الاحزاب

وهذا وهم عريض..! فالحقيقة ان ضعف الاحزاب، لاتعددها هو مأتى البلاء.

فاذا قيل: ان تعددها علة ضعفها وفسادها لما يحدثه من فرقة وخلاف.. نجيب بان التعدد في احزاب دول كثيرة هو سبب قوتها وتفوقها، واذن فهو ليس مضعفا بذاته وطبيعته.. وعوامل الضعف والانحطاط آتية من اشياء اخرى سواه.. بيد اننا نيطها به للتفسير السيكلوجي الذي اسلفناه.. وهو حنين الامة التي طال انحناؤها للسيد الواحد، والحزب الواحد.!

* *

لقد عصف الحزب الواحد بالمانيا.. وقصم ايطاليا.. وترك اليابان عبرة واحاديث.. ولوت طبائع الأشياء زمام الاستبداد في تركيا فتعددت فيها الاحزاب، ومضى الحزب الواحد الذي كان حاكما بوزر سيئاته، بل وحسناته!

ولاتضربوا لنا الامثال بروسيا.. فالعبرة بنهاية المطاف..

لطالما لهجنا ببركات الحزب الواحد المستبد في المانيا النازية، وايطاليا الفاشية.. فأين ذهبا.؟

وروسيا بين احد امرين..

فاما ان تكون الحريات فيها سائدة مترعرعة. ومجالس الاتحاد فيها من القوة والنضج بحيث تؤدي دور الأحزاب المعارضة تمام الاداء.. وعندئذ لايحتج بها علينا مع احتفاظنا بحقنا في استبعاد بلوغ «السوفييت» هذا المنسوب الذي يرشحها للنهوض برسالات الاحزاب..

واما ان يكون حزبها الواحد مصمتا صخريا.. لاشيء معه، ولا معقب لحكمه .. وعندئذ ، فالمصير المدخر للحزب الواحد، وللشعب الذي يرتضيه، في الانتظار

* *

يجب ان نعلم ان مصر لايؤودها اختلاف احزابها .. بل تناحر هذه الاحزاب .. اما الخلافات فلا مفر منها ، وهي باقية في الناس ما بقي لكل منهم عقله الخاص ، ومشاعره الخاصة.. والخلاف الذي لايجاوز دائرته، ولايتعداها ينفع ولايضر . لانه الوسيلة الناجعة لتقليب وجوه الراي ، وكشف اللثام عن حقائق الاشياء

والذي يرهقنا بطغاوته ـ الخصومة لا الخلاف .

منذ اربعة اعوام نشرت صحفنا أنباء احدى جلسات مجلس العموم البريطاني ـ حيث وقف تشرشل يتهم بيفن بالعجز وبالعمل لتصفية الامبراطورية البريطانية

فما كان جواب « بيفن » ـ ولعلها اقسى كلمات يستطيع ان يستعملها : الا ان قال :

« ليس في بريطانيا من ينكر أن تشرشل هو عبقري الحرب الذي كسب لبلادنا النصر ..

« ولكنه ـ وهذا عيبه ـ يستجيب احيانا لنداء اغراضه الخاصة »

***

وصحيح ان هناك من الساسة والزعماء من يتهاترون . والعراك التاريخي الذي استعر بين دزرائيلي وغلادستون لايزال كأنه مشبوب الاوار .. ولكن الارض المشتركة بين الاحزاب جميعا مهما تختلف وهي ـ مصالح البلاد ـ لايمكن أن يفرط فيها حزب .. أو يساوم عليها من أجل الكيد والاغاظة لخصومه السياسيين

وليس معنى هذه المقارنة اننا نتهم زعماءنا بالخيانة . . لا ـ وانما نتهمهم بالضعف .. الضعف حين يتحابون . والضعف حين يتخاصمون . .

***

الم تسمع يوما ان حكومة العمال انتدبت تشرشل لبعض المهمات السياسية الخطيرة خارج البلاد . . ؟

ان هذا لايمكن ان يحدث فى بلادنا ابدا . .

فالحزب الذى يستأثر بالحكم يستأثر معه بكل شيء . . ويرفض الافادة بما فى الاحزاب الاخرى من مواهب . . بل هو لايعترف بموهبة ولا ذكاء فى غير حزبه . .

ان حزبه وحده هو المتخم بعشرات من امثال بونابرت . . وعشرات من طراز عمرو بن العاص . . !

***

ان الحزبية الرشيدة المتعددة من اهم المقومات لشخصية الشعوب الحرة .

فلنغتبط بتعدد الاحزاب عندنا ، ولا نجزع . . ولنطالبها باصلاح ذات نفسها . ونفث روح النظام ، والديموقراطية ، والشرف فى كيانها .

وهذه مقترحاتنا : ـ

١ ـ **الرئاسة للأصلح** ـ ان رئيس حزب ما هو رئيس الحكومة يوم يظفر حزبه بالاغلبية ـ لذلك نجد رئاسة الحزب ليست من مسائله الخاصة التى يحق له الاستئثار بها . . بل هى قبل ذلك من حق الشعب الذى قد يحكمه هذا الرئيس يوما ما . .

ولهذا يجب أن يختار الرئيس عن وعى وبصر . وان يكون الرجل الذى تتمثل فيه قوة الحزب وقمة نضوجه . . وان

يجدد اختياره .. اما الرئاسة مدى الحياة ، فهى ترادف الفساد مدى الحياة ..

***

٢ ـ افساح الطريق للاكفاء .. والاحزاب فى الامم الراقية . مدارس تربى الشباب ، وتعده لأدوار البطولة ، وقيادة السفين .. ولكنها عندنا «بورصات» للمضاربة والاقتناص .

وانه لشىء محزن ومخجل ان يكون النفاق جواز المرور والوصول فى جميع احزابنا ـ فانت كلما كنت بعيدا من الفطنة تكون قريبا من الزعيم .. وسبب ذلك فيما نعتقد ضعف الزعماء وهزالهم . . فرئيس الحزب اذا كان قزما ـ أبعد عن نفسه العمالقة حتى لاتنكشف عورته .. وتنفضح قماءته ..

وهؤلاء الصغار الذين يشبعون غرور رئيسهم بالتزلف والملق ، هم الذين توسد اليهم فيما بعد مناصبنا الكبرى والوسطى . .

فاذا ارادت الاحزاب ان تكون عامل بناء فى بلادها ، فلتفسح الطريق للاكفاء والصالحين فيها ـ والا انقلبت بؤرة تورد للأمة الميكروب والآفات .

***

٣ ـ المنهج ـ المنهج هو الحزب ـ واحزابنا هذه ما مناهجها؟ انها تهتف بالجلاء ، والسودان ، والعدل الاجتماعى . فاذا أتيح لاحدها الحكم ـ توسل لكل هذه الاهداف بسياسة مرتجلة ، وسلوك مضطرب ـ مما يدل على انه كان فقط يهتف مع الهاتفين ويصرخ مع الصارخين دون أن تكون له فلسفته الخاصة ونهجه المستقل حيال مشاكل البلاد جميعا ..

ان فائدة المنهج للحزب لا تتمثل فقط فى انه سيكون دستوره يوم يحكم ـ بل اهم من هذا انه يربط الحزب بالشعب رباطا وثيقا .. لان المنهج نفسه يكون ثمرة اتصال الحزب بالجماهير وتحسسه آلامها ـ وبحثه أخص شئونها . .

ان الارتجـــال أفسد عليناحياتنا .. الارتجـال فى الحكم ، والارتجـــال فى المعارضة .. والمضحك ان احزابنا يقلد بعضها بعضا حتى فى الفشل ..! وهذاهو سر ما نجده من تشابه بين سلوكها جميعا .

ان ارقى مظهــــر لسياسةالحزب ـ هو خطاب العرش ـ الذى يعبر به الحـــزب الحاكمعن نفسه ونهجه ونواياه ..

ولقد سرت عبر خطب عرشكثيرة فى مضابط البرلمان . تكاد الفروق الدقيقة تنعدم بينها .. وقطع على ســـيرى ، صوت شيخ جليـــل ، وجدته قائما فىاحدى جلسات مجلس الشيوخ يوم ٢١ يناير سنة ١٩٤٦ـ يفسرنفس الظـاهرة ، ويندد بها .. فلنصغ له .. ان صاحب الدارادرى ..

ـ حضرة الشيخ المحترم محمد بك خطاب : ـ

ـ حضرات الشيوخ المحترمين ـ خطاب العرش اســـاس من الاسس الهــامة فى الحياةالدستورية ، ولو اتبعت الحكمة المقصـــودة منه ، لكان بناؤناالدستورى الديمقــراطى أقوى مما هو الآن بكثير ..

« امامى الآن جميــع خطاباتالعرش منــــذ سنة ١٩٢٤ الى سنة ١٩٤٥ ـ أظن ان عددهذهالخطابات يبلغ حـــوالى الثلاثة والعشرين خطابا .. واذا قرأتمهذه الخطابات تجدونها جميعــا كانها نسخة واحـدة من خطابواحـــد ، مع بعض التعديل فى الالفاظ ـ لا فىالموضوع ـ بعكسالحال فى بريطانيا . اذيمكن لأى عضـــو من حضراتكم ان يقرأالخطاب ، فيقول : هـــذا خطاب حكومة العمـــال ، أو حكومةالمحافظين ، اوحكومةالاحرار ..

« اذا كانت هــذه الخطاباتلاتتغير فى عهـد من العهود ولا فى حكومة من الحـــكومات ، فماالداعى اذن لهذه الفرقة بيننا ، وهذا الخصام المتواصل ..؟!

«الواقع ياحضرات الشيوخ المحترمين ان خطاب العرش بدا اولا فى صفحتين ونصف صفحة وقد جاء فى هذا الخطاب القصير كل ماجاء فى خطابات العرش الاخيرة ..

اما خطاب العرش الاخير ، فقد زاد الله فى حجمه ، واصبح فى خمس وثلاثين صفحة ـ وكنت اعتقد ان زيادة خطاب العرش من صفحتين ونصف صفحة الى خمس وثلاثين صفحة ـ اى بما يعادل ١٤٠٠ ٪ ، قد يعود على البلاد بخير ، لا بنسبة ١٤٠٠ ٪ ـ ولكن على الاقل بنسبة ٧٠٠ ٪ ، او ٦٠٠ فى المائة او حتى ١٠٠ فى المائة » (١)

***

اننا نفسر هذه الظاهرة بالافلاس . افلاس الحكومة ، وافلاس الاحزاب التى تنشئها وتكونها ، من المناهج المرسومة والدراسات الواعية ..

٤ ـ **ديموقراطية الحزب** ولكى نصحح شخصية الشعب ، يجب أن نصحح شخصية الحزب مادمنا نرى الحياة الحزبية من اهم مقومات الشخصية ـ شخصية الامة والدولة . وشخصية الحزب لا تكون صحيحة سوية حتى تصطبغ بالديمو قراطية الحقة . فهل أحزابنا كذلك ..؟

انها ـ وهذه هى الحقيقة ـ أندية سياسية تضم المترفين الى العاطلين ـ مع محترفى السياسة والكلام ..!

انها منصرفة ، بل عازفة عن الشعب ومشاكله ـ مما ادى الى خلق جيل جديد لا يؤمن باحزابه ، ولا بزعمائه .. مع اننا فى امس الحاجة الى الايمان باحزابنا ، وبقادتنا . حتى

---

(١) مجموعة مضابط الانعقاد العادى الحادى والعشرين ص ٢١٥ .

لانقسم على انفسنا ، وحتى نتطور ـ دون ان نتنكر ـ لمحاسن ماضينا .

يا أيها الزعماء ـ تعرفوا الى الشعب .. وامشوا معه فى الاسواق ان كنتم تريدون لكم ، وله البقاء ..!

لقد سبقتموه فى المعيشة سبقا بعيدا .. فعجزتم عن أن تحسوا احساسه ، وتشعروا بشعوره . ومهما تحاولوا اليوم ان تتمثلوا ، أو تتخيلوا آلامه وعناءه ، فلن تستطيعوا حتى تعودوا اليه ...

كيف يحس رجل منعم ، تستقبله كل يوم مائدة متخمة بمناعم الطعام والشراب ـ احساس رجل اضنى امعاءه القديد اليابس المتبل بالذباب والتراب .. ؟

لقد سكن غاندى فى حى « الكناسين » ليستطيع اولا ان يحس نفس الاحاسيس التى يعانيها سكان هذا الحى من المنبوذين .. ثم ليستطيع ثانيا ان يرفع عنهم آصار هذا التحقير من بنى وطنه الهنود ..

ونحن لا نكلف زعماءنا وسادتنا بمثل ما كلف غاندى نفسه .. لانهم لم يتمثلوا بعد فى وجداناتهم صورة صحيحة للزعامة الرشيدة .. انهم لا يزالون يرونها علوا فى الارض ، واشرافا على « المنبوذين » من مكان بعيد .

نعم . لن ندعوهم الى مساكنة الفقراء .. فتعالوا عن ذلك علوا كبيرا .

وانما ندعوهم ـ وحسبنا هذا منهم ـ ان يعيشوا فى احساس الجماهير ، ولو على ضوء ما يقراون من اخبارها وشكواها ، وان يجوسوا ، ولو مرة ، خلال النجوع والكهوف .. خلال الظلام والبلى .. ليعلم الشعب ان زعماءه يذكرونه ، ويشاطرونه ... فتقوم بينه وبينهم علاقات انسانية متآخية .

وان يكلف زعيم الحزب جميع نوابه وشيوخه بزيارة دوائرهم

زيارات دورية فاحصة ـ ويرفع كل عضو من هؤلاء تقريرا دوريا عن زياراته ومقترحاته

هذه هى بعض المقترحات التى تتيح لنا الانتفاع بأحزابنا ولابد لنا من ان نقرر مرة اخرى ـ انه اذا كان لاحزابنا خطايا واخطاء .. فهى ليست اصيلة ولادائمة .. ووصفها بذلك تشاؤم لا مبرر له ولا دليل .

ووجود هذه الاخطاء لا يبرر التهوين من قيمة الاحزاب ، وحتمية قيامها ، كما لا يبرر ابدا المطالبة بالغائها ، أو توحيدها .

ان غاية ما تثيره وتدعونا اليه ـ هو الاصلاح الحاسم السريع .

* *

دور الشعب فى تقويم الاحزاب

وللشعب فى اصلاح الحياة الحزبية دور هام . فعلى احدنا اذا شارك حزبا من الاحزاب طريقه ، أن يجعل صلته به صلة تعاون ـ لا تعصب .

اننا نفسد رجالنا وزعماءنا ، حين نؤمن بهم ايمان الدراويش بشيوخهم .. ونخون انفسنا خيانة كبرى حين نلاشى وجودنا وشخصياتنا فى خضم الولاء الابله ، والثقة العمياء .

فى عام ١٩٤٦ ـ كان احد الزعماء يحرض الشباب جهرة على العمل لاسقاط الوزارة القائمة بحجة ممالأتها للانجليز برغبتها فى مفاوضتهم ..

وسقطت الوزارة ، وجاءت وزارة اخرى . وقررت مفاوضة الانجليز . وهنا نلتقى بنفس الزعيم يحث الطلبة على الهدوء وينهاهم عن كل عمل قد يعرقل سير المفاوضة . فلما ذكروه بنفسه . وبكلماته فى الامس الرطيب. اجابهم فى خبث ودهاء :

ـ ان الشعب الانجليزى ثائر على حكومته ، وهو يطالبها برد

ابنائه المجندين بمصر وغير مصر من البلاد المحتلة . والحكومة البريطانية تعتذر عن تسريحهم أمام الشعب بأن هذه البلاد ومنها مصر ثائرة ضد بريطانيا ، فلابد من ابقاء جيش الاحتلال فاذا أحدثتم اى شغب انتفعت به الحكومة البريطانية فى اسكات شعبها اللحوح .

لم يكن الزعيم ـ كما سترى ـ يؤمن بحرف واحد مما يقول ـ ولكن الاتباع المستسلمين مصمصوا شفاههم اعجابا ، وانطلقوا يبشرون من وراءهم بهذا المنطق العجيب !

واعجب الزعيم ايضا بذكائه فاستعرض وجوه جلسائه وقال :

ـ اظن اننا احسنا اختيار الشكيمة .. ؟

وخرجت ليلتها افكر : ما الذى امسك بالسنة الطلبة عن مناقشة هذا المنطق المضلل المتهافت .. ؟

واجبت نفسى : انه الايمان الاعمى بالزعماء . وانمياع شخصية هذه الدمى الآدمية وانطفاء نور الاعتداد فيها

فاذا شئنا تقويم احزابنا ، لنفيدمنها ، وننموبها ، فلنحتفظ بشخصيتنا ازاءها ..

وشىء آخر لا يقل اهمية ـ وقد يزيد . هو ان نجل ثقتنا عن ان نلقى بها تحت اقدام الذين لا يستحقون سوى الصفع والازدراء .

وان نمنحها للذين هم بها جديرون فى اناة وقصد .

وشىء ثالث ـ هو أن نكون دائما ممثلين للامة فى الحزب .. لا ممثلين للحزب فى الامة ـ بمعنى أن نتوسل بالحزب لخدمة الشعب .. لا ان نتوسل بالشعب لخدمة الحزب

ج ـ القيم والمعايير

هذا ختام العناصر التى آثرناها بالعرض .. ودعونا للتواصى بها

حتى تتألف منهـــا للجماهـير شخصية آمرة مسيطرة ..

ومعايير الامة هى منـــاط تقدمها أو انحطاطهـا . ونعنى بالقيم والمعايير ــ تلك الاديـات والتقاليد النفسية التى تسيطر على وجدانها ، وتوجه نشاطها .

ارايت امة يسود فيها مثلا ــ الايمان بالقناعة ... انها تمسى قنوعا فى كل شىء .. ليس فقط فى لقمة الخبز .. بل وفى طلب المجد كذلك ...

ولن نفيض هنا فى الحديث عن تلك القيم . فمجال الاسهاب فيها كتب الاخلاق .

انمـا نعرضـــها من زاوية حاجاتنا كشعب طامح الى الحرية والخلاص .

لابد لنا من قيم عليا نابضة ، نثيط بهاحياتنا .. وننظم حولها نضالنا مع الايام .

فلنبحث معا عن محور تدور حوله معايير الشرف والمجـــد جميعها ، ولنرفعه تجاه ابصارنا ، ثم نصبه صبا فى كياننا .

اما ان نختلف حتى فى اختيار القيم التى ينبغى أن نصل بهـا انفسنا ، فضلال بعيد .

اننا لا نحاول فهم الاشـياء ولا تحديدها .. والذى ينقصنا هو « النظرة المحددة لانفسنا ، وللحياة »

ما نحن ... ؟

بشرية ناميـــة تدور حـــول الشمس ، وتتفاعل مع التطور السيار ...

ام بشرية محنطة جعلتهـــا الاقدار آية زاجـــرة للذين لا يؤمنون بالمسايرة والتجديد ؟

وماذا نريد .. ؟

ان نظل سوائم ذللا ـ ننشد الراحة . ونخلد الى الارض ..

ام نحترم آدميتنا ، فننشد الحرية بلا وجل .. ونكرس حياتنا لتحقيقها والظفر بها ؟

وما الحياة .. ؟

أهي ألغاز ، ومعميات . غاية سعينا أن نفلسفها ونفهمها ..

ام هي سعادة متاحة تنادينا لننالها ونحياها ؟

نعم . نريد من الحياة ان نحياها . فكيف السبيل .. ؟

السبيل ـ ان نجيب أولا على هذا السؤال ...

هل نحن سكان غاب .. أم سكان وطن .. ؟

اذا كانت الاولى ، فلندع أمورنا تسير اذن على النحو الذى تسير عليه حياة الغاب

واذا كانت الثانية فلابد ـ وهذه حقيقة يجب ان نتقبلها بشجاعة ـ لابد من ان نستأنس ونحقق لانفسنا معنى المواطنية ـ كاملا غير منقوص .

واذن، فالمواطنية . هي المحور الذى نختاره لننظم حوله شتى قيمنا ، وكافة معاييرنا .

المواطنية ـ يا مواطنى العزيز هى من الآن مثلنا الاعلى .

المواطنية ـ هى من الآن هدفنا المجيد المفدى .

المواطنية ـ ان تكون فى وطنك مواطنا ـ لا مستوطنا .. وان تكون فى المجتمع كفؤا وندا ـ لا تابعا ولا عبدا .

والمواطنية ـ تقتضيك ان تكون فاضلا ، لالمجرد حب الفضيلة وخيرا ـ لا لمجرد الرغبة فى الخير . . بل لتكون ياصاحبى جديرا بوطنك ..

ونستطيع الآن ان ننصت لمؤلف « التربية لعالم حائر » يحدثنا عن المواطنية حديثا بليغا (١)

« .. اذا نظرنا الى المواطنية نظرة صحيحة ـ وجب ان تشمل جميع اعمال الانسان التى تمس بنى جلدته ، وتؤثر فى سلامة الدولة ورخائها ـ وتكاد تكون صنوا لواجباته نحو جاره ، وتتضمن هذه المواطنية كل شىء **تقتضيه شرائع الدولة ، ويتطلبه الضمير الانسانى .**

«وليست المواطنية شيئا سلبيا ـ اى مجرد امتناع المرء عن التصرفات الغير وطنية . بل هى عمل ايجابى . وفى هذا يقول «بركليس» ـ اننا لانعد الرجل الذى يقف موقف العزلة امام الواجبات العامة رجلا هادئا . بل نعده رجلا لا خير فيه .. ويقول «بيرك» الحياة العامة مركز للسلطان والنشاط . والرجل الذى ينام اثناء نوبة حراسته يذنب فى حق الدولة عليه ، شأنه فى ذلك شأن من ينضم الى أعداء بلاده .. »

ويستطرد لفنجستون قائلا :

«والدولة المثلى هى التى يعقد كل مواطن من مواطنيها العزم على أن يكون جزءا من المجتمع الذى يعيش فيه ، ويساهم فى اعبائه ويضع مصلحة المجتمع قبل مصلحته الخاصة ..

« وهذه الدولة آلة لا نجد فيها جزءا واحدا من أجزائها معطلا ، او خاملا ، او صادئا ، او مكسورا ، **او موضوعا فى غير موضعه** .. وفيها يساهم كل ترس بقسطه الكامل من العمل فى سرعة وتناسق ..

« فالرجل الذى يتملص من اداء الضرائب المفروضة عليه ـ

---

(١) هو سير وتشرد لفنجستون ومعرب الكتاب ـ الاستاذ وديع الضبع .

مواطن ردىء ، ومثله ايضا الرجل الذى لا يفكر حين يدلى بصوته فى الانتخابات البرلمانية الا فى مصالحه الخاصة ، او يهمل الاقتراع بتاتا ـ وتلك ايضا حال صاحب العمل الذى يضاعف مشاكل وطنه بسوء معاملة عماله ... ومثل هؤلاء ايضا ارباب المكاسب الفاحشة ، وتجار السوق السوداء وعملاؤها ، والذين يؤثرون مصالحهم الخاصة حينما تكون مصائر بلادهم فى كفة الاقدار .. »

بهذه البسطة من الفهم ـ صور لفنجستون جغرافية المواطنية ، ووضح معالمها ، وضرب الامثال للتبعات الشداد التى تفرضها على اصحابها

ان المواطنية ، كما راينا ـ دين يدعو المواطن الى بذل الواجب من اجل الوطن ... ويدعو الوطن الى تمكين الفرد من اداء الواجب

هى الا تعيش فى بلادك محايدا ـ بل مجاهدا ...

هى ان تحترم حقوقك ، وتمارسها حقا حقا ..

هى ان تدوس مصالحك الخاصة ـ عندما تصبح مصاير بلادك فى كف القدر ..

وهى ان تعامل الدولة اعضاءها ـ باعتبارهم مواطنين ـ لا رعايا ...

وان توقظ فى ضميرها معانى الانسانية والكرامة ...

وان تضع كل مواطن فى مكانه . وتتحدى كل اعتبار آخر يفتح للمحاباة الطريق ..

وان تعدل ـ ليس فقط فى توزيع الخبز .. بل قبل ذلك فى توزيع الواجبات والحقوق .

وان ترفع لواء المساواة ـ ليس فقط بين الناس ، والناس .. بل وبين العمل والجزاء ... فالاشراف العاطلون الذين لا

يعملون شيئا . يجب ان يحرموا من كل شيء ، واذا اغدقت الدولة عليهم تكريمها فقد انتهكت كرامة المواطنين ، وحطمت معنى المساواة ...

والعاملون الكادحون يستحقون التقدير والتوقير ـ فاذا بخلت عليهم الدولة ، وازدرتهم ، فقد باءت بشر ما يبوء به الظالمون !!

بقي شيء آخر ، هو اسمى ما تتيحه المواطنية للناس ـ الكرامة .

فاظما ان ابدى لي الماء منة ولو كان لي نهر المجرة موردا
ولو كان ادراك الهدى بتذلل لصار الهدى الا اميل الى الهدى

واذا لم يجد المواطن من دولته الحرص على كرامته ، فما اصعب الاحتفاظ بها والحرص عليها ..

هؤلاء الذين جاعوا ، فسرقوا !

وهؤلاء الذين وجدوا طريق الوصول ـ التملق ، فتملقوا ونافقوا وهانوا ...

وهؤلاء الذين رأوا الدولة تهملهم ، فاهملوها ..

وحسبوها تخونهم ، فخانوها

هؤلاء ـ وهؤلاء ـ ما الذى اغراهم بالكرامة والواجب .. ؟

انه اهمال الدولة لا ريب .. اهمالها الاخذ بمبدأ السوائية بين مواطنيها .

ومالم نقض على مظاهر التمايز غير المشروع ، فستظل امة بطيئة الاحساس بكرامتها .. !

الغوا هذه الالقاب ..

ومسألة الالقاب في مصر من اهم مسائلنا ـ قد يراها بعضنا مسألة شكلية تافهة .. وهذا منهم حسن ظن عجيب .

والحقيقة أن الالقاب فى بلادنا مصدر قلق وازعاج للكرامة القومية . بل والانسانية ..

انها اذلال لكبرياء الشعب ، وايغار لصدره ، وارباء لروح الطبقية المقيتة فيه ..

واذا كان لابد من مثوبة شرفية تستحث بها الدولة مواطنيها نحو التبريز والتفوق والكمال، فلتكن كلمة « مواطن »

صحيح ان لقب « مواطن » حق طبيعى لكل فرد فى وطن ..

ولكن الدولة حين تمنحه احدا ـ يكون اعترافا منها بانه قد ادى واجبات المواطنية، واستحق تكريم الدولة واحترامها ..

اما لقب « باشا » مثلا ، فهناك اكثر من سبب يحتم علينا هجره والغاءه .. فهو ـ

أولا ـ لقب غير وطنى ، وهو من بقايا الاستعمار التركى العثمانى . والامة التى تعجز حتى عن تمصير القابها ـ امة ساقطة من عين التقدم والنجاح .

ثانيا ـ هو رمز بغيض للباشوات الاتراك الذين كان السلاطين يولونهم أمرنا ، فيقتلوا آباءنا ، ويستحيوا نساءنا .. وينهبوا ارزاقنا ..

ثالثا ـ ان اول رتبة «باشوية» انعم بها فى مصر ـ كانت ثمن خيانة اقترفها المنعم عليه ..

فقد حدث عندما غزا بلادنا سلطان البرين، وخاقان البحرين .. السلطان سليم ـ أن انحاز اليه امير شركسى اسمه «خيربك» وقد لعب هذا الرجل دورا هاما فى تصفية المقاومة ، وتعبيد الجماهير للغازى سليم ، فاجتباه وانعم عليه بلقب « باشا » .. !

وهكذا ظهرت الباشوية فى مصر .. وتوالت علينا بعد ذلك أرجال الباشوات كأنها جراد منتشر ..

وكان لقب « باشا » رشوة تركية يغرى السلاطين بها سفهاء الاحلام والنهى ، ليتفانوا فى خدمتهم التى تقوم على الجبي والظلم .. !

وكانت ايضا أداة يتوسلون بها لاذلال الشعب ، واشاعة الشعور بالدونية فى نفسه امام طبقة الباشوات العاطلين .. !

فلماذا اذن نبقى على القاب غير مصرية .. القاب حملها من قديم الزمن اناس شردونا ، واستباحوا دورنا وحمانا .. ؟

القاب كان لها منذ حين قريب سماسرة يتجرون بها علنا ... ويبيعونها جهارا نهارا ...

يقول المواطن : « احمد لطفى السيد » فى مذكراته المنشورة بالمصور العدد (١٣٥٤) :

« من اجل هذا الشرف الوهمى تهافت الناس على الرتب والنياشين ، وصارت تباع فى ذلك العهد ، وتحدثت بها الصحف عام ١٩٠٨ - وقد كان لها سماسرة يسعون فى الحصول عليها لمن يدفع الثمن ، واصبحت تعطى لا مكافاة على عمل من اعمال البسالة .. ولا على خدمة من الخدمات العامة ، بل لعملاء السماسرة الذين يشترون القاب التشريف .. وكان السمسار ياخذ المقدم من المشترى ، فاذا تم التشريف اخذ المؤخر ..

« وكانت الحكومة فى ذلك الوقت تسكت عن هذه الحال لتجعل الناس دائما يهتمون برضاها عنهم .. فهى تلعب باهوائهم ، وشهواتهم ، وتأسرهم بها ...

« **وتلك عادة الحكومة الاستبدادية القديمة قد تسربت الى الحكومات الحديثة فكانت اثرا من آثار الاستبداد الاولى »** !

ارأيتم .. ؟

أولئك هم الباشوات الذين كان أجدادنا يرتعدون امامهم فرقا .. لم يكونوا على شيء من العلم ، ولا من الصلاحية ...

ولكنهم اشتروا من السماسرة لقبا فضفاضا يسترون به هزالهم، ويتالهون به على العباد .. !

ما اروع ابن عبد الله ـ حين ناداه صحبه ـ انت سيدنا ، فقال غاضبا :

لا يستهوينكم الشيطان .. ولا تقولوا عنى « سيد » .. انما انا عبد الله ورسوله .!!

ثم ما ابلغ العبارة التى رفض بها « برنارد شو » الالقاب الكثيرة التى عرضت عليه :ـ

« انها قيود من ذهب .تضطر الانسان لان ينحنى كى توضع فى رقبته » ..!

وما اشد حاجة الامة التى تحللت شخصيتها وتلاشت الى نبذ مظاهر التمايز ، واماطة «الالقاب» عن الطريق .. ان اللقب دثار يغطى عرى لابسه.. عريه الوطنى وعريه الاخلاقى

الم يكن كذلك ، لخير بك . .الذى صار خير بك باشا.. فغطى خيانته الى حين ..؟

ونحن على يقين من ان الذين يسفكون كرامتهم .. ويهرقون ماء وجوههم لينالوا لقبا ـ انما يحفزهم لهذا الرغبة المنحطة فى التبذخ على الشعب .. فلنقطع عليهم السبيل .. ولننتزع عن اعناقنا هذه الاطواق .

وبعد ، فهل يمكن ان نكون مواطنيين بلا وطن .. ؟

لقد وضحنا فى هذا الفصل الى حد ما الوسائل التى تفضى بنا الى انهاض شخصية الشعب كى تعمل ..

ولكن اين تعمل اذا هى لم تجدلها مجالا . .

لابد لنا من وطن .. يكون خالصا لنا دون المستعمرين والمستغلين ..

ومصر – هى الارض التـــى درجنا منهــــا ، ومهدنا فيها ، ورضعنا بلبانها . .

ولكن الاستعمار اختلسها منا . . وصيرنا فيها غرباء وصبغ كل مقوماتهــا بلونه ، ومن اردأ من الاستعمار صبغة . . ؟

ومهمتنا الكبرى تحرير الوطن

فكيف السبيل ؟

تمصير مصر ..

« لتكن غايتنا فى الحياة ـ بلادنا
« بلادنا وحدها ..
« وبلادنا كلها ..
« ولا شيء الا بلادنا »

دزرائيل

فى الفصل الاول من الكتاب رأينا كيف دخل الانجليز مصر وكيف دخلها قبلهم الاتراك . ثم كيف صار بعضهم لبعض ظهيرا.

وقلنا ـ ان الاستعمار التركى قد اختفى حكامه ـ وبقيت تقاليده وشعائره واحكامه .

ولكى نمصر مصر .. لابد من أن ننفى عنها هذه البقايا ـ ونطهر حياتها من تلك الشعائر والاحراش وذكرنا ان الطريق لهذا ـ هو الحرية الغامرة ،وتقويم شخصية الشعب ، وشد زناد الكرامة والكبرياء فيها ـ وفى هذا الفصل نتدارس الوسائل المفلحة التى نمصر بها مصر من الاستعمار البريطانى .

وخليق بنا أن ندرك بادئ الامر ، أننا حتى اليوم لم نحدد وعينا لهذا الاستعمار ، ولم نحدد الوسائل المجدية فى مكافحته وطرده .. ولعل سبب ذلك أننا لم نؤت بصرا كاملا باخطاره واوزاره ومدلوله .

فالكثرة الغالبة منا تولى وجهها شطر الجيوش الرابضة فى القنال . ثم تتميز من الغيظ .وتظن ان هذا الاحتلال المسلح هو وحده ـ الاستعمار البريطانى

علينا أن نتعمق فى فهم هذا الاستعمار ونفوذه .

وعلينا قبل الخطوة الاولى أن نعلم أن هذه الجيوش المعتدية التى « برطنت » منطقة فايد ،وجعلتها مدينة انجليزية كبرى

هذه الجيوش التى تسبب لنا الضنك والغلاء بما تستهلكه من منتجاتنا الزراعية استهلاكا تنوء بحمله الارقام .

هذه الجيوش التى تطأ بنعالها كرامة الشعب وطموحه ـ ليست الاحتلال البريطانى ، ولكنها فقط مظهر من مظاهر الاحتلال .

ومن الممكن جدا أن تجلو القوات البريطانية عن ديارنا ..

ويظل جاثما ينشر وباءه وبلاءه . وانه لامر مؤسف ان تغيب هذه الحقيقة عن بصائرنا ..

الا تذكرون الايام الغبية التى حشدت الدولة فيها كل مظاهر الحفاوة والفرح بعيد الجلاء . جلاء بضع كتائب عن (القاهرة) فهللنا وكبرنا ، ونحن نعلم انها استعسكر على بعد خطوات ..؟!

لقد كانت هذه الظاهرة ، ولاتزال آية على اننا نحس حقوقنا احساس العبيد لا احساس الاحرار . ولقد كان مثل الانجليز معنا بهذا الجلاء . كمثل لص تسور الابواب ، واقتحم الدار على اهلها ، واشاع فى البيت الرعب والغش والفساد .. ثم اخيرا تفضل وتكرم ، وقرر ان يدع لاهل البيت غرفة النوم .. ويذهب هو ببقية الحجرات ..!

فلننظر الى الاستعمار نظرة واعية شاملة . ثم لنمض فى طريق اجلائه أو افنائه .

***

النفوذ ، والاحتلال

قلنا : ان الاحتلال العسكرى لمصر مظهر من مظاهر الاستعمار – ولا يزيد . . وهو وان يك اكثر المظاهر بشاعة ودناءة ، وافعلها فى اثارة كوامن الحقد والثار – الا انه لاينبغى ان يشغلنا به وحده عن بقية المظاهر والآثار .. بل يجب ان يتجه كفاحنا اليها جميعا بعد حصرها وتحديدها ..

والاستعمار يعتمد هنا على شيئين .

ا – النفوذ السياسى ..

ب – الاحتلال العسكرى . .

ولنبدأ بالحديث عن أولهما .. متتبعين نقط ارتكازه ثم باحثين عن طرائق ابادتها واجتثاثها ..

النفوذ السياسى .

ان بريطانيا تسيطرعلىحياتناووجـــودنا سيطرة سياسية محيطـة .. وآراؤها ،وخططهاهى عجـلات الآلة الدوارة . . ونحن ـ شعبا ودولةـلسنااكثرمن الصـــوت الخارجى لهذه العجلات ..

انتـــــا امة لاتريد .. بل يراد لها ..!

● يراد لها أن تنشىء جامعـةعربية ، تزيدها وهنا على وهن ، فتنشئها ..

● ويراد لها أن تبرم معاهدةلتوكد مشروعيـــــة الاستعمار فتبرمها ..

● ويراد لها أن تخوض حروبامرتجلة ، فتخوضها ..

● ويراد لها عام «١٩٢١» أن تدخـــــل فى مفاوضات مع مستعمـــريها لتمزق وحدتها ،فتدخل فيها ..

● ثم يراد لهـــا الدخول فى مفاوضات أخرى ـ هى امتداد لنفس المفاوضات القـديمة جدا.. فتسارع وتتهافت ..

● يراد لهـا أن يحكمها هذاالحزب ، فيحكمها .. ثم تتغير المشيئة ، ويراد لهـا أن يحكمهاحزب آخـر ، فتتم الامور على مايراد ..

ونحن فى كل هذه النقـــل والتغييرات والاحداث نظن اننـا نتحرك بارادتنـــا ، ونفكر بعقولناونقف على ارجلنا ..!

ان تطهـير «الارداة المصرية »من هذا النفوذ السياسى ، لايقل اهمية عن تطهير«الارض المصرية»من الاحتلال العسكرى ـفاذكروا هذا جيدا . ودعونا نسأل : على أى شىء يرتكز النفوذالبريطانى؟.

هذه نقط ارتكازه ..

١ ـ المعاهدات :

عند مايريد الاستعمار استعبادامة واستثمارها يحاول جاهدا ان يربطها بعجلته عن طريق صك عبودى ـ يسمى فى اللغة المظلومة .. « المعاهدة » ! وبريطانيا تعلم ان هذا العصر الذى تعيشه الانسانية ليس عصر احتلال بالجيوش . فالشعوب تنفر من رؤية الغزاة يروحون فى بلادها ويجيئون .. لذلك فهى تستعيض عن الاحتلال العسكرى بالاحتلال السياسى ـ اى بالمعاهدات .

وعن طريق المعاهدات يصلون الى كل الاغراض التى كان الاحتلال المسلح يحققها لهم

فباسم المعاهدات يحرمون حليفهم من التسلح ..

وباسم المعاهدات ـ يثيرون فى الشعب الحليف كل أنواع الفتن والمؤامرات ..

وباسم المعاهدات ـ تجتاز طائراتهم المناطق الحرام عنوة واقتسارا ..

وباسم المعاهدات ـ يحاصرون قصر الملك الذى تخالفهم حكومته ...

وباسم المعاهدات ـ تؤخذ اقوات الشعب وخيراته ليطعم بها الجيش المحتل ـ ولتباع الى الدول المعادية التى انشاها حلفاؤنا انشاء لتكون لنا شوكة الجنب على الدوام ..

وباسم المعاهدات يجترح الاستعمار ـ وهو يبتسم ـ كل المقابح التى كان يقترفها ، وهو يزمجر .. !

والدليل الذى ليس بعده دليل على ان المعاهدة هى بديل الاحتلال العسكرى .. تشبث بريطانيا بعقدها معنا .

لقد كنا نحسب اننا خلقنا فقط لنتألم .. ثم نموت .. بيد اننا

تبينا أخيرا ـ اننا خلقنا لنتألم . ونحالف بريطانيا .. ثم نموت .!
لماذا نحالفها ..؟ وهل تشجع سوابقها على بناء حلف معها .؟

لقد حالفناها بمعاهدة «٣٦» وكان لهذه المعاهدة معنا قصة البغاء التى تجيد جميع اللغات.

او تعرفونها معشر الزعماء .؟

اقرءوها ، فقد ترون فيها فائدة ودرسا ..

***

رووا ـ ان رجلا كان يملك « ببغاء » أعياه غباؤها المطبق ، فاجتهد ان يعلمها فقط هذه العبارة « لاشك فى ذلك » !

ثم خرج بها الى السوق ونادى :

ـ من يشترى ببغاء تتكلم بجميع اللغات ..؟ ـ وساق الحظ اليه زبونا مغفلا تقدم اليها وسألها :

هل تجيدين جميع اللغات .؟ أجابت : لاشك فى ذلك ..!

فاستخفه الطرب ، ونقد صاحبها كل ما معه من مال ـ

وهناك فى قصره الكبير ، أقام لها حفل استقبال دعا اليه أصدقاءه من كل نحلة ولسان ،

وبعد تناول المرطبات قدم اليهم ، أو قدمهم الى ببغاء الشرف والكمال .. وأخذ كل منهم يخاطبها بلسانه . وهى لا تجيب بغير هذه العبارة ـ لا شك فى ذلك ..!

وأدرك صاحبنا هول الكارثة ـ فلما انصرف الضيوف اقترب منها فى خطوات متهالكة ودار بينهما هذا الحوار : ـ

هو ـ اذن ، فانت لا تعرفين شيئا .. ؟

هى ـ لاشك فى ذلك .

هو ـ واذن فانا مغفل مخدوع .؟

هى ـ لاشك فى ذلك ..!

وحملهـــا من فوره ، ومضى يبحث عن بائعها حتى اهتـــدى اليه ـ وهناك اجلســـها امامه وسألها : ـ

ـ ان بائعك هذا أفاق وغشاش ـ أليس كذلك ..؟

اجابت ـ لاشك فى ذلك .!

قال ـ ويســـتحق الزجر والعقاب .. ؟ اجابت : لا شـــك فى ذلك .

وقذف بها فى وجهه ،واسترد ثمنها ومضى ..

***

اليست قصـــة هذه الببغـــاء هى بالضبط قصة معاهدة «٣٦» مع فارق هام .. هو ان مخدوع الببغاء مسح الاهانة عن نفسه، واسترد حقه المنهوب ..

لقد رجع زعماؤنا الينا ذات يوم يحملون معاهدة جعلوا منها « ملكة جمال » المعاهدات ..!

وفى غمرة الحفاوة بها ،وقبل أن يجف مدادها سألناها :ـ

ـ ايجوز ان يبيعنا الانجـليز غداة توقيعك ذخيرة «كذابة» .؟

اجابت : لاشك فى ذلك !

ـ أيليـــق أن يتخـلوا عن التزاماتهم نحـــونا فى معـــركة فلسطين ؟

اجابت ـ لاشك فى ذلك .!

ـ ايجوز ان يتقاضوا منـــا ثمن أسلحة .. ثم يحنثون بالعهد ويبيعون السلاح لاسرائيل ؟

اجابت ـ لاشك فى ذلك !

ـ ايجوز ان يشيدوا فى بلادنا مدائن باذخة ، بعـــد أن كانوا

يسكنون قصرا متداعيا على ضفة النيل ..؟

أجابت : لاشك فى ذلك .!

أيجوز أن يمخروا مياهنا حاملين البترول والمعدات لاسرائيل التى لا تزال تتربص بنا ..؟

أجابت : لاشك فى ذلك .!

ــ اذن ، فلست معاهدة شرف واستقلال .. ؟

أجابت : لاشك فى ذلك .!

ــ واذن ، فنحن مغفلون مخدوعون ..؟

أجابت ــ لاشك فى ذلك .!

***

ان كل معاهدة تعقد اليوم ، او تبرم غدا مع بريطانيا لن تكون احسن حظا من سابقتها

وان الطريق الوحيد المفضى لعهد شريف ابى عزيز ان يجلو عن بلادنا النفوذ السياسى والاحتلال العسكرى لبريطانيا . ثم بعد ذلك نفكر بعقولنا ، ونريد لأنفسنا بأنفسنا .. اما معاهدة يساومنا بها المستعمر على استقلالنا ــ فأهون منها عدمها .. وبقاء الاستعمار غير متلفع بأردية كاذبة خادعة من الاتفاقيات والمعاهدات .

أيجوز بعد كل هذا أن نحالف الذين جعلونا سخرية وهزوا ؟

لقد خادع حلفاء الرسول حليفهم مرة واحدة ، فقطع الله حبال هذا العهد فى سورة عاصفة ابى ان يبدأها ببسم الله الرحمن الرحيم حتى تأخذ طابع القسوة والازدراء والهجوم فقال تعالى :ــ

« براءة من الله ورسوله الى الذين عاهدتم من المشركين »

ثم رسم الخطة لتنفيذ هذا الفسخ فقال :

ـ « خذوهم . واحصروهم . واقعدوا لهم كل مرصد » .!

وانجلترا نفسها تأست بالقرآن فى ظروف مشابهة .. مع انها كانت تمثل جانب البغى والعدوان .. فحين هب رشيد عالى الكيلانى فى وجهها قالت : هذا خرق للمعاهدة . وبعد ساعات . كانت السماء تمطر جنودا حاربوا العراق حربا خاطفة عصوفا

ولقد كان الوضع الطبيعى ، وقد خرقوا ما بيننا من عهد اكثر من مرة ان نصنع ما كانوا لابد صانعيه لوانهم مكاننا ـ فنأخذهم .. ونحصرهم .. ونقعد لهم كل مرصد وطريق .

* * *

قد يقال : ان بريطانيا اليوم غيرها فى الامس البعيد والقريب ـ بريطانيا العمال ـ غير بريطانيا المحافظين الا فلنستمع اذن لآية فاصلة من انجليزى عريق تمرد على سياسة بلاده وحرض عليها جميع البشر وكشف للناس عن « ثعبانيتها » وتأصل الغدر فيها ـ ذلكم هو توماس بين

فلننصت لكلمته .. ولنحفظها ولنلقنها صغارنا والكبار ..

« هل تستطيع أن ترد الى المومس طهارتها الاولى .. ؟ ان السياسة البريطانية كذلك ـ فقدت الى الابد شرف القصد ، وطهارة الضمير » ! !

ولكن قد يقنعنا الانجليز بأن « بين » كان رجلا آبقا عاقا ..

فلندرس اخلاق سياستهم اذن على ضوء عبارة اخرى قالها قطبهم الاكبر « دزرائيلى » واتخذوها مبدأ وشعارا ـ تلك هى : ـ

« اكذب ... واكذب ... ثم اكذب دائما ، فلابد أن تجد من يصدقك » ؟!!

ان الانجليز لا يصلح معهم عهد ابدا ـ الا اذا كان مع قوم

أولى بأس شديد يخافونهم ويرهبونهم ..

ونستطيع ان نفترض حسن نيتهم اذا عاهدناهم من جديد ، وننسى طفاوتهم وفسادهم الكبير .. ولكن مع هذا ايضا لا يكون من صالحنا قط أن نتخذهم حلفاء أو أصدقاء ..

لماذا ..؟

لأن الانجليز تعودوا دائما ان يتخذوا من حليفهم « كبش الفداء » ولقد ذاق الامريكان أنفسهم مرارة هذه التجربة ، وسربوا غيظهم أيام الحرب الاخيرة في سخريات .. فمثلا :

دخلت سيدة امريكية المسرح ، فوجدت الجنود الانجليز يحتلون جميع المقاعد الامامية ، فقالت :

ـ ان الانجليز في المسارح يحتلون الصفوف الامامية ـ ويتركون الخلفية لنا ـ ولكنهم في الميدان يحتلون الصفوف الخلفية ، ويتركون الامامية لأبنائنا ..!

هذا تعبير رائع ، وفهم دقيق لأخلاق الانجليز فالمعاهدات التي تربط الضعيف بالقوى ستكون من باب أولى غير متكافئة ، وستكون ثمرتها مشروعية الاحتلال وأحر بنا ان يحتلنا الانجليز باكراه ، من ان يحتلونا بمعاهدة ورضا واختيار .

***

شاهد من اهلها

ثم ان اى معاهدة جديدة تربطنا بالانجليز ، سيكون عصبها الدفاع المشترك .. وهذا الدفاع المشترك .. كائنا ما كان اسمه وطريقته ـ يقف في الوجهة المغايرة للسيادة والاستقلال ..

ولسنا نحن الذين نقول ذلك ـ بل هو السيد « بيفن » نفسه ـ والى زعمائنا الابرار .. نقدم هذه العبارات التي قد تنير لهم الطريق .

في نوفمبر سنة ١٩٤٥ ـ وقف مستر بيفن يخطب في مادبة الغرفة المصرية البريطانية فقال مخاطبا الاعضاء المصريين :

« .. ولكن يجب ان يبقى ما ندعوه بالدفاع المشترك . لأنه لا غنى لأحدنا عن الآخر ـ وان الاستقلال آت لا ريب فيه .! »

اذن فالدفاع المشترك شيء آخر ينافى الاستقلال ولا يظاهره

وبيفن يريد منا سنة ١٩٤٥ ان نوافق على الدفاع المشترك . ويطمئننا على ان الاستقلال آت فى ميقات مجهول . . قد يعلمه « بيفن » ولكن المصريين آخر الذين يعلمون . . . والذين لا يعلمون . . !

وبهذا المقدار من الحديث نرجو ان نكون قد وقفنا على ماف التحالف مع الانجليز من غرم وبوار .

وسنتحدث عن وسائل الخلاص بعد ان نتم سرد بقية القواعد التى يرتكز عليها نفوذ الاستعمار .

ب ـ الارجاف بالشيوعية والحرب

ان بريطانيا المومس ـ لن تسترد طهارتها الاولى ـ هذا اذا كانت السياسة البريطانية قد اتى عليها حين من الطهر والنقاء ،

انظروا .. ان اسلوبها الاستعمارى لم يتغير .. والاحفاد من ساستها يسيرون وراء الاجداد حذو النعل .. بالنعل . .

فيوم دخلت بلادنا لاول مرة . زعمت انها آتية لتثبيت سلطة الباب العالى ، وطرد الفرنسيين الطغاة . .

وكانت انجلترا يومئذ تتزعم حركة مقاومة عنيفة للثورة الفرنسية .. ولما يمكن ان يترتب عليها من تغيرات اجتماعية خطيرة . .

ويوم استولى هتلر على حكم بلاده . . وقف رئيس وزراء بريطانيا آنئذ وقال : ـ

« يجب ان نعاون الالمان على النمو والتسلح حتى نشرد بهم من وراءنا من الروس الخطرين . »

وفى سنة ١٩٣٦ - بدات انجلترا نفسها تتزعم مقاومة عاتية ضد النازية - وضحكت علينا يومها واختلست منا توقيعا على معاهدة فاشلة هى معاهدة « ١٩٣٦ »

واليوم لا خوف من ثورة فرنسية ، ولاخوف من النازية . فبم تبرر انجلترا بقاءها .. ؟بالشيوعية طبعا .. !

فلتكن الشيوعية خطرا على بريطانيا كل الخطر ..

ولتكن بريطانيا موطدة العزم على محاربتها فى عرينها الاول روسيا . .

ليكن ذلك ..

ويبقى ان نتساءل : ما صلتنا نحن بهذه الفتنة ؟

ما لنا وبريطانيا تحارب او تحارب ، تظفر او تهزم .. !

هل نحن احدى كتائب جيشها الثامن .. ؟

او نحن واياهم كما قال الشاعر العربى القديم :

اكلما حاربت خزاعة تدعو نى كانى لامهم جمل ؟

ان « الشيوعية » ضوء احمر تسلطه بريطانيا على عيون الحاكمين لتزيح به ابصارهم عن الهدف المتمثل فى طردها ، واجلائها

ما ذا كان يعنى بيفن حين قال اكثر من مرة - وفى مناسبات عدة . . ان الشيوعية لن تسمح ببقاء الباشوات اذا دخلت مصر .؟!

قالها مرة فى حديث صحفى . . وقالها لسفيرنا فى لندن ونشرتها مجلة المصور ضمن الوثائق السرية التى اذاعتها عن محادثات « عمرو - بيفن »

اليس ذلك ارجافا وتخويفا تهدف السياسة البريطانية بهما

الى فل ارادة الباشوات والحاكمين وعزلهم عن حركة المقاومة التى يدخرها الشعب للانجليز ... ؟

لكن الباشوات الذين عرض بهم بيفن سيخلفون ظنونه . . والذى يتخلى منهم عن جهاد امته لن يضيرنا ولن نعير به – لانه ساعتئذ لن يكون مصريا .

الم يقل لنا « توماس بين » – ان المومس لا تسترد طهارتها الاولى .. ؟

ان السياسة التى احتفرت وقيعة قديمة بين توفيق وعرابى، وبين الباشوات والشعب . . تريد اليوم ان تلعب نفس الدور، فتلقى فى روع الحكام والزعماء ان الشعب يترصد لهم لينهى حيواتهم بفاجعة .. ويوهمون الشعب ان كبراءه ، وحكامه – يعملون معهم ضده . .

ولن تقر للمومس عين حتى تحقق اليوم نفس النتائج الاثيمة والوخيمة التى حققتها بالامس .

وهذا يفتح أعيننا على نقطة الارتكاز الثالثة التى يعتمد عليها نفوذ الاستعمار .

شحذ بأسنا بيننا .

والسياسة البريطانية لكى تبقى وتسود ، تورى نار البغضاء والفرقة ايراء موصولا .. وتذر شعبنا المسكين يمور فى حديدها المفرغ ، وصخرها الاصم . .

وهى فى ذلك ذات براعة ومهارة . . ليست كالمغفل الاكبر « موسولينى » الذى كان يقيم لرعاياه المتذمرين حرب «المقلاع»!

بل هى تضن علينا حتى بثمن الرصاص الذى تفرغه فى صدورنا . . وتتركنا نحن نشترى الرصاص بأموالنا – ثم تحرضنا، فنطلقه لا فى دماغ الاستعمار فنفجره تفجيرا .. بل نمزق به أنفسنا ، ونهرق به دماءنا . .

وهى تعتمــد فى تاليب بعضناعلى بعض على بــلاح تناهى فى الخطورة هو ـ تشريد الثقة التى تربطنا ، واشاعة روح الاتهام فى المجتمع .. ولقــد افضى سعيهاالحثيث فى هــذا السبيل الى ما نحن فيــه اليوم من استرابة فى كل اخــلاص ، وتصــديق لكل شائعة واتهام .

لقد قلنا من قبل : ان لبريطانياسفارة اخرى غير رسمية .

سفارة مجهولة تحيط بكل شىء علما .. وتملأ ضمير الامة شــكا وريبا ..

ومهمتها الاولى تشويه سمعةالزعماء والناصحين حتى لا يؤمن بهم الشعب ..

وهذا نبا قريب ، من آلاف الانباء التى توكد هــذه الحقيقة اعمق توكيد .

ـ فى اثناء الحرب الاخيرة ، اوفى بداءتها ـ وقف الاستاذ الاكبر المبرور الشيخ « محمد مصطفى المراغى » وقال فى خطاب احــد اعياد الهجرة :

« ان العالم الاسلامى لن يخوض حربا لاناقة له فيها ولاجمل .. »

وفى صــبيحة الامســية التى اذيع فيها هذا الخطاب ـ كانت شعوب الشرق الاســلامى تردد ـ فيما نظــن ـ هــذه العبارة المستنيرة ..

واسرها الانجليزفى انفسهم .. واصدرت السفارة غير الرسمية اوامرها الى « لجنــة الاشاعات والتهم » ان تشكك الجماهير فى قيمة الشيخ المراغى ، وفى سلوكه .. وذات يوم ، وفى اعقاب صلاة الجمعة ، اذا بالسماء تمطر سيلا من المنشــورات .. تزعــم ان الشيخ المراغى حضر ليلة «كذا» حفلة ساهرة بالسفارةالانجليزية .. وانه شرب الخمر حتى فقدصوابه .. !

ان الانجليز لا يهدفون بمثــل هــذا التشهير الى هدم القيمــة

الشخصية والشعبية ، للمواطن المخلص وحسب . . بل هم يستهدفون غاية ابعد ، وهدفا اخطر . .

فهم يعلمون ان مجرى حياة الامة هو مزيج احساسها وتفكيرها - وتسميم هذا المجرى يتاتى بجعل الاتهام وسوء الظن بعض عناصر شعورنا وتفكيرنا - ليفسدوا علينا امرنا كله .

وهم قوم لا يعجزهم ان يفتاتوا ويكذبوا -

ان نبيهم دزرائيلى علمهم ان يكذبوا - ويكذبوا دائما . . فلا بد ان يجدوا من يصدقهم . .

ولقد وجدوا فعلا من يصدقهم . .

وا اسفاه علينا . . !

ما اسرع ما نصدق ، وما اسرع ما نحاكي . . فنحن لم نصدق خرصهم فحسب . . بل ذهبنا نحاكيهم فى الارجاف ويلتمس بعضنا لبعض التهم والعيوب

كثيرون منا من اشبع بهذا السلوك النفسى روحه . . وصغا اليه قلبه . . وصار يعتمد فى محاربة مخالفيه فى الراى على هذا السلاح الموتور .

وان اقدامنا لتتعثر بهؤلاء الذين وقفت اخلاقهم عن النمو . . اذا جاءهم احد بما لا تهوى انفسهم ، قالوا :

هذا صنيع جماعات تبشيرية - وطليعة حرب صليبية . . او مؤامرة شيوعية . . !

وقد تلتقى بهؤلاء المرجفين انفسهم يقولون فى غباء مضحك :
- ان الاسلام اخذ الشيوعية ، واخذ المسيحية ، وصنع منهما معا نظاما اسمه الاسلام . . ثم لا يتهمون انفسهم - طبعا - بانهم شيوعيون ، ولا صليبيون !

مساكين . . انهم ضحايا الاستعمار الذى افسد علينا انفسنا . . وشرد ثقتنا بها ، وبالآخرين .

الخداع بالهيئات الدولية ..

ان الاستعمار يؤمن بعلم النفس ، ويعتمد عليه اعتمادا كبيرا . وهو يعلم روح العصر الذى نعيش فيه .. هذا الروح الانقلابى المتحرر الذى لا يريد أن يرضخ لضيم ، ولا ان يسام كما تسام القطعان ..

لذلك اصطنع هيئات دولية تكون أداة تنفيس ، وتسرية ، ومماطلة ..

فلو لم يكن فى الدنيا آفة تسمى « مجلس الامن » لكانت مصر قد حلت قضيتها بسواعدها ـ يوم كانت تمور مورا عنيفا عقيب وضع الحرب أزارها ..

ولكننا اتجهنا الى مجلس الامن، وهيئة الامم .. وران علينا الركون .. وقامت فتن .. واصبحنا اليوم فى شغل بأنفسنا عن عدونا ـ وهذا ما يريده الاستعمار ، وهيئاته الدولية ..!

ماذا صنع لنا مجلس الامن ..؟

لقد اوصانا بالاناة ، والحلم ، وحسن الضيافة .. !

وماذا صنعت هيئة الامم ..؟

لقد استجابت لرغبة وزير خارجيتنا « صلاح الدين بك » وعطلت جلساتها يوم عيد الاضحى الماضى ، احتراما لنا ومجاملة كريمة منها .. !

هذه هى التضحية الوحيدة التى ضحت بها الهيئة من اجلنا. شكر الله لها ، ورعاها .. !

الا انه اذا اراد قادتنا وحكامنا أن يصيبنا جنون ، فليحدثونا عن قيمة هذه الهيئات ومناقبها كثيرا.

اما نحن ، فنريد لهم مزيدا من العقل والفهم .. لذلك لن نحدثهم عن مناقبها .. بل عن مساوئها ، وهم بها عالمون .

ان هذه الهيئات التى يخدعنا الاستعمار بها ـ ويتظاهر بالتفزع حين نلوح بالاختصام اليها ـ هى « القابلة » التى استقبلت « اسرائيل » على كفيها الآثمتين. وقالت لها كونى شوكة الجنب لهؤلاء العرب الصعاليك .. !!

هى التى وقف « النقراشى » تحت سقفها ، يقول ما لم يقله أحد قبله ، وما لن يقوله احد بعده .. والاعضاء المحترمون يتثاءبون .. حتى اذا قام ممثل بريطانيا ليتكلم .. اصغوا اصغاء جميلا ، وصدقوا افكه ـ وتركوا مصر لا تزال تعج فى قيودها الغلاظ ـ الثقال .. !

وكل محاولة ، ولو فاجرة ، لدولة كبرى ـ تسارع هذه المنظمات الدولية لمناصرتها .

فاذا نوديت لغوث أمة ضعيفة مضطهدة ، فالهيئة نائمة .. ولعن الله من ايقظها .. !

ان احسن عبارة وصفت بها هذه المنظمات ـ تلك العبارة الجامعة لكاتب أمريكى نعتها بأنها « وكالة حكومات » ..

فلينكشف عن ابصارنا غطاء الوهم .. ولنوفر ما نسفكه فى تلك الهيئات من وقت ، وجهد

ولنأخذ الحكمة ، ولو من وايزمان .. الذى كتب لأمته يقول :

« ما من دولة فى العالم بنيت بوعد ، أو مرسوم .. انما يبنى الدول ، كفاح الشعوب عبر الاجيال .. »

لا مجلس الامن ، ولا هيئة الامم ، بقادرين على منحنا الحرية والاستقلال ـ الا اذا منحناهما نحن القدرة اولا .. من كفاحنا الحاد ، وصراعنا الرهيب .

د ـ الاحتلال العسكرى ..

وختام هذه المرتكزات التى يعتمد عليها ـ الاحتلال العسكرى

ان الانجليز متشبثون ببقاء جيشهم جاثما فوق استقلالنا وكرامتنا ـ لا خوفا من روسيا . ولكن خوفا منا نحن .. ان تاريخهم الاسود معنا يفزعهم ، حريتنا كاملة ، فلن نختارهم ويوحى اليهم أننا حين نملك حلفاء ، ولا أصدقاء ..

لقد قال الشعب رأيه فيهم .. وهو لا يخرج عن رأى صاحبهم « توماس بين » !

وقالت الحكومة رأيها واضحا كفلق الصبح فى مجلس الامن .. قالت : (١)

« ان الانجليز فضوليون ، يعرقلون توثيق روابط الوحدة بيننا ، ويعملون على هدمها . . ويخلقون الاقليات ويشجعونها ، ويبقون البلاد فى حال من التأخر ، والشقاق ..

« .. أن العهد الذى بيننا وبينهم بمعاهدة « ٣٦ » ليس سوى أثر من آثار القرصنة التى نجهد فى نسيانها .. ولم يبق فى هذه المعاهدة الا ما يهدد السلام .

« .. ولا ريب انكم ستكونون عونا لنا عى استئصال هذا السرطان الذى ينتاب السلام فى وادى النيل .. »

بعد ابدائنا هذه الآراء فيهم ـ حكومة وشعبا ـ فقدوا كل أمل فى مودتنا ـ واعتقدوا أننا سنختار أصدقاءنا من غيرهم ، وربما من أعدائهم .. لهذا قرروا الاحتفاظ بجيشهم المسلح لينالوا مآربهم منا كرها ، واقتسارا ..

ان بريطانيا تضمر لنا زراية أكيدة ، واحتقارا كبيرا .. بل هى لا تضمر ذلك .. وانما تنادى به وتصيح . وشاهدنا على ذلك مستر اتلى نفسه ...

---

(١) من خطاب النقراشى باشا بمجلس الامن

لقد وقف خطيبا فى المؤتمر السنوى لنقابات العمال البريطانيين يوم ٥-٩-١٩٥٠ فقال بالحرف الواحد : - (١)

* *

« .. لقد قابلنا العدوان الشيوعى فى الطريق حين تركنا الهند ، والباكستان ، وسيلان - تتمتع بكامل حريتها وسيادتها»!!

ارايتم يازعماء مصر .. ؟

اسمعت ياشعب مصر .. ؟

بل اسمعتم يا ضحايا الاستعمار ، فى العراق وفى الشام؟ لو كنا مصدر اخافة وخطر .. لتركتنا بريطانيا نتمتع بحريتنا ، وسيادتنا .. ولو ان بريطانيا ترجو لنا وقارا - مثل الوقار الذى ترجوه للهند وجاراتها . . لتغير تاريخنا .. أو على الاقل ، لم تكن سنجد ذلك الضابط البريطانى الذى يطرد من امامه ضابطا مصريا دخل عليه مكتبه فى « فايد » قائلا :

اخرج .. انت هنا فى ارض انجليزية ..!

هذه - مجتمعة - هى الاستعمار ..

ا - المعاهدات ..

ب - التخويف بالشيوعية والحرب ..

ج - اغراء بعضنا ببعض ..

د - الخداع بالهيئات الدولية .

ه - الاحتلال العسكرى

والآن .. اين الطريق .. طريق الحرية والخلاص . ؟

هذا هو الطريق ..

فى نقيض الوسائل التى يتوسل بها الاستعمار لدعم نفوذه - تتمثل

(١ - آخر لحظة العدد ٨٨)

وسائل تحريرنا وظفرنا ـ فاذاكانت أولى وسائله ، المعاهدات . فليكن نهجنا .. لا معاهدة !

اننا مع بريطانيا فى مفاوضات منذ عام ١٩٢١ ولم ننل منها سوى تمزيق صفوفنا، وتحطيم مقاومتنا.

وتاريخ بريطانيا معنا ، ومع سوانا ـ لايشجع ابدا على التفاؤل بمستقبل اخلاقها السياسية .. ستظل كما هى تتوسل بكل موبقة لمنافعها الخاصة ، واغراضها الاستعمارية ..

وما من زعيم مصرى ، الاوصرخ بهذه الحقيقة وهو خارج الحكم. ونحن نهتم جدا بآراء زعمائنا خارج الحكم لانها غالبا لا تكون ثمرة حرص ولا غرض ..

فى يوم ٣١ـ٧ـ١٩٤٨ ـ صرح عزام باشا لجريدة المصرى هذا التصريح :ـ

« ان موقف انجلترا معنا فى هذه الحرب ـ يعنى حرب فلسطين ـ دليل واضح على أن معاهداتنا معها لا قيمة لها ، الاحيث تكون المصلحة الانجليزية .. ولا يمكن لعاقل بعد هذه التجربة ان يرضى بحلف مع بريطانيا كل نتائجه بالنسبة لنا ان تمتنع فى ايام شدتنا عن الوفاء بما فيه من التزامات »

هذا كلام رجل مسئول ، نختاره من دون الرجال والزعماء ، لأنه شخصية محايدة ـ ويحتل مركزا محايدا ـ وهو لهذا ابعد من غيره عن مواطن الريبة فى أحاديثه السياسية ـ على الاقل.

ولنكن واقعيين ، فنسأل :

من اذن نحالف .. غير بريطانيا؟

هل نحالف أمريكا مثلا ..؟

كلا .. ان امريكا شريكة الاستعمار البريطانى فى كل جريمة منذ غادرت عزلتها .. وانطلقت فى شره واستكلاب نحو السيطرة السياسية على العالم ، وعلى البترول ..

ولقد جاهر ايضا بهذه الحقيقة سفيرنا بوشنطن فى حديث مسهب طويل ..

وكتب مراسل من امريكا يصور وجهة نظر وزارة الخارجية الامريكية فى قضية مصر بالذات، فاسمعوا ماذا يقول :ـ

« ان وزارة الخارجية الامريكية ترى ان جلاء القوات البريطانية عن مصر، لا بد أن يعقبه اشراك مصر فى الكتلة الغربية للدفاع عن البحر الابيض المتوسط، ومناطق الشرق الاوسط، وافريقيا .. وهذا يتطلب بطبيعة الحال مد برنامج الرئيس ترومان ومد مصر بالاسلحة .. ثم ضمها الى ميثاق الاطلنطى خاصة اذا ضمت تركيا اليه ..

« ولكن وزارة الخارجية الامريكية **تشعر بان الوقت لم يحن بعد لان تقف مصر كتركيا على قدم المساواة مع الدول الكبرى فى الدفاع عن الشرق الاوسط ..!**

« والسياسة الامريكية التى تخضع الى حد كبير للنفوذ الصهيونى، لن تسمح بهذا **لانه يؤدى الى الاضرار بمركز اسرائيل .. !**

« وبالرغم من ان مصر دولة مستقلة، فان وزارة الخارجية الامريكية لاتزال تعتبرها **منطقة نفوذ بريطانية** ـ وهى لاتنظر اليها نظرتها الى تركيا والباكستان، كدولة ذات شخصية دولية مستقلة » .. !!

فليحفظ المصريون هذه الحقائق ـ كما يحفظون السورة من القرآن .. أو الآية من الانجيل ..

● ان السياستين الامريكية والبريطانية شىء واحد فيما يتصل بقضيتنا .

● الاتفاق تام بين الدولتين على عدم تسليحنا خوفا من ان نستعمل السلاح ضد اسرائيل .. وليدهم الناشىء المدلل ..

● والاتفاق تام كذلك بينهما على ان تظل مصر دولة صغرى .. ومنطقة للنفوذ البريطاني ، يطلق فيها يده كما يشاء ..!

والدليل على هذا ان امريكا نفسها تقدمت للمسئولين في مصر بنصيحة فحواها – ان نحل مشاكلنا مع بريطانيا عن طريق المفاوضة . .

من اذن نحالف غير بريطانيا وامريكا ..؟

واجيب – فلنحالف انفسنا .. ولن نجد احدا سوانا يستطيع ان يدرأ عنا الاعاصير . وصدق المتنبي :

خليلك انت ، لا من قلت خلي
وان كثر التجمل والكلام

واذا كان الحياد اليوم قد اصبح منوطا بمؤثرات خارجة من ارادة الامم التي ترغبه وتريده ..

واذا كان لاغنى لنا عن حليف فلنعمل بنصيحة عبد الرحمن عزام باشا التي سلفت .. ولنستمع لصوت مصري مسئول آخر – هو الاستاذ حسن سليم بك – رئيس مكتب الاستعلامات المصري بنيويورك :

لقد وقف في النادي الدولي للطلبة بجامعة « كولومبيا » وقال :

« ان روسيا لم تهاجم مصر قط .. اما انجلترا وفرنسا فقد هاجمت كلتاهما مصر اكثر من مرة .. »

كلمة واحدة ، فاسمعوها ..

اما ان نحالف انفسنا ، ونمنح صداقتنا ، وسلامنا لكل من يريدهما .. واما اذا لم يكن من الحليف بد ، فلنحالف روسيا ..

روسيا .. ؟!

نعم .. روسيا .. وهل بدارة باللناس من عار ..؟

نحـــالف روسياالدولة .. لا الشـيوعية . . المذهب . .
لقــد حالفتها امريكا ـ ولاتزال ملاذ الراسمالية . .
وحالفتها بريطانيـا ، ولم تصرشيوعية . .

ومنـــذ اربعة اعوام تقريباحاولت امريكا ان تعقد خلسـة اتفاقا مع روسـيا دون ان تعلم بريطانيا وفرنسا .. لولا ان أعلن مولوتوف ذلك فى اذاعــــة لهفضحت الدولةالمحترمة جداً .. امريكا ! ..

ان دولتى «المحور» بريطانياوامريكا ـ لاتســـاعداننا ، ولا تدعان الغير يساعدنا ..

لقــد حرمونا من السلاح .. بينمــا ابدت روسيا استعدادها لتزويدنا بالسلاح الذى نريد .. ولكن « المحـور الاستعمارى » هدد حكوماتنـا ، وحذرها .. فالىمتى سنظلنجبن ، ونخاف؟

لقد وافقت بريطانيا بعد طولتذلل ورجـاء ان تورد لنا بعض الاسلحة فى عام ١٩٥٦ ..

اتدرون ـ لمـاذا ..؟

لكى تكون اسرائيـل قد بلغتمن القوةوالتمكن مايجعلنا نحجم من استعمال السلاح ضدها ..!

هؤلاء هـم الحلفا الشرفاء .!!

وفى نفس الوقت عرض وزيرروسيا المفـوض باسم حكومته على حكومتنا استعداد روسيـاالتزويدنا بكل مانحتـــاجه من طائرات ، واسلحة ثقيلةوخفيفةـ على ان تسلمها لنا من فورها .. ليس ذلك فقـــط .. بلوابدت استعـــدادها لتسلمينا مايلزمنــــا من آلات الصناعةوالزراعة الحديثة ..

فماذا كان جواب حكومتنا ..؟

تجيبنا على ذلك صحيفةتنطقباسم الحكومة فتقول :

« والمفهوم ان ولاة الامور قد تلقوا هذه العروض بالشكر » !!

***

كونوا انجليزا ..

لماذا تصر بريطانيا على ان تربطنا بعجلتها هى وامريكا ؟

لماذا تريدان ان تسخرانا لمحاربة روسيا .. ؟

أليس يرضى بريطانيا ان نكون بريطانيين .. وان نتخلق باخلاقها الطاهرة الفاضلة .. ؟!

سنصنع ذلك . !

واذن فاسمعوا .

عند ماثارت بلغاريا على تركيا سنة ١٨٧٥ ـ طلبت روسيا ، والمانيا ، والنمسا الى انجلترا ان توقع مذكرة احتجاج قاسية على تركيا .. فرفض رئيس وزراء بريطانيا آنئذ وهو .. « دزرائيلى » وقال :ـ

« كيف تساعد انجلترا فى القضاء على دولة لها صالح فى بقائها ..؟

« وكيف تتعاون مع بسمارك الصديق الذى لايعتمد عليه ؟ »

رضى الله عن دزرائيلى هذا .. وسنردد اليوم نفس كلمته ، ونقف نفس موقفه .. ونقول :ـ

كيف تساعد مصر فى القضاء على دولة لها صالح فى بقائها .. وهى روسيا ..؟

وكيف نتعاون مع بريطانيا .. الصديق الذى لا يعتمد عليه .؟!

هذا اذا تسامحنا ، وافترضنا بريطانيا صديقا ..

واذا ماسئلت : كيف يكون لمصر صالح فى بقاء روسيا سليمة قوية ..؟

اجيب : سلوا مستر « اتلى » فهو الذى يقول ذلك ـ لا انا ..

واذا كنتم قد نسيتم .. ، فاعيدوا تلاوة كلمته التى مرت بنا من قبل ، والتى قال فيها:

« لقد قابلنا الشيوعية فى الطريق . حين تركنا الهند والباكستان وسيلان تتمتع بكامل حريتها وسيادتها »

اذن لولا خوف بريطانيا من روسيا ، مامنحت هذه الامم استقلالها ..

ويوم ينتابها نفس الحذر من جهتنا ، فلن تتردد قط فى ان تسلم لنا بحقوقنا كافة ..

ان بريطانيا تتدلل علينا ، وتستهتر بنا ـ لانها على يقين بأن سادتنا لن يمدوا ايديهم البضة المترفة الى روسيا ابدا

ووالله لو احست ادنى احساس بأننا سنفعل لتكونن اسبق الى ماتريد منا انفسنا ..!

فلنحالف روسيا دون ان نكون شيوعيين ـ ان ذلك ممكن جدا بدليل ماقلناه من ان بريطانيا وامريكا حالفتاها دون أن تصيرا شيوعيتين .

انه فى الوقت الذى تصرح فيه امريكا بأن مصر منطقة نفوذ بريطانية .. يعلن وزير خارجية روسيا فى حديثه لجريدة المصرى فى ٢٧ /١١/ ١٩٥٠ ماياتى :

« لقد سبق أن قلنا ورددنا على مسامع الزعماء المصريين ان الاتحاد السوفييتى سيظل دائما فى جانب الشعب المصرى فى نضاله ضد الاستعمار البريطانى ، وعند ما عرضت المشكلة المصرية على هيئة الامم المتحدة منذ اربع سنوات ـ دافع الاتحاد السوفييتى عن حقوق هذه البلاد التى اصيبت فى كرامتها بوجود القوات الاجنبية فى ارضها ـ وفى كل عمل تريد ان تقوم به الحكومة المصرية والشعب المصرى للتخلص

من القوات البريطانية سيجدان الاتحاد السوفييتى دائما الى جانبهما ..

« ان مكافحة الاستعمار لا تتحدد فى نظرنا ، ضمن نطاق بلد او بلدين ، بل اننا نرى وجوبها فى كل بقعة من بقاع العالم »

« ان الحقوق الشرعية ، والمطالب الطبيعية للشعب المصرى يجب ان يعترف بها ، وان تتحقق .. »

***

فهل بعد المقارنة بين هذين الموقفين . . موقف بريطانيا وامريكا من جانب .. وموقف روسيا من جانب آخر نتردد فى اختيار حليفنا ، اذا كان لابدلنا من حليف ..؟

الاشتراكية . . والسلام ..!

واذا كان المرتكز الثانى للاستعمار فى بلادنا هو تخويفنا بالشيوعية ، وبالحرب .. فليكن موقفنا من الشيوعية أن نسبقها بالاشتراكية .. ونطبق من نظمها مايسمح به تطورنا وامكانياتنا ..

ثم لماذا نخاف الشيوعية .؟

لقد اعلن «ستالين» ، واعلن أيضا «فيشنسكى» ان الشيوعية والراسمالية تستطيعان ان تعيشا بلا حرب ولا خصام ..

ولكن الانجليز يخوفوننا بالشيوعية لنرتمى فى احضانهم ، بل ويصنعون لانفسهم حركة معينة موسومة بالشيوعية لينفذوا عن طريقها اغراضهم الاستعمارية الخبيثة .. !

واذا خوفونا بالحرب ، فليكن موقفنا السلام ...

انه يوم يقر فى ذهن السياسة البريطانية انا لن نحارب معها ولا فى سبيلها .. واننا لن نسمح لبريطانيا ولا لامريكا ولا لروسيا ــ ان تكون بلادنا ميدانا لجيوشها .. وحقلا لتجربة

اسلحتها ، فان بريطانيا ستفكرفى مسالتنا تفكيرا سديدا .

فلنردد كلمةالمراغى من جديدلن نخوض حربا لاناقة لنا فيها ولا جمل ..

ولنعلن من اليوم اننا «سلاميون» نريد السلام ، ونقف بجانبه ..

ولكن – اى سلام نريد ..؟

لقد صار السلام فى عالم اليوم صنوفا والوانا ..

اننا نريد السلام الذى تثمره مصالحنا الخاصة ، وتكيفه ظروفنا الخاصة دون ان نتاثرفى هذا باية مؤثرات اجنبية اخرى .. وبعد ذلك لن يضيرناابدا ان نناصر السلام ، ونتشبث به ..

لقد وقف رئيس جمهورية فرنسا يخطب فى مؤتمر نقابة المحامين الفرنسيين يومافقال :ـ

« لقد عرفت فرنسا الاحتلال الاجنبى ، وذاقت مرارة الاعتداء ولذلك فشعبناسوف يدافع عن استقلاله الوطنى بكل شجاعة ـ الا اننا لانريد أن نخاطر بكياننا مخاطرة جنونية .. **ولذلك نريد السلام لان السلام العالمى شرط اساسى للاستقلال الوطنى . . »**

واذا كان الشعب البريطانى قد وجد من الحرية مايجعله يصرخ يوما فى وجه وزيرحربيته **لا حرب من أجل الدولار . . .** فاننا نمنح انفسنا من الحرية ما نصرخ به فى وجه المستعمرين « لاحرب من اجل الدولار ، ولامن اجل الاستعمار ..

* *

وخطب السنيور (جونلر) وزير المعارف الايطالية ، وعضو الحزب الديمقراطى المسيحى فقال :ـ

« أن السياسة الخارجية للوزارة الايطالية قائمة على مبدأ

دستوری هو ـ اننا ضد الحرب .. وضد ای عدوان علی ارض الوطن .. »

ان الاستعمـــار يعمل فی كل مكان لاعـــداد ضحاياه للحرب

وان خبراء الحرب من رجاله ليجوبون البلاد لينشئوا القواعد والمعســكرات .. وبكل تبجح ووقاحـــة يتصرفون فی اخص شئوننا كما لو كنا أحد شوارع لندن ، اوباريس ، اوواشنطن.!

ولقـد بلغت الجـراة بالمقيم الفرنسی ان قال :.

«اذا قامت حرب عالمية اخری .. فسأركض الارض برجلی ، فينبثق منها جيش جرار من المغاربة » ..!!

واجابه الامير عبـد الـكريم الخطابی بمنشور لافح خاطب فيه بنی وطنه قائلا :

« ان عقيدتكم ، وعزتكم ، ووطنيتكم لتحتم عليكم ان ترفضوا دعوة الفرنسيين الی التطوع فی جيوشهم . لانهم يدفعون بكم الی التضحية فی سبيل المحافظة علی امبراطوريتهم المتداعية ..

«ان ساعة تحريركم من ظلم المســتعمر قد دقت .. فلا تؤخروها بانضمامكم الی جيوشه»!

مؤامرة علی مقدساتنا ..

وبلغت الجراة بأمريكا ان تجعل من « الظهران » قاعدة حربية لضرب روسيا بالقنابل الذرية ...

وما الظهران هذه ... ؟

انها ارض بالحجاز بينها وبين المســجد الحرام ، ومســجد الرسول مثل لمح البصر بالطائرة او هو أقرب ...

تری هل ستظل روسيا ساكنة ساجية ازاء هذه القـاعدة الحربية التی ستنقذف منهـا حاملات الموت والدمار .. ؟

كلا .. وعندئذ ستحاول لامحالة ضربها ، وضرب ما حولها

.. والذى حولها ـ يا اربعمائة مليون مسلم ـ هو مسجد رسولكم ، وبيت الله العتيق .. !

لماذا لم تتخذ امريكا من الفاتيكان قاعدة حربية .. ؟

لانها تخاف عليه ، وتقدسه .. وتغار على ساحة القديس بطرس ان تمسى مقبرة ضخمة لما هناك من مقدسات .. !

لقد نشرت صحفنا كلها خبر اختيار امريكا للظهران قاعدة حربية بحروف بارزة صارخة .. ومع هذا لم يتحرك اولئك الذين استطار بهم الذعر يوم همت بعض اعمدة المسجد النبوى أن تنقض وتتداعى .. !

ترى هل المسألة من السهولة واليسر الى الحد الذى لا يستجيشهم، ويثير غيرتهم ..؟!

انها مؤامرة خطيرة جدا تدبرها امريكا يا سادتنا المؤمنين ..

فنحن لانضمن ، وفى ضباطها يهود كثيرون ـ ان يضرب احدهم فى غمرة الحرب مقدساتنا من الجو ، فينسفها ويذروها .. بل لا نضمن أن تصنع امريكا نفسها ذلك لتصطاد عصفورين بحجر .. فتدمر هذه المقدسات اولا .. وتذيع أن روسيا هى التى اقترفت الجريمة ، لتنتفع بحقدنا عليها ثانيا .. !

ان هذه الخطة الوقحة ، التى اختطها الاستعمار الامريكى ، لتفتح ابصارنا على حقيقة مستيقنة ـ هى أن أى تمكين دبلوماسى او تجارى لدول المحور الاستعمارى فى بلد يفضى بها الى كارثة ...

لقد دخلت امريكا الحجاز تاجرة ... تستخرج البترول وتبتاعه ... وبعد عشية و ضحاها اصبحت مستعمرة .. مستعمرة بكل معانى الكلمة .. وانشات دون اكتراث العالم الاسلامى كله قواعد حربية فى ارض يجب أن تظل محايدة نائية عن كل قتال وعراك ..

لترجع امريكا عن غيها ، ولتغادر الارض المقدسة التى دنستها .. والتى تريد بها مزيدا من الدنس والدمار ...

**

ولتخرج انجلترا من بلادنا اذا كانت تخاف علينا من الشيوعية ، فاستعمارها اكبر محرض عليها ، وداع اليها ..

واذا كانت تحتلنا بدافع الحرب .. فلتعلم اننا ـ حكومة وشعبا ـ قد آثرنا السلام ، وقررنا الا نكون الحنطة التى تدور عليها طاحونة الاستعمار.

ليثق بعضنا ببعض

واذا كان الاستعمار البريطاني يتوسل ايضا لبقائه بتبديد ثقة كل منا بمواطنيه .. ويرسل الاشاعات الكاذبة ليفسد بها ضمائرنا فلنضع نحن اصابعنا فى آذاننا ..

وليس ثمت واجب يتجلى فيه الالتزام الفردى ، كهذا الواجب .

فلاتصدقوا اشاعة ولا اتهاما .. ولا تروجوا لاشاعة ، ولا اتهام ..

لقد سأل الرسول عليه السلام رجلا يتهم آخر فقال : « اترى هذه الشمس ؟.. »

قال : نعم ..

قال الرسول : على مثلها فاشهد ، او دع ..

وكان يقول :

« لا تبلغونى عن اصحابى شيئا ، فانى احب ان اخرج اليهم منشرح الصدر .

واخبر ان ابغض الناس اليه ، وشرهم مكانا عند الله .. الملتمسون للأبرياء العيب .

اذا جاء من يتهم مواطنا لك .. فاعرض عنه ، واذكر دائما

ــ ان السفارة البريطانيــة غير الرسمية . تعمل ليلها ونهارها لهذا الغرض الدنىء ، فأفسد عليها امرها ومسعاها .

ان زعماءنا ــ مهما نشتد فى نقدهم ــ ليسوا شرا خالصا . وانمــا هم على اسوأ الظنــون والفــروض ، قوم خلطوا عملا صالحا ، وآخر سيئا . فلننتفع بما فيهم من خير ، ولنعاونهم على التخلص مما بهم من سوء .

* *

نحن .. وحدنا .

واذا كان الاســتعمار يلهينا بالمنظمات الدوليــة ، فلنــكن ايقاظا .. ولنعتمد على انفسنا وحدها . ولنجعل صلتنا بتلك المنظمات صلة شكلية نبرز بها شخصيتنا الدولية فقط . اما حقوقنا ومطالبنا فلنسلك اليها الطريق وحدنا .. وهذا يفضى بنا الى النقطة الاخيرة وهى :

* *

الاحتلال المسلح .

فى سنة ١٨٧٥ . قال دزرائيلى : ان روح انجلترا هى الحرب ــ مادام ذلك دفاعا عن كيانها .

وفى سنة ١٩٤٢ ــ قال تشرشل : اذا خيرنا اعداؤنا بين الحــرب او العار ، فسنختار الحرب . وســنقاتل على الشــواطىء ، ونقاتل على المهابط ، ونقاتل فى الحقول ، وفى الشوارع ، وفى الجبال ... سنقاتل من اجل حريتنا .. ولن نستسلم ابدا . »

وبعــد ان وضعت الحــرب الاخيــرة اوزارها ، وفشلت المفاوضات الدائرة بين هولاندا واندونيسيا ــ اذاع « احمــد ســوكارنو » رئيس جمهورية اندونيسيا هذا الامر على الشعب !

ــ عندما تدق الساعة الرابعة من صباح الغد . ستكون اندونيسا جميعها ــ الحــكومة والجيش والشعب ــ فى حرب فعلية مع

هولاندا الغاصبة .. وسنقاتل بكل الاسلحة .. بالمدافع .. والبنادق . . والخناجر . . والهراوات . . والعقارب . . والثعابين.. ولينصر الله الوطن.

**

فى هذه الكلمات الثلاث ـ يا مصر ـ تتمثل الوسيلة الواحدة لاجلاء البريطانيين الغـزاة .. وكل طريق اخرى لن تفضى الا الى مذلة ودمار .

واذا كانت الحكومة المصرية قد عاونت الثوار سنة ١٩١٩

فان واجبها فى سنة ١٩٥٠ ان تقود بنفسها الثورة المشروعة ضد الاحتلال الرجيم متاسية بمبادىء انجلترا نفسها ـ التى وضعها دزرائيلى ، وتشرشل.

نعم ـ اذا خيرتنا انجلترا بين الحرب والعار.. وجب ان نختار الحرب فورا

ولقد خيرتنا فعلا .. وبقى ان نختار .. فلنذكر جيدا ـ ان الحياة لاتستحق ان نشتريها بالعبودية والرق ..

وان البريطانيين لن يغادروا بلادنا طوعا .. بل كرها ، وهم صاغرون .

اذا لم نطرد الاستعمار

الى هنـا نكون قد اجملنـا الحديث فى وسائل تمصير مصر، وتخليصها ..

بقى ان نذكر ـ انه ليس حب الاستقلال وحده هو الذى يحتم علينا هذا التمصير.. بل يحتمه قبل ذلك حب البقاء ..

ان الحوادث تمر بنا مسرعة، وهى تجلجـل كدقات ناقـوس هائل ـ باننا اذا لم نشتت شمل الاستعمار، فسيشتت الاستعمار شملنا .. انه يهيىء لحـرب اهلية تقوم فى مصر ليدفن تحت انقاضها مصيرنا .

لابدمن الصراحة ، فاسمعوا ..

لقد بث الاستعمار الغامه فى حياتنا كلها ، واعدها للتفجير. ولقد خلق «الفتنة الكبرى» بين هيئة كبيرة وحزب كبير .. ولعب لعبته من وراء وراء .. وحقق للأسف ـ دون ان يظهر على المسرح ـ كل ما يشتهى ويريد .. وافلح بهذا فى ان ملأ بحوافز الثار ، ودواعى الانتقام ـ نفوسا كانت مفعمة بحوافز الانقضاض على الاستعمار، ودولته ، وجيوشه ..!

ومن ناحية اخرى ـ خلق نشاطا شيوعيا انجليزيا ـ واقنع الحاكمين بأن العاصفة فوق رءوسهم ، فمضوا ينكلون بمواطنيهم .. وملئت نفوس اخرى بالحقد . لا على الانجليز. بل على مصريين مثلنا.! وصار الشعب يلعن حكوماته ـ والحكومات تتعقب الشعب .. والمفسد الأكبر ـ ذلك الاستعمار البغيض ـ رابض يقهقه فى نشوة وجذل.!

* *

فاذا كنا حريصين على وحدتنا، وبقائنا ـ فلنرفع تجاه القلوب المتناحرة ، والوجوه المتنافرة املها القديم ـ يوم أن كانت جميعا .. ولم تكن شتى .. املها فى الظفر بالاستعمار وطرده واقصائه .

واذا لم نفعل ، فستنطلق الاحقاد المكظومة ، والترات الموتورة فتمزقنا شر ممزق .. وعندئذ تذرع جيوش الاحتلال شوارع القاهرة مرة اخرى . وتدوس الأشلاء المهينة.. اشلاء الذين واتتهم الفرصة غير مرة ليتحرروا .. فأبوا .. وضلوا ضلالا بعيدا .

يا ليت قومى يعلمون ..!

اذا لم نلاق الاستعمار فى ملحمة عاجلة، فسنلاقى انفسنا .. حيث يفنى بأسنا بيننا ، ويضرب بعضنا رقاب بعض .

ولو وجد فينا اليوم رجل رشيد ، فلن تكون رسالته سوى

ان يركمنا جميعا فى قذيفة واحدة يقذف بها الاستعمار البريطانى فيرديه ، ويحيينا ..

* *

اتخافون انجلترا يارجال .؟

اذن ، فاقرءوا ـ وهذا خير ما نختم به الحديث ـ نداء الانجليزى العظيم «توماس بين» الى الامريكان يوم وقف يحرضهم على قتال بريطانيا فى حرب الاستقلال .

«سلونى عن الانجليز ، فانا اعرف بهم منكم .. انهم لن يخرجوا من بلادكم الا كرها.. ولن يغادروها الا مقهورين .، فلا تجبنوا عن لقائهم ..

« ليس على وجه الارض انسان يمكن ان يكون جبانا ـ المسألة كلها موازنة .. اما ان الخير فى الاقتحام ، او الخير فى الهرب .. وليس العيب عيبكم .

« انكم توشكون ان تجعلوا اقوى دولة فى العالم تجثو على ركبتيها ، ولذلك فانتم ترتعدون

« ايها الأخوة ..

« ثقوا بالنصر ..

« اجعلوا ايديكم تدافع عن اسلحتكم ، وليس العكس ..

«غطوا وجه الارض باساطيركم

«غنوا ، واستبسلوا ..

«وأحبوا ، وقاتلوا ..

« دعوا زوجاتكم ، واولادكم يفرحوا بموتكم شجعانا ..

«فكروا فى النصر وحده ..



« ان الحوادث لا تغيرنا .. ولكن الذى يغيرنا بحق ، هو تقديرنا لها .. وهذا التقدير متروك لنا وحدنا ... »

مونتان

الى هنا تنتهى فصول الكتاب ويبدأ ختامه .. ولقد حاولنا جهد هذا البحث المقتصد الموجز ـ ان ننفض عن امتنا طغاوة البغى، ورهج الانكسار، ونعاونها فى فض قيودها واغلالها

واذا كان الله لا يساعد الا الذين يساعدون انفسهم ، فمما لا ريب فيه اذن ان امرنا متروك الينا .. وان مصايرنا قد وضعت بين أيدينا . وهذه حقيقة يجب ان تملأ وعينا . ان الشعوب التى كانت تبيع نفسها فتوبقها، قد ضجت فى قيودها .. وهى اليوم غادية لتبتاع نفسها وتعتقها ..

اترانا من هذه الشعوب الميممة وجهها شطر التحرر والانعتاق؟ اذا لم نكن منها ـ فيجب ان نكون .

وعلينا ان نبذل من انفسنا طيب البذل لنبلغ ما نريد

ونحن مصرون على أن يعود الضمير « نا » الى الشعب ، والحكومة معا .. ان الاثنين مجندان اليوم لنضال شاق نبيل يحرر مصر من اعدائها ـ ومن نفسها .. وقد يرى بعض المواطنين ان استنجادنا بالحكومة وتشبثنا بمزاملتها للامة فى الكفاح . نتيجة عدم الثقة ، أو ضعفها بالشعب. وهذا خرص يحتاج الى الفطنة وحسن التقدير فنحن لا ننسى ان حركات التحرير لم ترفع الويتها قط الا على اكتاف الحفاة العراة الكادحين .. ولكننا لا ننسى ايضا أن سواس الامم اليوم غير سواسها بالامس ، وانهم مهما يحاولوا تجاهل الشعوب وحقوقها ، فانهم يخشون باسها ، ويحذرون انتفاضها .. ويحاولون جهد وعيهم أن يقابلوها فى الطريق. فلماذا لا نتيح لهم هذا اللقاء ـ؟

ولبلادنا بالذات وضع يحتم علينا ان نعمل معا ـ حكومة وشعبا ـ فنحن متفقون على ان محاولات النهوض جميعها مكتوب لها البواء بالفشل ، ما دام ذلك السرطان الوقح يجوس خلالنا ، ويعيث فى بلادنا . .

ومن سوى الاستعمار البريطانى نعنيه بالسرطان .. ؟!

ونحن متفقون ايضا على ان عصر الخيانات قد تولى وتقوض .. واستيقظ فى الشعب وجدان ثائر مستريب يقظان . لا يزدرد

الخيانة فى يسر ، ولايتجرع الافك فى صمت ..

ومتفقون مرة ثالثة على ان ضعف شعب من الشعوب لم يعد مبررا لاستغلاله وهوانه . فالشعوب كلها تتآخى اليوم تآخيا واعيا وهادفا.. ولايسمح شعب حر ان تطوق حكومته شعبا آخر بالسلاسل والاصفاد.

من كان يظن – ان يقف فى فرنسا رجل من بينها ، هو «موريس توريز» وتقف من ورائه صفوف الجماهير التى لا تنتهى عند مد البصر .. فيعارض والجماهير معه – ارسال جيش فرنسى الى الهند الصينية لمحاربتها ، واخضاعها للاستعمار الفرنسى الطائش . ويقول قولته الحرة :

« لن يحارب ابناؤنا واخوتنا من اجل استعمار غيرنا .. دعوا الهند الصينية تتحرر .. انهم بشر مثلنا » .. !

بل من كان يظن ، عندما تمادت الحكومة الفرنسية فى استهتارها .. وطفقت تعد حملة عسكرية لتأديب تلك البلاد – ان يدعو « توريز » هذا جهارا علنا ، الى عرقلة المجهود الحربى الظالم الذى تكتله حكومته ضد الهند الصينية .. ثم يساهم ، ومعه نجل رئيس الجمهورية الفرنسية مساهمة عملية فى تعويق الحملة، وعرقلتها .. ؟

علام تدل هذه الظاهرة الخطيرة فى تاريخ الحرية ..

انها انبثاقات ضمير جديد يتكون حثيثا فى البشرية الجديدة .. البشرية التى تريد ان تسوى فى التقدير والاحترام بين سائس الخيل ، وحامل الصولجان.. وبين اضعف الشعوب ، واقواها .. البشرية التى قررت ان تضع حكوماتها فى خدمة مبادئها .. لا ان تسخر مبادئها لاغراض حكوماتها ..

البشرية التى وقفت على سر ظفر الذئاب بها .. وهو انها كانت تسير فى موكب الحياة متصدعة متشتتة .. قد شطت نواها .. وانشقت عصاها – تظفر الذئاب منها بكل مستفردة قاصية .. فتعلمت وعرفت .. وقررت ان تجمع شملها ، وتضم الفتها ،

وتصل نظامها ، وتتحرك فى الموكب العتيد متشابكة الايدى . موصولة الصفوف ..

الا انه من الغفلة ان يستهين اليوم حاكم بحق شعبه وحريته ـ كائنا ما كانت قوة الحاكم ، وضعف الشعب ..

ومن الصفاقة الممتازة .. الا يرى حاكم شعبه جديرا بالحرية ـ ثم يرى نفسه جديرا بالتفرد والاستبداد .. !

فلنذكر جيدا ـ ان الشعب مهما تكن ضآلته وانحطاطه ، جدير بالحرية جميعها . لان الحرية ليست مثوبة يثاب الشعب بها ، او نوطا من انواط الزينة والتكريم يزين صدره .. بل هى حياته .. هى وجوده .. هى ضرورته الكبرى التى لاينهض بسواها ، ولا يحيا ..

واذا كنا قد اهتدينا فى مسيرنا عبر هذا الكتاب الى وسائل التحرير والخلاص كما نراها .. وربما ايضا كما يراها بقية المواطنين ، فقد بقى امامنا ادراك حقيقة هامة .

يقول الفيلسوف « جوته » :

« ان التفكير سهل . . لكن العمل صعب .. والعمل وفاقا للتفكير هو اشق واجبات الحياة ، واهداها سبيلا . »

ونحن الى اليوم شعب يحس كثيرا .. ويفكر قليلا .. ولايعمل ابدا . !

ولكنه مع ذلك ، وللاسباب التى ابديناها آنفا ـ يستحق الحرية .. جميع الحرية .

والواجب الذى يتوسل به لحقه . يشع من كلمات ذلك الفيلسوف .

فلنفكر لانفسنا فى دقة وعمق .. ولنكون لها ، ونحن نفكر ـ ارادة العمل .. فاذا ما انتهينا من انضاج الفكرة .. انتهينا ايضا من انضاج الارادة .. عندئذ نعمل فى ثبات وجراة وفق تفكيرنا الواعى ـ لا وفق عواطفنا المتميعة .

اننا حتى الآن ـ لا نجيد فن التفكير ، ولا فن العمل .. فتفكيرنا

وساوس غامضة . . وهملنا انفعالات غريرة .

هكذا نحن ـ الدولة والمجتمع

فالدولة لا تزال تؤمن ان خلاصها من المستعمر ياتى بالسلم عن طريق المفاوضات . . ويأتى بالحرب عن طريق التمثيل والمظاهرات . . والشعب على دينها من المؤمنين . . !

وهنا يبين حظنا الوافر من قلة التفكير . . فلو اننا فكرنا تفكيرا مركزا لا انتهينا الى ان انجلترا دولة تحترم القوة ، وتحتقر الحق . .

دولة تؤمن بحقوق الانجليز اولا . . ثم حقوق الانسان ثانيا !

دولة يجلد رجالها عراة . . فتنشىء للجلادين دولة . .

ويكرم رجالها فى نادى «العلمين» فتعض الأيدى التى اكرمتهم ، وتبصق على الوجوه التى استقبلتهم . . !

نعم ـ لو اننا فكرنا ، لاعرضنا عن كل حاكم يتظاهر ضد الانجليز . . لانه فقط يخدعنا ، ويطيل امد مكثهم بيننا . . ولبحثنا عن الحاكم الذى يصنع كما صنع « احمد سوكارنو » ـ فيقود الامة والجيش الى التحام هائل مع قوى الشر والضلال التى افنتنا وسوت بنا التراب . . !

ما ذا وراء هذه المخاطرة من عاقبة . . ؟

الموت . . ؟

ما اعذب الموت اذا حان الاجل!

ان رائدا من خيرة رواد الحرية ينادينا ويقول :

« هل بلغ من قيمة الحياة ، وحلاوة السلم ان نشتريهما بالاغلال والرق؟ وقانا الله ذلك . !»

« لست أدرى اى نهج ينهجه غيرى ، اما انا فاقول : **الحرية . . او الموت . !** »

وضعف تفكيرنا ايضا هو الذي يجعلنا نسيء الظن بالحرية ، ونخاف على النظام من ضراوتها، ونحاصر الامة بسلسلة عاتية من القوانين والاجراءات ..

ولو اننا فكرنا جيداً لعلمنا ان الجهد الذي نبذله لترويض الشعب على احترام القوة ثم لا يجدى ـ خير منه جهد يبذل لترويض الشعب على احترام الواجب ، ثم يجدى ويفيد .

وضعف تفكيرنا ، هو الذي جعلنا عزين واشتاتا .. يكيد بعضنا لبعض ، ويلعن بعضنا بعضا ...

ولو اننا فكرنا قليلا ، لراينا الارض المشتركة التي تجمعنا كافة ـ من كل الهيئات ، والاحزاب ـ هذه الارض المشتركة هي « ارادة التحرير » ..

كلنا ـ نحن الشعب ـ متفقون على ارادة التحرر مما نحن فيه من ذل واستعمار واستبداد . والخلاف بيننا في الوسائل ، وهو لهذا خلاف صغير لا يعتاق سوى القلوب الصغيرة ، والعقول الصغيرة .. فلنتكتل معا في هذه التخوم المشتركة ، والارض الجامعة

التفكير السديد ـ والعمل وفق هذا التفكير ـ هما الخطوة الاولى يا رواد التحرير والانقاذ

والشعب الذي يكتظ فكره بالبغضاء ، والثار ، والحسد ، والتربص ، والعجز ، والتلاوم ـ لن يكون شيئا ما ، في يوم ما .. وسيظل رمزا لما تستطيع هذه الافكار الرديئة السوداء ان تصنعه لتمزيق الامم والجماعات

فلنغسل تفكيرنا من هذه الاوضار .. ولنواجه مشكلتنا الكبرى بافكار مستقيمة مستبشرة باسلة .. ولنحول طاقة الثار والحقد التي تغص بها نفوسنا الى عدونا الحق ـ المستعمر ، والمستبد ..

لماذا تتخاذل افكارنا وتتراجع عندما نوجهها لملاقاة مشكلة الاستعمار البريطاني ... ؟

ولماذا تقاحم وتندفع من تلقاء نفسها لتضرب بعضنا ببعض ، وتجعلنا عبرة واحاديث .. ؟

لماذا تجبن في الاولى ـ وتستبسل في الثانية .. ؟

السبب انها افكار طائشة ... بل هي ليست افكارا على الاطلاق .. لكنها انفعالات غريرة مجنونة تتسرب خلالها ـ واأسفاه ـ كل طاقتنا .. حتى اذا يممنا كفاحنا شطر الاستعمار ـ لم نجد من انفسنا ناصرا ولا ملتحدا .. !

يقول فيلسوف حكيم :

« ان المرء لا تضيره الحوادث ، وانما الذي يضيره بحق ـ هو تقديره للحوادث .. »

فلنقدر الحوادث التي تقع بيننا ـ نحن المواطنين ـ تقديرا كريما يرتفع بنا عن التناحر ..

ولنقدر الحوادث التي تجري بيننا وبين الاستعمار تقديرا يندفع بنا الى مناهضته ومقاتلته

ما اروع محمدا عليه السلام ، وهو يقول لصاحبه في الغار : ما ظنك باثنين .. الله ثالثهما ... !

ان هذا التفكير المؤمن بالنصر ، الواثق بالفوز ، والعمل وفق هذا التفكير ، وكان ساعتئذ يتمثل في الهدوء ورباطة الجاش ـ هما اللذان صرفا عنه ابصار الذين لو نظر احدهم تحت قدمه لرآه .. وراى صاحبه معه .. !

لقد انتهى العهد الذي كنا نتساءل فيه : ماذا نعمل .. ؟

وحل عهد جديد شعاره : يجب أن نعمل

وبعد ـ فها انت ذا تبلغ ختام الكتاب .

لتظن ان ما بينك وبينه قد انتهى ببلوغ هذا الختام ..؟

كلا .. فالآن يتلقفـه عقلك الكامن ، ووعيك الباطن ليصوغا لك منه فكرة .. ويرسما نهجا .. ويصطنعا ارادة تحدث بعد ذلك امرا ..

فلندعهما الى حين ..

ولنتصور من جـديد ذلك الشوط الذى قطعناه .. لقـد سرنا هكذا ...

شعب فى السلاسل .

الحرية .. هى الخلاص .

الشخصية .. كى تعمل

تمصير مصر .

* *

ان هذه الشمس التى تشرق علينا كل صباح تذكرنا بدفء الحرية ..

وهـذا الفجر الذى تتشقق عنه ارحام الليالى واكمامها ـ يذكرنا بضوء الحرية ..

وهذا الربيع فى مهرجانه الطليق الحافل .. يستجيش حنيننا الى الحرية ..

وصيحة آتية من وراء القرون تنادى الطغاة :ـ

متى استعبدتم الناس ، وقد ولدتهم أمهاتهم احرارا ؟

تسوقنا سوقا عنيفا لمعركة الحرية ..

***

واذا سئلنا ـ ما نحن .. ؟ كان جوابنا :

نحن شعب يريد أن يصحح شخصيته .

ويحقق حريته ..

ويعلن فى ربوعه ونجوعه حقوق الانسان .

